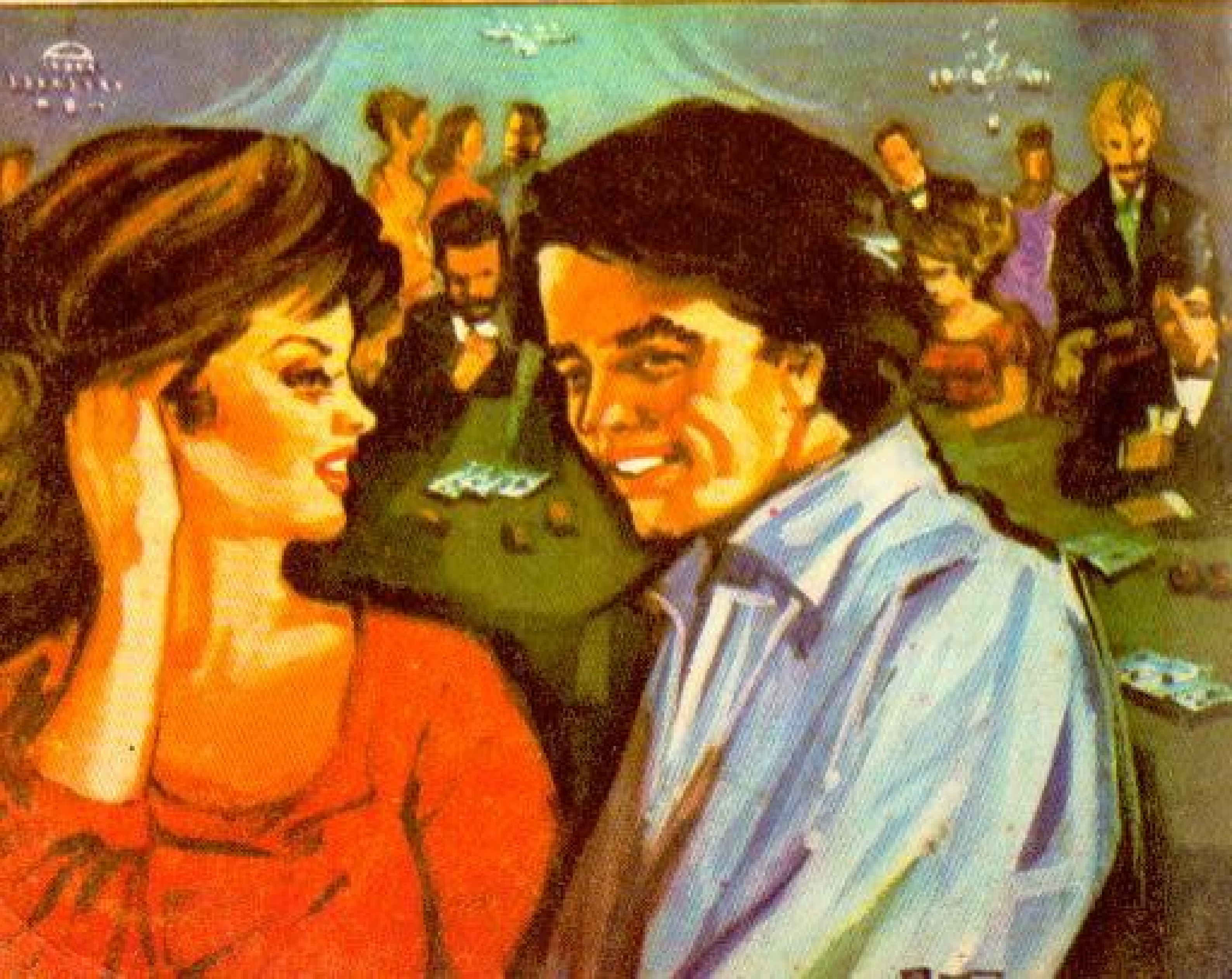
روايات الهلال

المقامر

دوستويفسكي



روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة - دار الهلال .

العدد ٣٥١ – مارس ١٩٧٨ – ربيع الأول ١٣٩٨
No 351 — March 1978

بيانات ادارية

ثمن العدد : في جمهورية مصر العربية ١٥٠ مليما . عن الكميات المرسلة بالطائرة - في سوريا ولبنان ٢٠٠ قرشا . في الاردن ٢٠ فلسا . في العراق ٣٠٠ فلسا - في الكويت ٣٠٠ فلسا - في السعودية ٢٫٥ ريال سعودي

قيمة الاشتراك السنوى : ١٢ جنيها في جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربي والافريقي ١٥٠ قرشا صاغا - في سائر انحاء العالم ٦ دولارات امريكية أو ٢٫٥ جنيه والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال في جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . وفي الخارج بشيك مصرفي قابل للصرف في جمهورية مصر العربية . والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادي - ويضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار الموضحة عند الطلب .

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بالقاهرة

تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

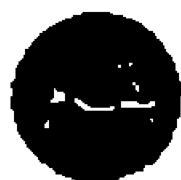


روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

المقامر



دستويفسكي



صوفي عبد الله



دار الهلال

دستويفسكي والقمار

هو فيدور ميخايلوفتش دستويفسكي (١٨٢١ - ١٨٨١) . كان والده طبيبا في الجيش ، أرسل ابنه الى مدرسة الهندسة العسكرية . فهو اذن من طبقة صغار السادة الفقراء ، ولم يمكث فيدور في خدمة الجيش امدا طويلا ، بل سرعان ما تركه ليتفرغ للأدب ، وعاش حياة مادية مضطربة ، تثقله الديون ، بسبب ولعه الشديد بالقمار !

وقصته البكر ، اى أول انتاج أدبي له ، هي « المساكين » التى قمت بترجمتها لسلسلة روايات الهلال ، ترجمة كاملة امينة ، وهي قصة عاطفية رقيقة جدا يجمع بطلها بين شدة الفاقة المادية وشدة الثراء النفسي وكرم اليد والخلق وسخاوة العطاء القلبي ، وقد اكسبته هذه القصة الأولى شهرة عظيمة ...

وتوالت بعدها قصصه ، التى قدم في أوائلها - اى انتاج شبابه - الصورة الأولى أو المسودة الموجزة لأنماط أبطاله في قصصه التى كتبها في مرحلة النضوج ، ومعظمهم من النوع الحالم الذي يعيش في عالم من خلق خياله ، ولكنه عالم كثيرا ما يقوضه الاصطدام بظروف المجتمع الواقعية والانفعالات المتضاربة ، مع خور العزيمة ، وضعف الهمة ، فأبطاله اذن يغلب عليهم الانسياق وراء عواطفهم ، فهم أضعف من أن يصمدوا لصدمات وكثيرا ما تصيبهم الظروف باحباطات شديدة ، لا قدرة لهم على مقاومتها .

وفي عام ١٨٤٨ ، انضم فيدور الى مجموعة التفت حول « بتراشفسكي » فقبض عليه مع سائر المجموعة وحوكم امام محكمة عسكرية ، وصدر الحكم عليه بالاعدام ، ولكن في لحظة التنفيذ ، وبعد أن عصبت عيناه ، واستعدت سرية الاعدام لاطلاق النار وصل رسول من القيصر يحمل مرسوما بتخفيف الحكم الى السجن في سيبيريا مع الأشغال الشاقة لمدة اربع سنوات ، ثم اعيد الى خدمة الجيش هناك مع انزاله الى رتبة نفر !..

وانقضت عشر سنوات قبل أن يسمح له بالعودة الى روسيا لاستئناف عمله الادبي وقد غيرت مدة السجن آراءه ؛ وسار اكثر ميلا الى المحافظة بعد التطرف ، بيد ان هذا السجن والنفى ارهفا لديه حالة الحساسية فتفاقم داء الصرع الذى اصيب به منذ لحظة الاعدام ، وظل الى آخر عمره متوعك الصحة .

وبعد عودته بدأ فى كتابة قصص مرحلة النضوج ، ومن اهمها « مهانون ومحتقرون » و « ذكريات بيت الموتى » ، وهذه القصة الاخيرة تصور الحياة فى سجون سيبريا .

● الجريمة والعقاب : وهى قصة الطالب الفقير « راسكولينكوف» الذى قتل مرابية عجوزا شريرة ليبرهن على انه سوبرمان .

● الابله : وهى قصة الأمير القديس « ميشكين » ، الذى يتبع نداء قلبه النبيل ويتنازعه حب امرأتين منكبرتين من نوعين مختلفين.

● الممسوسون او الشياطين : وهى قصة السوبرمان « ستافروجين » واتباعه الذين يدورون فى فلكه ؛ وهم انماط من المتمردين والطموحين والمتطرفين فى البحث عن تحقيق ذواتهم بالعنف .

● الاخوة كرامازوف : وهى قصة والد فاجر مع ابنائه المختلفى المشارب والطباع ...

وبعدها كتب دستويفسكى ثلاث قصص اصغر من هذه حجما ، منها المقامر ، والزوج الابدى .

ودستويفسكى فى جميع ما كتبه امام القصة النفسية غير منازع، فقد وصل فى تحليل النفس البشرية الى مدى لم يبلغه احد قبله ولا بعده ؛ ولا اهتمام له – كتولستوى مثلا – بالاحداث الخارجية، بل يغوص بلا هوادة الى اعماق لا شعور ابطاله ، حيث يرينا اياهم فى مواجهة الصراع العظيم بين الخير والشر، او بين الله والشيطان. فابطاله انماط تمثل أفكارا ، ولكنهم مشخصون اتم تشخيص.

* * *

وقصة المقامر ، تكاد تكون من بعض جوانبها صورة شخصية له ، فقد كان مصابا بآفة القمار ، حتى انه كان مستعبدا لها الى درجة « الوسواس القهرى » الذى لا يستطيع له مقاومة .

انه يصور فيها كيف كان العلية واشباه العليا الروس مجانين بالقمار فى مدن المانيا المشهورة بتلك النوادى العالمية ...

وبطله اديب ومثقف ونبيل وعاشق ، ولكن جنون القمار يظل

به حتى يضحي بحبيبته نفسها . كان يعرف انه هالك ومضيع لحياته ولفرصة سعادته التي كان يحلم بها طول عمره ، ولكنه لا يستطيع مقاومة جاذبية القمار ، وترك حبه يذهب الى غير رجعة ، وهو آسف شقي نعم ؛ ولكن شيطان القمار كان اقوى من كل شيء .

كل ذلك مصور في خطوات وئيدة ، تحلل هذه الصراعات بين قوى النفس الواحدة ، كأنما البطل قد تخبطه مس من الشيطان !

الفصل الأول

عدت بعد غياب اسبوعين .. وكانوا جميعا قد استقروا فى « رولتنبرج » منذ ثلاثة أيام ، وكنت اظنهم جميعا فى اشد الشوق الى رؤياى ، ولكنى كنت فى هذا على خطأ مبين ، فقد نظر الى الجنرال فى عدم مبالاة ، وخاطبنى فى تنازل ، وحولنى الى اخته ، فلابد انهم فى هذه الاثناء كانوا قد حصلوا على مبلغ من المال من جهة ما ، ولم اتمالك نفسى من الاحساس بان الجنرال لم يكن على سجينه معى ، وبدت ماريا فيليوفنا مشغولة للغاية ، ولم تكد تجد متسعا من الوقت للتحدث الى ، ولكنها مع هذا تناولت منى النقود وعدتها واصغت لما قلته لها ، وكانوا ينتظرون على الغداء الفرنسى، وانجليزيا لم اقابله من قبل، وما داموا قد حصلوا على نقود فلابد بالطبع من ان يولموا مادبة غداء على التقليد الموسكوفى الحقيقى ، ولما وقع نظر بولينا البكسندروفنا على سألتنى :

ــ اين كنت كل هذا الوقت ؟

ثم استدارت متنحية عنى من غير ان تنتظر ردا على سؤالها ، ولابد لى ولها من محادثة طويلة ، لان هناك من الامور ما لابد من توضيحه .

وكانت قد خصصت لى حجرة صغيرة فى الطابق الرابع من الفندق، فانا معدود هنا من افراد بطانة الجنرال ، وكان واضحا انهم استطاعوا فعلا ان يجعلوا انفسهم ذوى شان بارز ، فالجنرال معدود فى الفندق من الارستقراطية الروسية ، وقد وجد لديه متسعا من الوقت قبل الغداء فاستدعانى وارسلنى الى مكتب الفندق لاستبدال ورقتين من فئة الالف فرنك ، وسيجعلنا ذلك نبدو من اصحاب الملايين ــ لمدة اسبوع على الاقل ، وفكرت فى اخذ ميشا ونادية للتريض ، لكن الجنرال استدعانى وانا اهبط السلم ، واراد ان يعرف اين ازمع ان آخذهما ، وكان يتحاشى نظراتى ، ولكنى امرؤ يجبب من الاسئلة وانا احملق فى جسارة ، ويبدو ان هذا يقلقه ،

وبعبارات ملتوية متلعثمة افهمنى اننى يجب ان آخذ الطفلين للنزهة فى الحديقة ، فى ابعد مكان ممكن عن الكورسال ، وفى النهاية فقد اعصابه واردف فى خشونة :

ـ لانى اعلم انك كنت تريد اخذهما الى الكورسال ... لاتؤاخذنى ، ولكنك فيما اعلم لم تزل ارعن ، وقد تتورط فى المقامرة ، ومع انى لست قيما عليك ، ولا رغبة لى فى القيام بهذا الدور ، الا انه من حقى أن اطلب اليك الا تورطنى ...

فقلت له بهدوء :

ـ لانقود معى ، وكى يخسر المرء نقودا يجب اولا ان تكون لديه نقود .

فاجابنى الجنرال ، وقد احمر وجهه قليلا :

ـ ستاخذ شيئا من النقود فورا .

واستخرج من مكتبه دفتر حساباته ، واتضح له من مراجعته انه مدين لى بنحو مائة وعشرين روبلا ، فقال :

ـ وكيف نسويها ؟ يجب تحويلها الى تالرات ، فخذ الآن مائة تالر ، أما الباقى فلن يهرب بالطبع .

فتناولت المبلغ فى صمت ، فقال :

ـ لا تتاذ مما اقوله لك ، فانت مفرط الحساسية ، انما اردت فقط ان احذرك ، واظن ان لى بعض الحق فى هذا ...

وعند عودتى مع الطفلين قبل الغداء التقيت بهم فى موكب حقيقى ، وكانوا قد ذهبوا لمشاهدة بعض الاطلال أو الآثار فى عربتين كبيرتين تجرهما جياد مطهمة ، وقد جلست فى احداهما الآنسة بلانش مع ماريا فيليوفنا وبولينا ، اما الفرنسى والانجليزى وجنرالنا فكانوا على صهوات الجياد ، وكان الناس يقفون فى الطريق ليشاهدوهم ، لان منظرهم كان ذا وقع كبير ، ولكنى اخشى ان ينتهى هذا كله نهاية سيئة بالنسبة للجنرال ، فقد حسبت حسبتى واتضح ان الاربعة الآلاف فرنك التى احضرتها انا ، بالاضافة الى المال الذى لعلهم حصلوا عليه ، تصل الى سبعة او ثمانية آلاف فرنك ، وهذا لايكفى الآنسة بلانش التى تنزل بالفندق مع أمها ، وكذلك الفرنسى فى مكان قريب ، وخدم الفندق ينادونه

« الكونت » ، وينادون والدة الآنسة بلانش « الكونتس » ، ولعل اللقبين صحيحان !

وقد صح ظنى فلم يعترف الكونت بوجودى عندما اجتمعنا قبل الغداء ، ولم يفكر الجنرال طبعا فى تقديمى اليه ، بل لم يذكر اسمى على لسانه ، وكان الكونت قد ذهب الى روسيا ، ولذا كان يعرف ان « المعلم » أو « المؤدب » شخص ضئيل القدر ، وهو يعرفنى تمام المعرفة بالطبع ، واعترف اننى جئت الى مائدة الغداء غير مدعو — ويبدو ان الجنرال نسى ان يصدر اوامره بذلك .. ولذا حضرت من تلقاء نفسى ، ورمقنى الجنرال باستياء .. ووجدت لى ماريا فيليوفنا مكانا من طيب خاطر ، ولكن التقائى بمستر أستلى هو الذى انقذنى ، وهكذا وجدت نفسى عضـــــوا اضطراريا فى المجموعة .

وكانت المرة الاولى التى قابلت فيها هـــذا الانجليزى الغريب الأطوار فى عربة سكة الحديد الروسية حيث جلس كل منا أمام الآخر ، وانا ذاهب للحاق ببقية الجماعة ، ثم قابلته على الحدود الفرنسية ، ثم فى سويسرا ، وقابلته مصادفة مرتين أيضا فى الاسبوعين الماضيين ، وهانذا القاه هنا فى رولتنبرج ، ولم يسبق لى فى حياتى كلها ان قابلت رجلا فى مثل خجله ! فهو خجول الى درجة البلاهة ، وهو بالطبع يدرك هذه الحقيقة ، لانه فى الواقع ليس غبيا ، وفيما عدا هذا فهو رجل ظريف جدا وهادىء ، وقد استطعت اخراجه من خجله فى مقابلتنا الأولى بروسيا ، واخبرنى انه زار الراس الشمالى هذا الصيف ، وانه شديد الرغبة فى زيارة مهرجان نوفوجرود ، ولا ادرى كيف عرف الجنرال ، ويبدو انه غارق الى اذنيه فى حب بولينا ، فعندما دخلت الحجرة احمر وجهه مثل السماء ساعة الغروب .. وقد سره كثيرا ان اكون جاره ، ونظر الى نظرته الى صديق حميم .

اما الفرنسى فتظاهر بالتعالى على المائدة ، وعامل الجميع بالاهمال وتنازل المتعلى ، ولكنى اتذكر كيف كان حريصا على الارضاء فى موسكو ، واكثر من الكلام عن الاحوال المالية والسياسية فى روسيا ، وكان الجنرال يخاطر بين الحين والحين بمعارضته ، ولكن بلباقة شديدة ، ليظهر انه لم يتنازل نهائيا من ادعاء الاهمية .

وكنت في حالة مزاجية غريبة ، وغني عن البيان ان الغداء لم يكد يصل الى منتصفه حتى كنت قد سألت نفسي السؤال المعتاد الذي لا مناص منه ! ماذا اصنع بالتعلق باذيال هذا الجنرال ، ولماذا لم اتركه منذ أمد طويل ! وكنت انظر الى بولينا اليكسندروفنا بين الحين والحين ، ولكنها لم تعرني ادنى التفات ، فانتهى الامر بي الى أن صرت مستثار الحس اترقب فرصة ابدى فيها الفظاظة ، وكانت البداية اقتحامي الحديث على حين غرة ، لأني اردت ان اتشاجر مع الفرنسي باي ثمن ، والتفت الى الجنرال وقاطعته بصوت مرتفع بانه لم يعد في وسع اي روسي ان يتغدى على مائدة الفندق العامة ، فنظر نحوي الجنرال بدهشة ، فقلت :

ـ اذا كنت شخصا تحترم نفسك فمن المحتم ان تقابل بالاساءة وتتحمل افظع الاهانات ، ففي باريس ، وعلى شاطىء الراين ، بل وفي سويسرا ، يوجد بولنديون كثيرون جدا ، ويوجد من يتعاطفون معهم من الفرنسيين على مائدة الفندق العامة بحيث لا تجد من يكلمك كلمة واحدة اذا كنت روسيا .

قلت هذه الجملة بالفرنسية ، فحملق في الجنرال مرتبكا ، وهو لايدري ايغضب أم يكفي أن يظهر الدهشة لوقاحتي ، وقال الفرنسي بلهجة تجمع بين التكاسل والازدراء :

ـ لاريب انه ألقى عليك بعضهم درسا في مكان ما من هذه الامكنة !

ـ لقد تشاجرت اولا مع بولندي في باريس ، ثم مع ضابط فرنسي عضد البولندي ، وانحاز الى جانبي بعض الفرنسيين عندما قلت لهم انني أردت ان ابصق في قهوة المونسينيور .

فقال الجنرال في دهشة مظهرية ، وهو يرمقني بنظرة من فوق كتفه : « تبصق ! ؟ » ؛ واما الفرنسي فحملق في وجهي غير مصدق ، فقلت :

ـ نعم ياسيدي ! ولما كنت منذ يومين اعلم انني يجب ان اذهب الى روما بسبب هذه المسألة ، لذا ذهبت الى سفارة الكرسي الرسولي في باريس للحصول على تاشيرة الدخول في جواز سفري ، واستقبلني كاهن قصير القامة ، في نحو الخمسين من العمر ، له سحنة جليدية قاحلة ، واصغى الي في تهذيب بارد وطلب مني الانتظار ، ومع اني كنت متعجلا الا اني جلست ، وتناولت صحيفة

« الرأى الوطنى » من جيبى وشرعت اقرأ اقذع السباب الموجه الى روسيا – وفى هذه الأثناء سمعت شخصا يأتى من الحجرة المجاورة ويصعد السلم الى المونسنيور ، وانحنى له الكاهن ، فالتفت اليه وكررت طلبى ، فطلب منى – بمزيد من البرود – أن انتظر ، وبعد برهة حضر اجنبى ، كان نمسويا فيما اظن ، فاصغى الكاهن لكلامه ، ثم اصعده على الفور ايضا ، فأثارنى هذا المسلك ، فنهضت واقتربت من الكاهن ، وقلت له بحزم ما دام المونسنيور يستقبل الناس ففى وسعه استقبالى ايضا ، فتراجع الكاهن الى الخلف ، ولم يستطع ان يفهم كيف يجسر روسى لا قيمة له على وضع نفسه فى مستوى واحد مع زوار المونسنيور ، وقاس قامتى بنظراته علوا وسفلا وصاح باوقح لهجة كالمبتهج بسنوح فرصة يوجه لى فيها اهانة : « اتحسب المونسنيور يرجىء شرب قهوته حقا لاجل خاطرك ؟ » ، وعندئذ صحت بصوت أعلى من صوته بكثير : « اسمح لى ان ابلغك انى لا ابالى بقهوة المونسنيور ! وما لم تنجز جواز سفرى هذه اللحظة ساذهب اليه بنفسى! » ، فصاح الكاهن، متراجعا فى فزع : « ماذا تقول ؟ تصعد اليه بينما الكاردينال معه ؟ » واندفع الى الباب وبسط ذراعيه ليدلنى على انه مستعد للموت قبل ان يتركنى امر ، وعندئذ قلت له انه زنديق وهمجى، وان كل المطارنة والكرادلة ومن اليهم ليسوا عندى شيئا ذا بال، وقصارى القول اننى اظهرت له عدم استعدادى للخضوع ، فنظر الكاهن الى بمقت لا حد له ، وانتزع جوازسفرى من يدى وصعد به ، وبعد دقيقة كانت عليه التأشيرة .

واخرجت جواز سفرى ، واريتهم التأشيرة قائلا : « ها هى ، اتحبون ان تنظروا اليها ؟ » وعندئذ قال الجنرال : « الحقيقة انك ... » ولم يكمل ، وقال الفرنسى متضاحكا :

– لقد انقذت نفسك بقولك انك همجى وزنديق ، حيلة لا تخلو من ذكاء .

– افكنت تريدنى ان اصنع ما يصنعه المسافرون الروس ؟ كل ما يصنعونه ان يقفوا ساكتين ولا يجسرون على التفوه بكلمة ، بل يكادون ينكرون انهم روس ، لقد بداوا على كل حال فى الفندق

باريس يعاملونني بمزيد من الاحترام بعد ان حدثتهم بما كان من امري مع الكاهن ، وتقرب مني سيد بولندي بدين كان اشد الجميع عداء لي من قبل على المائدة العامة ، بل ان الفرنسيين تحملوا برحابة صدر ما ذكرته من انني قابلت منذ عامين رجلا كان قناص فرنسي قد أطلق عليه الرصاص في عام ١٨١٢ ، لا لشيء الا لانه كان يريد ان يفرغ بندقيته ، وكان ذلك الرجل غلاما في العاشرة منذ وقوع ذلك الحادث ، تعذر على اسرته مبارحة موسكو (١) .

فصاح الفرنسي وقد استشاط غضبا :

ـ مستحيل ! الجندي الفرنسي لا يمكن ان يطلق النار على طفل!

ـ ولكنه صحيح مع هذا ـ وقد روى لي الحادث ضابط متقاعد ، وشاهدت بنفسي الندبة التي تركتها الرصاصة على خده .

فاخذ الفرنسي يلقي خطبة او مرافعة سريعة ؛ وحاول الجنرال ان يعضده ، ولكني اوصيته ان يراجع ـ مثلا ـ مذكرات الجنرال بيروفسكي التي كتبها في عام ١٨١٢ ، وهو اسير في يد الفرنسيين ، واخيرا شرعت ماريا فيليوفنا تتكلم في موضوع آخر ، كي تغير الموضوع ، واستاء الجنرال مني جدا ؛ لانني والفرنسي كنا قد بدانا نتبادل الصياح ، وكان مستر استلي يبدو مستمتعا بجدلي مع الفرنسي ، فنهض من مقعده على المائدة ودعاني لاحتساء كاس من النبيذ معه ، وفي تلك الامسية تمكنت من التحدث الى بولينا الكسندروفنا لمدة ربع ساعة ، وكان الجميع يتجهون عبر الحديقة صوب الكورسال ، فجلست بولينا على مقعد خشبي تجاه النافورة وسمحت لنادية باللعب مع نفر من الاطفال غير بعيد منها ، وتركت انا ميشا يذهب الى النافورة ايضا ، وبذلك صرنا اخيرا وحدنا .

وبدانا ـ طبعا ـ بالكلام في العمل ، وتضايقت بولينا عندما سلمتها سبعمائة جولدن فحسب ، فقد كانت واثقة بانى ساحضر اليها على الاقل الفي جولدن ، ان لم يكن اكثر ، بعد رهن الماساتها بباريس ، وقالت : « لابد لي من النقود باي ثمن ! لابد لي من هذا ! والا ضعت تماما ! » ، وشرعت اسالها عما حدث في غيابي ، فقالت :

---

(١) عندما غاجمها الجيش الفرنسي بقيادة نابليون ـ المترجم .

ـ ليس هناك سوى خبرين من بطرسبرج ، اولهما مفاده ان الجدة ساءت صحتها جدا ، ويظهر انها ماتت بعد يومين ، وقد جاء هذا النبأ من « تيموف بتروفتش » وهو رجل جدير بالثقة جدا ، ونحن الآن في انتظار وصول الأنباء القاطعة .

ـ اذن فالجميع هنا في حالة توقع شديد ؟

ـ طبعا ! كل واحد وكل شيء في حالة انتظار وترقب ! ومنذ ستة اشهر لا هم لهم الا التفكير في هذا .

ـ وانت ؟

ـ اوه ! انا لست من اقاربهم ؛ وانما انا ابنة زوجة الجنرال، ولكني واثقة انها ستذكرني في وصيتها !

ـ اعتقد انك ستفوزين بشيء كثير ...

ـ اجل ، فهي شديدة الولع بي ، ولكن ما الذي يجعلك تظن هذا ؟

ـ خبريني ، هل الماركيز مطلع على كل اسرار العائلة ؟

فرمقتني بولينا بنظرة صارمة باردة وهي تسألني :

ـ وما الذي يجعلك شديد الاهتمام هكذا بأحوال الاسرة كلها ؟

ـ هذا شيء طبيعي ، اليس كذلك ؟ وما لم اكن مخطئا ، فان الجنرال تمكن بالفعل من الاقتراض منه .

ـ حدسك صائب تماما .

ـ وهل كان يقرضه اي شيء ما لم يكن يعرف كل شيء عن الجدة ؟ الم تلاحظي كيف اشار الى الجدة مرتين او ثلاثا على المائدة ، ذاكرا اياها باسم التدليل ؟

ـ اصبت ، ومتى عرف انني ساحصل ايضا على شيء بمقتضى الوصية فسوف يعرض على الزواج ـ اهذا ما اردت ان تعرفه ؟

ـ حسبته اقدم على ذلك منذ زمن طويل !

فقالت بغضب : « أنت تعرف جيدا انه لم يتقدم لي .. » ثم تمهلت برهة وسألتني : « اين عرفت هذا الانجليزي ؟ »

ـ كنت اعرف انك ستلقين على هذا السؤال !

ورويت لها مقابلاتي السابقة مع مستر استلي في رحلتي الى هنا ، ثم اردفت قائلا :

ـ انه خجول وحساس جدا ، واستطيع ان اتبين من سلوكه انه يحبك .

ـ نعم ، هو يحبني .

ـ وهو اغنى من الفرنسي عشر مرات بالطبع ، وبهذه المناسبة هل من المقطوع به ان هذا الفرنسي يملك شيئا حقا ؟ ليس هناك شك في هذا . اليس كذلك ؟

ـ لاشك في هذا اطلاقا ، فهو يملك قصرا حصينا في مكان ما ، وقد حدثني الجنرال في ذلك بصورة قاطعة بالامس ، والآن .. هل اشبعت فضولك ؟

ـ لو كنت مكانك لتزوجت الانجليزي .

ـ لماذا ؟

ـ الفرنسي اوسم ، ولكنه احط ، والانجليزي امين وشريف ، فضلا عن انه اغنى منه عشرة اضعاف .

فاجابتني بهدوء : « هذا صحيح ، ولكن الفرنسي ماركيز ، واذكى من الانجليزي » .

ـ آه ، ولكن اهذا صحيح ؟

ـ صحيح تماما .

واتضح لي من لهجة اجابتها انها تريد اغضابي ، وقلت لها ذلك، فقالت :

ـ الواقع انني اتسلى برؤيتك عندما تغضب ، وما دمت اسمح لك بتوجيه مثل هذه الاسئلة والادلاء بتخميناتك ، فمن العدل ان تدفع ثمن ذلك على نحو ما .

فقلت بهدوء : « ارى من حقي ان اوجه اليك اي اسئلة اشاء ، لانني مستعد لدفع اي ثمن لها ، ولانني لا ابالي بحياتي اطلاقا » .

فضحكت بولا وقالت لي : « لقد قلت لي في المرة الاخيرة انك مستعد بكلمة مني ان تلقي بنفسك في الهاوية ، وكنا على ارتفاع نحو الف قدم حينئذ في شلانجنبرج ... وساقول هذه الكلمة يوما ما ، لا لشيء الا لكي ارى كيف تدفع الثمن ، وثق بانني لن اجبن ، فانا ابغضك لانني سمحت لك بالكثير جدا ، وبزيد من بغضي اياك حاجتي اليك ، وما دمت بحاجة اليك فلابد لي ان احرص عليك ! »

ونهضت بولا ، وفى صوتها اضطراب وتوتر ، وكانت فى الآونة الاخيرة تنهى احاديثها معى دائما بتوتر وضيق وحقد ، حقد حقيقى ، وسألتها وانا لا اريد أن تتعرف قبل ان اعرف كل شىء:

ــ خبرينى من تكون الآنسة بلانش ؟

ــ انت تعرف جيدا من هى الآنسة بلانش ، فلم يحدث جديد منذ سفرك ، انها قد تغدو زوجة الجنرال ... طبعا بشرط تحقق اشاعة موت الجدة ، لان الآنسة بلانش وامها وابن عمهما من الدرجة الثالثة « الماركيز » يعرفون جميعا تمام المعرفة أننا مفلسون .

ــ وهل الجنرال مغرم بها بصورة قاطعة ؟

ــ ليس هذا لباب القضية فى الوقت الراهن ! اصغ لما اقوله لك : خذ هذه السبعمائة فلورين واذهب الى الكورسال واكسب لى اكبر مبلغ تستطيعه على مائدة الروليت ، فلابد لى الآن من المال باى ثمن .

وما ان قالت هذا حتى نادت نادية ومشت معها الى الكورسال، حيث انضمت لبقية الجماعة ، وسرت انا فى اول درب صادفنى على البار ، ورحت اتجول وافكر ، فقد جاء هذا الامر المباغت بالتوجه للعب الروليت بمثابة لطمة مفاجئة لى ، ومن الغريب اننى على كثرة ما يستوجب منى التفكير استغرقت فى تحليل مشاعرى تجاه بولينا ، فقد تبينت ان هذين الاسبوعين من غيابى كانا اسهل احتمالا من يوم عودتى هذا ، مع اننى كنت اجن حزنا فى الطريق هنا ، من كثرة ما حلمت بها ، وقد حدث ذات يوم وانا فى سويسرا أن نمت فى القطار ، وحلمت انى اتحدث مع بولينا ، وسمع الركاب من حولى صوت كلامى فاضحكهم هذا ، ومرة اخرى سألت نفسى : اانا احبها ؟ ومرة اخرى عجزت عن الاجابة ، او لعلنى اجبت للمرة المائة : انى اكرهها ! اجل اكرهها ، فهناك لحظات (تاتى دائما عقب حديثى معها) اشعر فيها انى مستعد للتنازل عن نصف ايام عمرى فى سبيل ان اصرعها ، واقسم اننى كنت مستطيعا ان اغرس سكينا حادة النصل ببطء فى صدرها ، وكنت خليقا ان اجد اقصى سرور فى ذلك الصنيع ، ومع هذا اقسم بكل ما هو مقدس انها لو كانت قالت لى حقا ونحن على قمة جبل شلانجنبرج : « اقفز » لكنت قفزت فى الحال ،

وبكل سرور ، وانا من هذا على يقين ، وهي تدرك هذا كله تمام الادراك ، واشعر فى الوقت نفسه انها فوق متناولى ، وان احلامى مستحيلة التحقق ، وهذا امر تعرفه هى جيدا ، وتستمتع به ايما استمتاع ، وكيف ـ لولا ذلك ـ كان من الممكن ـ وهى الكتوم البارعة ـ أن تجمعها بى هــذه الصلة التى تسودها الصراحة التامة ؟ اكاد اجزم انها تنظر الى نظرة امبراطورة قديمة الى احد عبيدها ، لا تعده بشرا ، فتستبيح ان تخلع ثيابها أمامه وتتعرى تماما ، اجل ، كم من مرة اظهرت لى انها لا تحسبنى فى عداد البشر !

ولكن هاأنذا اتلقى اوامرها : ان أكسب فى الروليت بأى ثمن ! ولم يكن هناك وقت كى اتساءل : لماذا نحتاج الى النقود بهذا الالحاح ، وما هى الاعتبارات التى نشأت فى هــذا الذهن الذى لا يكف من الحســـاب ، فلابد أن ثمة ظروفا كثيرة جدا برزت للوجود اثناء غيابى لم ازل جاهلا بها ، ولابد من استقصاء هــذا كله واستكناه غوامضه ، وباسرع ما يمكن ، اما الآن فليس هناك متسع من الوقت.. بل لابد لى من الاسراع الى مائدة الروليت .

الفصل الثانى

اعترف انى لم احبب هذا ، اجل كنت قد قررت ان اقامر؛ ولكن لم يكن فى نيتى ان تكون فاتحة مقامراتى بالنيابة عن غيرى وقد ازعجنى هذا ، فدخلت قاعة المقامرة وانا فى حالة غيظ حاد، ولم يرقنى كل شىء منذ الوهلة الاولى ، وكرهت مقالات الترويج التى تظهر فى صحف جميع الاقطار ، ولا سيما روسيا ، حيث يطنب الصحفيون فى وصف الفخامة والابهة اللتين تسودان قاعات القمار فى مدن الروليت على شاطىء الراين ، ويطنبون فى وصف اكوام الذهب التى يقال انها تتحرك على موائدها ، ولا احد ياجرهم على هذه الكتابة ، بل يكتبونها رغبة فى الارضاء ، والواقع انه لا فخامة على الاطلاق فى هذه القاعات ، والحقيقة ان اكوام الذهب ليست عديمة الوجود فحسب ، بل انه لاوجود لاى ذهب اطلاقا ، اجل قد يظهر بين الحين والحين فى سياق الموسم شخص مهوس ـ انجليزى او آسيوى (وكان فى هذه السنة من الاتراك) ـ فيخسر او يكسب مبلغا طائلا من المال ، اما سائر الناس فيراهنون ببضع جولدنات ، فلا يرى الناس عادة الا مبالغ صغيرة جدا على تلك الموائد ، وعندما دخلت لاول مرة فى حياتى قاعة المقامرة لم استطع ان احزم امرى فترة من الوقت على الاقدام ، ثم ان زحام الناس كان يتدافعنى بشدة ، ولولا هذا لفضلت الانصراف على البقاء لممارسة اللعب ، واقر بان قلبى كان يدق بشدة ، وكنت بعيدا جدا من حالة عدم المبالاة ، وكنت منذ امد طويل قد قررت الا اغادر رولتنبرج من غير حادث مثير ، وهاندا الآن وقد ايقنت بهذا ، فلابد ان يقع امر له اثر حاسم فى مصيرى ، لا مفر من هذا ، ولئن بدا لى توقعى نتائج كبيرة تعود على شخصيا من الروليت امرا غيرمعقول ، فان الراى الشائع لدى الكافة انه من الحماقة والغفلة توقع اى شىء من الروليت يبدو لى اشد بعدا من المعقول ، ولماذا تعد المقامرة اسلوبا

للحصول على المال اسوا من اى اسـلوب آخر ؟ كالتجارة مثلا ؟ اجل انه لا يكسب فى الروليت الا واحـد من كل الف ، ولـكن ما قيمة هذا عندى ؟

لقـــد قررت على كل حال ان ارقب الامور ولا احاول شيئا محاولة جدية هذا المساء ، وانما شيء يحدث اليوم سيكون مجرد صدفة ، وعلى نطاق صغير ، هذا ما قررته ، ثم يجب على ان ادرس اللعبة بنفسى ، فبرغم الوف المواطن التى قرات فيها وصفا للروليت بشكل تلهف لم أستطع ان افهم اية شيء منهـا ، ما لم اشاهدها بنفسى .

وكان اول ما لفت نظرى حقارة كل شيء حولى ، فكل شيء ـ بصورة معنوية ـ كان يبدو لى حقيرا ، ولست اتحدث عن السحق المحيطة بموائد القمار بالعشرات والمئات ، فلست ارى على الاطلاق شيئا مستهجنا فى الرغبة فى الربح باكبر قدر وباسرع وقت ممكن ، ولقد قال احد الاخلاقيين السمان على سبيل الاعتذار لما يحدث : « انهم على كل حال لا يخاطرون الا بمبالغ صغيرة جـدا ! » ولـكن زهادة الرهان تجعل الامر فى نظرى اسوا واشبه بالغباء ، اجل اعترف ان هناك فارقا بين الطمع الحقير والبخل على نطـاق واسع ، ولـكنه مسالة نسبية : فما هو حقير زهيد لدى امثال روتشيلد يعد شيئا كثيرا لدى مثلى ، اما فيما يتعلق بالمكاسب والثروات المكتسبة ، فماذا فى ذلك ، ان كل الناس لا هم لهم فى كل مكان الا ان ينهب بعضهـــم بعضـــا ، ويربح بعضهم من بعض ! اما القول بان الارباح والمكاسب الطائلة مقززة فى حد ذاتها فمسالة اخرى : لن احاول حلها فى اللحظة الراهنة ، ولمـا كان الجوع الى الكسب قد صار وسواسى القهرى ، لذا شعرت لحظة دخولى القاعة ان كل هذه الحقارة وكل هذه القذارة ملائمتان جدا ، فماذا يمكن ان يكون اقرب للنفس وادعى للسرور من انعدام جميع المراسم ، وسيادة الصراحة المطلقة ! ولماذا خداع النفس العقيم ؟ ولـكن اكثر ما يلفت للنظر للوهلة الاولى يثير النفس بصورة خاصة هو ما يسود كل تلك الجموع المقامرة من احترام شـــديد لما يصنعونه ، وما يحف بهذا التكالب على الموائد من خشوع واجلال لها ! ومن هذه الناحية يمكن التفريق بين من يسمونهم هنـــا « الحثالة » و « الناس المحترمين » ، فثمة اسلوبان للمقامرة ، احدهما راق والآخر شعبى ، عامى ، دهمائى ، مقتر ، والفوارق

هنا حادة جدا ، وهناك شيء بغيض اساسا في هذه التفريقات ، والسيد الراقي (الجنتلمان) مثلا يراهن بخمسة لويسات من الذهب ، واحيانا بعشرة لويسات ، وقلما يراهن باكثر من ذلك ، واذا كان ثريا جدا فقد يراهن بالف فرنك ، ولكن ذلك كله الغرض منه لذة اللعب المجردة والتسلية : ولمجرد مشاهدة عملية الربح والخسارة ؛ وينبغي الا يهتم اطلاقا بمكاسبه الخاصة ، واذا ربح فمن المسموح له به ان يضحك ، وان يقول شيئا ما لاحد المشاهدين ، بل وله ايضا ان يراهن بهذا الذي ربحه مرة اخرى ليضاعف الرهان ، ولكن لمجرد حب الاستطلاع ، وتتبع تقلبات اللعبة ، وعمل حسابات مسلية ، وليس من اي رغبة سوقية في الربح نفسه ، وقصارى القول انه ينبغي ان ينظر الى جميع انواع الروليت ولعبة « الثلاثين والاربعين » كما لو كانت مجرد استعراضات اقيمت خصيصا لابهاجه، وينبغي الا يلقي باله اطلاقا الى الاعتبارات النفعية التي قام على اساسها البنك ، ويجب عليه ان يتظاهر بالاعتقاد بان جميع المقامرين الآخرين ، من هؤلاء الحثالة البشرية الذين يرتجفون هلعا وراء كل جولدن ، يماثلونه في الثراء والرقي والنسب ، ولا يقامرون الا طلبا للتسلية ، ومثل هذا الجهل التام بالواقع، ومثل هذه السذاجة في موقفه من الآخرين جديران حقا بالارستقراطي الحق . وراقبت الامهات وهن يدفعن الى الامام بناتهن البريئات الانيقات ، اللواتي في الخامسة عشرة ، والسادسة عشرة من اعمارهن ، ويضعن في ايديهن النقود الذهبية، ويعلمنهن قواعد اللعبة ، وكانت الآنسة منهن تبتسم بلا اختلاف في حالتي الربح والخسارة ثم تبتعد راضية قريرة العين ، واقترب صديقنا الجنرال من المائدة في وقار مظهري ، واندفع اليه خادم ليقرب منه مقعدا ، ولكنه لم يلق باله الى الخادم ، وببطء شديد اخرج كيس نقوده من جيبه وببطء شديد استخرج منه ثلاثمائة فرنك ذهبا ، ووضعها على اللون الاسود ، وربح ، ولم يجمع ارباحه بل تركها على المائدة ، وربح اللون الاسود مرة اخرى ، ولم ياخذ النقود هذه المرة ايضا ، وعندما توقفت العجلة عن الدوران هذه المرة عند اللون الاحمر خسر بذلك الفا ومائتي فرنك بضربة واحدة ، وابتعد باسما ، ولم تتغير امارات وقاره ، وانا واثق بانه كان موجع القلب في دخيلة نفسه ، ولو كان الرهان ضعفي ذلك او ثلاثة اضعافه لما استطاع ان يسيطر على نفسه ، ولافتضح

اضطرابه .. اجل انى رايت فرنسيا يكسب ثم يخسر بمرح مبلغا وصل الى ثلاثين الف فرنك من غير ان يبدو عليه اى تأثر : لان المال في نظر السيد الراقي اقل من ان يكدر باله بسببه .. وانها لسمة ارستقراطية فعلا ان يتجاهل المرء كل هذه الأقذار ، وكل هذه الحقارات ، وكل ما يدور من حوله .. نقيض هذا المسلك بالضبط ليس مع هذا اقل ارستقراطية منه : ان ترقب ، بل وتفحص ـ وخير ما يكون ذلك من خلال منظار ـ كل تلك الحثالة ولكن بحيث يبدو الحشد بأكمله ، والقذارة باسرها ، نوعا من الترفيه ، وعرضا يقدم لتسلية السادة النبلاء ، ومن المسموح به ان تختلط بالجمع ما دمت تنظر حولك في اقتناع تام بانك مجرد متفرج ، ولست جزءا منهم على الاطلاق ، وليس من المستحب ان تنظر عن قرب جدا ، فذلك يتنافى مع الارستقراطية ، فالمفروض ان هذا المشهد لا يستحق الملاحظة عن كثب ، وليست هناك ـ كما تعلم ! ـ مشاهد كثيرة تستحق المشاهدة عن كثب من جانب السيد النبيل الراقي ! اما انا شخصيا فقد وجدت هذا كله اهلا للملاحظة عن كثب ، ولا سيما من جانب شخص ذهب الى هناك لا لمجرد الملاحظة بل هو يعد نفسه داخلا ضمن هذه الحثالة البشرية ، واقتناعاتي الخلقية الخفية الخاصة بي لا علاقة لها طبعا بآرائي وافكاري الراهنة ، ولكن لا بأس ! انى اذكرها فحسب لأرضي نفسي ، وقد يكون هناك أمر يستحق الذكر ، وهو انني في الفترة الأخيرة شعرت بعزوف شديد عن قياس افعالي وافكاري بأى نوع من المعايير الخلقية ، لأن الذى يحكمني شيء مختلف..

وهناك حقيقة شيء حقير في اسلوب مقامرة حثالة الناس ، واشعر ببعض الميل الى الاعتقاد بان الكثير من انواع السرقة العادية تحدث على الموائد ، ومراقبو اللعب من موظفي الكازينو الجالسون عند طرف كل مائدة يرقبون المراهنات ويحسبون المبالغ ، وهو عمل شاق جدا ، ويالهم من اخساء ، ومعظمهم فرنسيون ! ولكنني لست بسبيل تدوين الملاحظات بقصد وصف الروليت ، وانما انا بسبيل جمع المعلومات لأعرف كيف اتصرف في المستقبل ، فقد لاحظت مثلا شيوع امتداد يد عبر المائدة من الخلف كي تجمع كل مكاسبك ، فتنشب مشادة ، ويكثر الصياح ، وعليك ان تثبت ان النقود نقودك ، وهات شهودا !

وكان كل شيء معمى على في البداية ، وكل ما ادركه بغموض

ان الرهانات توضع على ارقام ، زوجية وفردية ، وعلى الوان ، وقررت أن اخاطر بمائة من جولدنات بولينا اليكسندروفنا ف هذا المساء الأول ، وأزعجتني فكرة اقدامي على اللعب نيابة عن شخص آخر ، فهو احساس غير سار ، كنت اريد التخلص منه باسرع ما أستطيع ، ولم أتمالك نفسي من الشعور بانى اذ أقدم على اللعب لاجل بولينا فانا بذلك ادمر حظى ؛ أصحيح انه من المستحيل ان تقترب من مائدة المقامرة من غير ان يصيبك التطير ! وبدأت باخراج مايعادل خمسين جولدنا ، ووضعتها على الأعداد الزوجية، ودارت العجلة ثم توقفت على رقم ١٣ - فخسرت ، فوضعت خمسين جولدنا أخرى - للانتهاء من المسألة والانصراف بعد ذلك - على اللون الأحمر ، وكسب اللون الاحمر ، فوضعت المائة جولدن كلها على الاحمر مرة أخرى ، ومرة اخرى توقفت العجلة على اللون الأحمر ، ووضعت المبلغ بأكمله على الأحمر للمرة الثالثة ، وللمرة الثالثة ربح الاحمر ، واخذت المبلغ وهو يعادل اربعمائة جولدن ووضعت منه نصفه على اثنى عشر رقما متوسطا ، لأرى ماذا تكون النتيجة ، وكسبت ثلاثة أضعاف الرهان ، وهكذا صار معى ثمانمائة جولدن ، وسيطر على هذا الاحساس الغريب غير المألوف فقررت المضى ، ولم أتمالك نفسي من الشعور بانني كنت خليقا ان اتصرف على غير هذا النحو لو كان المال مالى ، ومع هذا وضعت المبلغ كله (٨٠٠ جولدن) على الأعداد الزوجية ، وهذه المرة ربح الرقم اربعة ، وربحت ثمانمائة جولدن اخرى صبوها امامي صبا ، فجمعت حصيلتى وهى الف وستمائة جولدن ، وانطلقت ابحث عن بولينا .

وكانوا جميعا في الحديقة يتمشون ، ولم أستطع التحدث اليها حتى حان وقت العشاء ، وهذه المرة لم يكن الفرنسى هناك ، وكان الجنرال يبدو على سجيته اكثر من المرة الاولى ، وبدا له ان يقول لى مرة اخرى انه لا يحب ان يرانى عند موائد اللعب ، فلسوف يورطه كثيرا ان اخسر مبالغ باهظة ، ثم اردف بلهجة ذات مغزى ، قائلا :

- وحتى لو ربحت مبالغ كبيرة سيورطنى ذلك أيضا ، وليس من حقى طبعا ان املى عليك شيئا ، ولكنك مع هذا تتفق معى فى الرأى ...

وكعادته كف من الكلام فى منتصف الجملة ، واجبته ببرود :

ان مالى قليل جدا ، ولذا لايمكن ان اخسر الكثير حتى لو قامرت، وبعد صعودى الى حجرتى الخاصة وجدت فرصة سلمت فيها بولينا ارباحها ، وقلت لها انى لن العب نيابة عنها مرة اخرى ، فقالت فى ارتياع : « ولم لا ؟ » فاجبتها وانا انظر اليها فى دهشة : « لانى اريد ان اقامر لحسابى الخاص ، ولن استطيع هذا لو انى لعبت نيابة عنك ايضا » ، فسالتنى متهكمة : « اذن انت تعد الروليت املك الوحيد فى الخلاص ؟ » ، فاجبتها فى جد ايضا كالمرة السابقة : ان هذا صحيح ، ومع ان اعتقادى النجاح قد يكون مضحكا ، الا انى اريد أن اترك وشانى .

والحت بولينا ان آخذ نصف الارباح فى ذلك اليوم ، واعطتنى ثمانمائة جولدن ، وطلبت منى أن اواصل اللعب على هذه الشروط بعينها فى المستقبل ، فرفضت بحزم اخذ النصف ، وقلت لها : انى لا استطيع اللعب لاى شخص آخر ، لا لانى لا اريد ذلك ، بل لانى متأكد من الخسارة ، فقالت بعد برهة صمت :

ـ قد يبدو هذا حماقة ، ولكنى انا ايضا اضع آمالى كلها تقريبا فى الروليت، ولذا يجب ببساطة ان تستمر فى اللعب مناصفة معى ، وستصنع ذلك بالطبع .

وعندئذ فارقتنى من غير أن تلقى مزيدا من المبالاة الى احتجاجاتى.

الفصل الثالث

ومع هذا لم تقل شيئا من الروليت بالأمس ، بل تجنبتني في الواقع طول اليوم ، ولم يتغير مسلكها معي ، فهو عدم المبالاة تماما اثناء الاتصالات العرضية ، مع مسحة من الازدراء او النفور، فهي لا تبذل ادنى محاولة لاخفاء نفورها مني ، وانتبه منها ذلك بوضوح ولكنها لا تحاول ايضا ان تخفي على انها محتاجة الي او تحتفظ بي لشيء ما ، وهكذا نشات بيننا علاقة من نوع غريب ، وهي علاقة لا افهمها من نواح كثيرة ، ولا سيما عندما اتذكر الاستعلاء الذي تعامل به الجميع ، فهي تعلم مثلا انني احبها لدرجة الخبل، بل وتسمح لي بالتعبير عن هواي ، وطبعا ليس هناك ما هو ادل على احتقارها لي من هذا السماح بالحديث صراحة عن حبي لها «فمعنى هذا انني استخف بمشاعرك لدرجة انني لا ابالي بما تقوله لي وما تشعر به من نحوي » . وقد افضت لي دائما بالكثير من شئونها ، من غير ان تكون مع هذا صريحة كل الصراحة ، وقد كشفت لي فضلا عن هذا من الامارات التالية على ازدرائها اياي : فهي تعرف انني ادرى وقائع معينة من حياتها ، واعرف اشياء تسبب لها اعمق القلق ، وهي كثيرا ما تثق بي ان احتاجت لي في تنفيذ اغراضها ، كعبد او ساع ؛ ولكنها لا تقول لي الا ما لابد للساعي او الرسول من معرفته ، ومع انه لم تزل هناك امور كثيرة جدا لا اعرف شيئا عنها ، ومع علمها اني اشاركها عذابها وقلقها ، الا انها لا تتنازل ابدا باراحة بالي بالافضاء الودود بما هناك ، وان كانت تعهد الي بمهام متعبة ، بل وخطرة ، بحيث اعتقد ان من واجبها على الاقل ان تكون صريحة معي ، ولكن ماذا يهمها ما اشعر به ، وماذا يهمها قلقي وهمي ، مع اني قد اهتم واقلق لهمومها واكدارها اكثر منها شخصيا !

وانا منذ ثلاثة اسابيع على دراية بانتوائها لعب الروليت ، بل ابلغتني اني سالعب نيابة عنها ، لانه لا يليق بها شخصيا ان

تلعب ، ومن طريقة كلامها أدركت على الفور أنها تعانى من شيء يثقل على تفكيرها ، وليست المسألة مجرد الرغبة فى المال ، فما هو المال فى حد ذاته بالنسبة لها ؟ فلابد ان هناك هدفا معينا ، او ظروفا معينة لا استطيع الا ان اكون عنها تخمينات غامضة ، ولا اعرف عنها شيئا واضحا حتى الآن ، والهوان والعبودية اللذين تفرضهما على شخصى يبيحان لى أن اسألها صراحة عن هذا الهدف ، فما دمت عبدها الذى لا قيمة له البتة فى نظرها ، فليس لها الحق فى الاستياء من فضولى الفج ، ولكن فى حين تسمح لى ان اسأل ما اشاء ، الا انها لا ترد اطلاقا على اسئلتى، ويبدو عليها احيانا انها لا تسمعها ، وهكذا تجرى الأمور فيما بيننا .

وبالامس كانت البرقية التى ارسلت الى بطرسبرج منذ اربعة ايام ولم يصل الرد عليها بعد مثار احاديث متصلة ، فالجنرال يبدو قلقا دائم التفكير ، وذلك كله بسبب الجدة طبعا ، والفرنسى مضطرب ايضا ، وبالامس مثلا جرى حديث طويل جاد عنها على مائدة الغداء ، والفرنسى يعاملنا جميعا باشد الغطرسة والازدراء ، وهو نموذج حى للمثل القائل : « اسمح لبعض الناس باصبع ياخذ منك ذراعا » ، وحتى مع بولينا كان يتكلم باقتضاب الى حد الفظاظة ، ولكنه مع هذا يبدى السرور دائما بالاشتراك فى السير الى الكورسال ، او فى نزهات على الخيل الى الريف ، وقد عرفت منذ مدة طويلة امورا معينة عن الفرنسى والجنرال ، ففى وقت ما كانا بسبيل انشاء مصنع من نوع ما فى روسيا ، ولست أدرى هل حبطت خطتهما ام لا ؟ ام لايزالان يناقشانها ، وقد وقعت ايضا على سر عائلى بمحض الصدفة ، فالفرنسى قد ساعد فعلا الجنرال فى العام الماضى باقراضه ثلاثين الف روبل للوفاء بالعجز فى عهدته الرسمية عندما تقاعد الجنرال من منصبه ، وهكذا صار الجنرال بداهة تحت رحمته فى هذه الآونة ، ولكن الدور الرئيسى فى هذا كله ــ بعد كل شيء ــ للآنسة بلانش ، وانا متأكد انى لست مخطئا فى هذا ايضا .

فمن هى الآنسة بلانش ؟ المفروض هنا فى « رولتنبرج » (مدينة الروليت) انها امراة فرنسية راقية ، لها أم وممتلكات واسعة ، والمعروف ايضا انها تمت بصلة القرابة للماركيز، ولكنها قرابة بعيدة جدا ، فلعله ابن عمها أو عمتها من الدرجة الثالثة ـ

وقبل رحلتي الى باريس يقال ان الفرنسي والآنسة بلانش كان كل منهما يعامل الآخر بكثير من الرسميات المرهفة ، اما الآن فصداقتهما وعلاقتهما تبدوان أكثر فجاجة ورفع كلفة ، ولعلهما يريان ظروفنا من السوء بحيث لا يحتاجان معها الى تكلف الرسميات او الابقاء على المظاهر امامنا ، وامس الاول ضبطت مستر استلي متلبسا بدراسة الآنسة بلانش وامها ؛ وخطر لي انه يعرفهما ، بل وان مستر استلي قابل الفرنسي من قبل ايضا ، ولكن مستر استلي شديد الخجل والحياء والتكتم ؛ بحيث يمكن الاعتماد عليه تماما ، فليس هو الذي يفضح اسرار الناس الخاصة ؛ وايا كانت الحقيقة فالفرنسي لايكاد يحييه ، ونادرا ما ينظر الى ناحيته ، فهو لايخافه، وقد يوجد لهذا تفسير ، ولكن لماذا لا تكاد تنظر اليه الآنسة بلانش ايضا ؟ وبالامس قال الماركيز فجاة ؛ في سياق الحديث العام (ولا استطيع ان اتذكر ما بالذى اثار هذا الموضوع) ان مستر استلي ثرى ثراء عريضا لا يكاد يصدقه العقل ، وانه يعرف ذلك من يقين ، ولابد ان يحمل كلامه هذا الآنسة تنظر الى مستر استلي احيانا ! ويبدو على الجنرال انه في حالة قلق مستمر ، فمن المقطوع به ان برقية تحمل نبا وفاة عمته تعني لديه الآن الشيء الكبير .

ومع انني اكاد اوقن بان بولينا تتحاشاني لغرض خاص ، الا انني اتظاهر بالبرود وعدم المبالاة على امل يتحدى اليأس بانها قد تأتي الى من تلقاء نفسها في اى دقيقة ؛ ولكني خصصت كل يوم امس ، واليوم ايضا لدراسة الآنسة بلانش ، اما الجنرال المسكين فهو مقضى عليه ! فالوقوع في الحب في سن الخامسة والخمسين وبكل هذا العنف كارثة لا مراء فيها ! اضف الى هذا انه ارمل ، وله اطفال ، وضيعته وثرائه المالي في حالة خراب تام ، فضلا من كثرة ديونه ، وجاء اخيرا ، وليس آخرا ، حظه العاثر بالوقوع في غرام ذلك النوع من النساء ! فالآنسة بلانش بارعة الجمال ، ولكن لها وجها (واخشى الا استطيع التوضيح) شديد الترويع ، وانا ممن يخافون دائما مثل هؤلاء النساء ، ولعلها في الخامسة والعشرين من عمرها ، طويلة عريضة المنكبين ، ومنقها وصدرها بديعا التكوين ، وبشرتها داكنة ، وشعرها اسود ضارب الى الزرقة شديد الغزارة ، لكفى غزارته امرأتين ! وعيناها سوداوان ، وبياضهما ضارب الى الصفرة ، ونظرتها متغطرسة ، واسنانها ناصعة البياض ، وشفتاها مصبوغتان باللون الاحمر على

الدوام ، وتعبق منها رائحة المسك ، ولبسها منظراني باهظ التكاليف ، فى اناقة وذوق رفيع فى الوقت نفسه ، ويداها وقدماها رائعة ، وصوتها اجش من نوع الكونترالتو ؛ وعندما تضحك تظهر جميع اسنانها ، ولكنها غالبا صامتة بادية الغطرسة ؛ على الاقل امام بولينا وماريا فيلوبوفنا . (هناك اشاعة غريبة عن عودة ماريا فيلوبوفنا الى روسيا !) . واعتقد ان الآنسة بلانش لم تتلق تعليما ، بل انها ليست ذكية ، ولكنها على كل حال ماكرة كثيرة الشكوك ، واعتقد ايضا ان حياتها لم تكن بلا مغامرات ، وان كان لنا ان نقول الحق ، فلعل الماركيز ليس من ذوى قرابتها ، ولعل امها ليست امها ، ولكن هناك قرائن على انه كانت لهما فى برلين ، حيث التقينا بهما ، صلات معرفة طيبة بالناس ، هى وامها ، اما بشأن الماركيز ــ وان كنت لم ازل فى شك حول صحة لقبه هذا ــ فلا يبدو هناك ادنى شك حول انتمائه الى ارقى المجتمعات ، سواء فى موسكو او فى بعض انحاء المانيا ، اما فى فرنسا فلا علم لى بشيء عنه ، ويقال ان له قصرا حصينا ، واثناء هذين الاسبوعين يبدو انه حدثت امور كثيرة ، ولكنى لم اعرف بعد على وجه اليقين هل حدث شيء بين الآنسة بلانش والجنرال ، ويتوقف الآن كل شيء على ثروتنا ، اى على تمكن الجنرال من اظهار حيازته لقدر كبير من المال ، فاذا وصلت الانباء مثلا بان الجدة لم تمت ، فانا على يقين من ان الآنسة بلانش خليقة ان تختفى فورا ، ولكنى فى دهشة من امر نفسي وكيف صرت ثرثارا مهتما بالقيل والقال ، ولكم اكره كل هذا القبيل من الاشياء !.. وكم يسرنى ان انفض يدى من كل واحد ومن كل شيء ! ولكن كيف ترانى اترك بولينا ؟ كيف امنع نفسي من التجسس عليها ؟ ان التجسس خسة بلاشك ، ولكن ما اهمية ذلك عندى ؟

لقد كان مستر استلى مصدر اهتمام كبير لدى فى اليومين الاخيرين ايضا . انا متأكد انه يحب بولينا ! ولكم يبدو مضحكا منظر رجل خجول تطهرى السريرة عندما يحب ، ولا سيما اذا كان الغوص فى باطن الارض اهون على هذا الرجل من التصريح بحبه باللفظ او النظرة . ونحن نصادف مستر استلى كثيرا فى نزهاتنا فيخلع قبعته ويمضى فى طريقه ، وهو يكاد يموت تشوقا الى الانضمام الينا . واذا دعوناه رفض فورا . وفى المواضع التى يجلس الناس حولها ــ امام الكورسال قرب كشك الموسيقى او النافورة ــ

نجده حتما جالسا قرب مقاعدنا . واذا كنا فى الحديقة او الغابة او على قمة شلانجنبرج فمن المؤكد اذا رفعنا اعيننا ونظرنا حولنا ان نجده هنا او هناك فى اقرب درب ، او وراء شجرة ! واحسبه يتحين فرصة لحديث خاص معي . وقد التقينا هذا الصباح وتبادلنا بضع كلمات ، وكلامه احيانا مقتضب بصورة تثير الدهشة. ومن غير ان يلقى تحية الصباح انفجر قائلا :

ــ الآنسة بلانش ! اوه ! لقد رايت كثيرات مثل الآنسة بلانش !

ثم توقف ورمقني بنظرة ذات مغزى . ولست ادرى ماذا كان يعني بهذا ، لانني عندما سألته ماذا يعني هز راسه وقال بابتسامة ماكرة :

ــ هل الآنسة بولينا مولعة بالازهار ؟

ــ لا ادرى . ليست عندى فكرة عن هذا .

فصاح فى دهشة بالغة : « ماذا ؟ الست تعرف حتى هذا ؟ »
واجبته ضاحكا : « كلا ! لم الاحظ شيئا كهذا » . فهز راسه وقال : « ممم ! هذا يوحي لي بشيء ! » واستانف سيره ، ولكنه بدا شديد السرور . وكان حديثنا بلغة فرنسية غاية فى الركاكة !

الفصل الرابع

كان اليوم غاية في السخف والشناعة . الساعة الآن الحادية عشرة مساء ، وانا جالس في زنزانتي الصغيرة اراجع في ذهني كل ما حدث. وكانت البداية توجهي الى الكورسال مضطرا كي العب نيابة عن بولينا . فاخذت كل نقودها (١٨٠٠ جولدن) على اساس شرطين، اولهما الا العب مناصفة ، اى انني اذا ربحت لم آخذ شيئا . والشرط الثاني أن تشرح لي بولينا في المساء لماذا هي في حاجة ماسة الى الربح ، وما هو المبلغ الذى تحتاج اليه . ذلك اني لم استطع ان اصدق انها تريد المال لذاته . اجل هناك حاجة الى المال ، وباسرع ما يمكن ، ولغرض محدد . وقد وعدتني بهذا وانطلقت . وكان الزحام في قاعات المقامرة رهيبا . وما كان اقل حياءهم واشد بخلهم ! وشققت طريقي الى وسط الحجرة ووقفت بجوار احد مراقبي الموائد مباشرة . ثم شرعت على استحياء أجرب حظي ، مغامرا بقطعتين او ثلاث من النقود في كل مرة ، وفي الوقت نفسه كنت ارقب ذلك الجمع من المقامرين واختزن ملاحظاتي . وبدا لي أن الحسابات لا معنى لها الا في حدود صغيرة جدا وليست لها كل الاهمية التي يعلقها عليها المقامرون . فهم يجلسون هناك وفي أيديهم ورق مسطر يسجلون فيه الارقام ويحصون ويحسبون الفرص قبل وضع رهانهم ، ثم يخسرون كما نخسر نحن ابناء الفناء الذين نلعب بدون اى حساب . ولكني خرجت بنتيجة واحدة تبدو لي صحيحة : يظهر ان ثمة بين سلاسل الفرص شيئا ما قد لا يكون نظاما منهجيا ، الا انه نوع من الترتيب قد يكون غريبا جدا . فمثلا بعد الوقوف عند الارقام الاثنى عشر الوسطى، قد تقف الكرة على الاعداد العليا مرتين تباعا ، ثم تتقهقر الى الاعداد السفلى ، ثم تعود الى الأعداد الوسطى ثلاث او اربع مرات تباعا ، قبل العودة الى الاعداد الدنيا لتقف عليها مرتين ايضا ، ثم تعود لمرة واحدة فقط الى الاعداد الاولى ، ثم بعد ذلك تنتقل الى

الاعداد الوسطى وتقف بها ثلاث مرات تباعا ، ويستمر الحال هكذا ساعة ونصف ساعة ، وربما ساعتين. « واحد ـ ثلاثة ـ اثنين ـ واحد ، ثلاثة ، اثنين » ـ شيء طريف جدا حقا !.. واحيانا اخرى مثلا تظل الكرة طول اليوم ـ او طول الصباح ـ تنتقل من الاسود الى الاحمر ، ومن الاحمر الى الاسود ، بدون اى انتظام ظاهر ، ولا تكاد تقف اكثر من مرتين على اى لون . ثم يأتى يوم او مساء لايكسب فيه شيء الا الاحمر ، اثنتين وعشرين مرة تباعا. وقد تولى مستر استلى ـ الذى وقف طوال فترة الصباح امام الموائد من غير ان يراهن مرة واحدة شرح الكثير من الامور لى.

اما انا فخسرت كل شيء حتى آخر درهم ، وبسرعة خاطفة ، فقد وضعت مائتى جولدن على الاعداد الزوجية وكسبت ، وتركت ارباحى هناك ، وكسبت مرة اخرى ، وهكذا مرتين او ثلاثا تباعا. واعتقد انه دخل بدى قرابة اربعة آلاف جولدن فى مدى خمس دقائق. وكان هذا هو الاوان المناسب لانسحابى ، ولكن احساسا غريبا ثار فى نفسى ، هو ضرب من تحدى القدر ، ورغبة فى اخراج لسانى له مع حك انفى باصبعى . وراهنت باقصى رهان مسموح به وهو اربعة آلاف جولدن وخسرتها جميعا . ثم اخرجت بقية ما فى جيبى ووضعته على نفس الرقم وخسرت . وعندئذ غادرت الموائد مذهولا ، وانا لا اكاد ادرك ماحدث ، وانتظرت حتى قرابة وقت الغداء واخبرت بولينا بخسائرى . وقضيت الوقت حتى ذلك الحين اتسكع فى الحديقة .

واثناء الغداء كنت فى نفس حالة الاثارة التى عانيتها قبل ثلاثة ايام ، وكان الفرنسى والآنسة بلانش يتناولان الغداء معنا هذه المرة ايضا . ويبدو ان الآنسة بلانش كانت فى قاعات المقامرة فى الصباح وشهدت محاولاتى . ولذا عاملتنى الآن بمزيد من الاهتمام واما الفرنسى فسألنى بلا مواربة : هل الاموال التى خسرتها كانت من اموالى الخاصة ؟ واعتقد انه يشك فى بولينا . ولكنى كذبت عليه وقلت ان المال مالى . ودهش الجنرال جدا ، وسألنى : من أين حصلت على كل هذه النقود ؟ فشرحت له انى ابتدات بمائةجولدن وأن الرهان على الرقم اثنين ست أو سبع مرات اكسبنى خمسة

الاف او ستة آلاف جولدن ، خسرتها جميعا فى دورتين . وكان هذا بالطبع معقولا جدا .. وكنت انظر اثناء الشرح الى بولينا ، ولكن محياها لم ينم على شىء ، ولم تكذبنى ، الامر الذى اكد لى آننى أحسنت باخفاء مقامرتى لحسابها . وقلت لنفسى انها مدينة لى على كل حال بايضاح كما وعدتنى .

وظننت ان الجنرال سيوجه الى شيئا من اللوم ، ولكنه لم يقل شيئا ، وان كنت قد لاحظت على محياه امارات اضطراب وقلق . ولعله لم يستطع ان يتحمل - وهو فى ظروف ضائقته هذه - ان يسمع بمثل هذه المبالغ المحترمة تمر بيد احمق ارعن مثلى فى مدى ربع ساعة . وعندى شك فى انه جرت بينه وبين الفرنسى مشادة فى الليلة الماضية ، فقد نشبت بينهما مناقشة حامية الوطيس خلف الابواب المغلقة . وخرج الفرنسى من الحجرة وقد بدا محتدم الغضب . واليوم صباحا اختلى مرة اخرى بالجنرال ، ولاشك انهما استانفا مناقشة الامس .

ولما سمع الفرنسى بخسائرى قال بلهجة لاذعة - ولا اريد ان اقول مزدرية - ان على المرء ان يكون اشد حذرا من هذا ، ثم اردف قائلا : ان الروس وان كانوا يقامرون كثيرا ، الا انهم فى رأيه ليست لديهم ادنى فكرة عن كيفية المقامرة . فقلت له : « وانا ارى ان الروليت خلقت للروس دون سواهم » . ولما ضحك الفرنسى هازئا ، قلت له ان الحق معى بالتاكيد ، لاننى اذ انعت الروس بالمقامرين انما اذمهم اكثر مما اطريهم ، ولذا ينبغى تصديق قولى . فسألنى الفرنسى : « وعلام بنيت رايك هذا ؟ » فقلت : « على ان القدرة على تكديس راس المال مرحلة نمو تاريخية فى مزايا وفضائل الانسان الغربى المتحضر ، ولعلها اهم ما فى قائمة هذه الفضائل باسرها . فى حين ان الروس ليسوا عاجزين عن تكديس راس المال فحسب ، بل هم ايضا يقبلون على انفاق النقود ببلاهة وحماقة وسوء تصرف . ومع هذا نحتاج نحن الروس الى المال ايضا ، ولذا يسرنا جدا ان نجد وندمن اى وسيلة كالروليت، نمكن من طريقها الحصول على المال فجاة ، فى مدى ساعة او ساعتين ، من غير ان نضطر للعمل فى سبيله ويستهوينا ذلك جدا.

ولما كنا نقامر بلا تفكير ولا عناد ، لذا نخسر ؟ » فقال الفرنسي في لطف : « هـــذا كلام فيه جانب من الصحة » . وقال الجنرال بجهامة : « كلا ! لا وجه للصواب في هذا القول ، وكان ينبغي ان تستحي من الكلام عن وطنك بهذا الشكل » . فسألته : « ولماذا ؟ ومن ذا يقول اي الامرين اسوا واشبه بالبهيمية : طيش الروسي الشائن أم قدرة الالماني على تكديس المال بالعمل الشريف ؟ » فصاح الجنرال : « يا لهذه المشاعر الفظيعة ! » وصاح الفرنسي : « ويالها من مشاعر روسية ! » . وضحكت انا ، وقد انتابتني رغبة قوية في تأجيج غضبهما ، وصحت : « انى افضل تضاء عمرى كله في احدى خيام القرغيز على الانحناء للصنم الالماني ! » فصاح الجنرال وقد بدأ غضبه يشتعل فعلا : « اى صنم تعنى ؟ » فاجبته :

ـ اعني اسلوب الالمان في تكديس الثروة .. وانا لم امكث هنا وقتا طويلا ، ولكن الامور التى تمكنت من ملاحظتها والتحقق منها تجعل الدم التترى يغلى في عروقى . واقسم انه لا حاجة بي الى مثل هذه الفضائل ! بالأمس فقط درت على قدمى حول هذا المكان باكمله ـ نحو ثمانية اميال ـ ووجدته مطابقا بالضبط للحكايات الالمانية الاخلاقية المصورة ! فكل بيت له ابوه ، وهو رجل متمسك بالفضيلة الى حد رهيب وامين شريف بصـــورة لا تصدق ! انك لفرط امانته لا تجسر على الاقتراب منه . وانا لا اطيق الامناء الذين يخشى المرء الاقتراب منهم . ولكل اب اسرته . وفى المساء يتجمعون ويقرأون بصوت عال في كتب تعليمية . واشجار الدردار والكستناء توسوس فوق سقف البيت . الغروب . الغروب . وطائر اللقلق فوق المدفاة . وكل شيء يبدو شاعريا ومؤثرا . والآن لا تغضب مني ياجنرال ! واسمح لي ان اكون عاطفيا ، فانا اتذكر كيف كان ابي يقرا مثل هذه الكتب لي ولامي في المساء ، تحت اشجار الزيزفون ... فانا ـ كما ترى ـ ادرى من اي شيء الكلم . وهكذا تعيش كل اسرة هنا في عبودية تامة وخضوع لابيها . والجميع يعملون كالثيران ويدخرون المال كاليهود . والاب قد ادخر بالفعل عددا كبيرا من الجولدنات ، كلها للابن الاكبر ،

كي ينشىء لنفسه مهنه او يشتري له قطعة ارض . وهكذا لاتحصل الابنة على بائنة ، وتظل عانسا . ويباع الابن الاصغر في سوق النخاسة او يحترف الجندية وتضاف نقوده الى راس مال الاسرة . هذا ما يحدث فعلا . وقد استقصيت الامر . ويتم ذلك كله بامانة تامة ، حتى الابن الاصغر نفسه يعد بيعه في سوق النخاسة من مقتضيات الامانة . او ليس هذا مثاليا ! لان الضحية نفسه يبتهج لدفعه الى الذبح! وماذا بعد ذلك؟ ياتي بعد ذلك ان الامور ليست خيرا من هذا بالنسبة للابن الاكبر ، فلديه حبيبته التي يرتبط معها بمشاعره ، ولكنه لايستطيع ان يتزوجها لان المدخرات غير كافية حتى الان . ويصبران في تقوى ، ويساقان باسمين الى الذبح، حيث تغور وجنتا الحبيبة وتبدأ في الذبول . واخيرا — بعد عشرين عاما — يتحقق الرخاء ، ويتم تكديس الجولدنات بكل امانة وفضيلة ، ويبارك الاب ابنه الاكبر الذي بلغ الاربعين وحبيبته التي بلغت سن الخامسة والثلاثين ، وقد تهدل ثدياها ، وتسطح صدرها واحمر انفها . ويذرف الاب الدموع ، ويعظهما بمكارم الاخلاق ثم يموت ويغدو الابن الاكبر نفسه ابا الاسرة الفاضل ، ويبدأ الحكاية برمتها من جديد . وفي مدى خمسين ، وربما سبعين سنة ، يكون حفيد الاب الاول قد جمع راس مال ضخما يسلمه الى ابنه ، ويسلمه هذا الابن الى ابنه . وهكذا دواليك . وبعد خمسة او ستة اجيال يولد البارون روتشيلد نفسه ، او «هوب وشركاه» (١) والله اعلم من يكون . اليس هذا مشهدا بديعا : مائة او مائتا سنة من العمل من جيل الى جيل ، مع الصبر ، والذكاء ، والامانة والخلق والتحمل والتدقيق في العمليات الحسابية ، وطائر اللقلق فوق السقف! فماذا تريد اكثر من هذا ؟ وماذا يستطيع المرء ان يحصل عليه اعلى من هذا ؟ ومن هذا العلو يشرعون في ادانة العالم كله ، وعلى الفور يتم اعدام المذنبين ، اعني الاقل من هؤلاء شيئا ما . فانا كما ترى افضل على هذا كله ان اضيع مالي كروسي ، او اجني ثروة من طريق الروليت ، لاني لا اريد ان اكون « هوب وشركاه » ، بعد

(١) مؤسسة مصرفية هولندية انجليزية تأسست في القرن الثامن عشر - المترجمة

خمسة اجيال . بل اريد المال لى ، ولا انظر لنفسى كاداة لتكديس راس المال .. وانى لاعلم انى كنت اهذى بكلام فارغ ، ولكن لاباس ! هذه هى قناعتى !

فقال الجنرال متفكرا : « لا ادرى هل فى كلامك جانب صواب. ولكنى ادرى انك تندفع فى الكلام ، وتبدو بمظهر لا يطاق...» وكالعادة لم يتم عبارته . فهو اذا شرع يقول شيئا اهم من المعتاد فى حديثه لم يتمه . وانصت الفرنسى بعدم اكتراث ، وبرزت عيناه قليلا ، ولم يكد يفهم شيئا مما قلته . ونظرت نحوى بولينا بعدم مبالاة وتشامخ . وكان يبدو عليها انها لا تسمع واحدة مما قلته انا او قاله سواى على المائدة فى ذلك اليوم .

الفصل الخامس

كانت غارقة فى تفكير عميق ، ولكن ما ان غادرنا المائدة حتى امرتنى ان اصحبها فى سيرها ، فأخذنا الطفلين وتوجهنا الى النافورة فى الحديقة . وفى حالة خارقة للعادة من الثوران انفجرت بجلاء وحمق اسألها . لماذا لم يعد الفرنسى ، الماركيز دى جرى ، يصحبها الآن عند خروجها ، بل واكثر من هذا لايكاد يكلمها اياما متوالية ! فقالت بلهجة غريبة : « لأنه وغد ! » ولم اكن سمعتها قط تتكلم بهذه الصورة عن دى جرى ، ولم اقل شيئا خوفا من التطرق الى معنى هذه الثورة عليه ، وقلت : « هل لاحظت انه اليوم فى خصام مع الجنرال ؟ » فاجابت بسرور وغضب : « انما تريد ان تعرف ما وراء هذا كله . انت تعلم ان الجنرال كان قد رهن كل شىء ، وصارت ممتلكاته كلها مرهونة للماركيز ، وما لم تمت الجدة سيضع الماركيز يده فورا على المرهونات وينقل ملكية كل ممتلكات الجنرال الى نفسه » . فقلت :

ـ الآن فكل شىء مرهون حقا ! لقد سمعت هذا ولكنى لم اكن اظن ان الرهن شمل كل شىء .

ـ طبعا كل شىء !

ـ الآن وداعا ايتها الآنسة بلانش ! لن تكون زوجة الجنرال الآن . الغريب ان الجنرال غارق فى حبها حتى انه فى ظنى قد يطلق الرصاص على نفسه اذا نبذته الآنسة بلانش ! فمن الخطورة بمكان ان يقع من فى مثل سنه فى الحب .

ـ نعم . اعتقد فعلا ان الامور ستنتهى به نهاية سيئة .

ـ اليس هذا رائعا ! هذه اوضح طريقة للبرهنة على انها لم ترد الزواج به الا حبا فى ماله ! وهكذا توسيت كل اصول اللياقة وكل مراسم الحياء . هائل ! اما الجدة فما اسخف ارسال البرقية تلو البرقية : « الم تمت بعد ؟ الم تمت بعد ؟ ما رأيك فى هذا يابولينا اليكسندروفنا ؟ هه ؟ » .

فقاطعتني في استمرار قائلة : « كل هذا هراء . وانما يدهشني ان تكون شديد المرح هكذا . ترى ما اسعدك ؟ ايمكن ان يكون سبب ذلك انك خسرت كل نقودي ؟ »

ـ ولماذا اعطيتني اياها كي اخسرها ؟ لقد قلت لك اني لا استطيع ان العب للآخرين ؛ ولاسيما لك انت . وانا مستعد ان اصنع كل ما تشائين ، ولكن النتيجة لا تتوقف على . وقد نبهتك انه لا خير في هذا . خبريني : انت منزعجة لأنك خسرت كل هذا المال ؟ لماذا كنت تريدين كل هذه النقود ؟

ـ وما جدوى كل هذه الاسئلة ؟

ـ ولكنك وعدت ان توضحي لي .. اسمعي ، اني واثق تماما اني متى بدأت العب لحسابي (ومعي مائة وعشرون جولدنا) ساكسب . وعندئذ يمكنك ان تأخذي مني ما تشائين .

فأبدت ايماءة ازدراء ، واستطردت اقول :

ـ لا تغضبي لهذا العرض . فانا شديد الشعور بانني لا شيء في نظرك ، ولذا يجب الا تبالي باخذ نقود مني . ولا يمكن ان تلحقك اهانة من هديتي اليك . ثم انني خسرت نقودك .

فرمتني بنظرة خاطفة ، وادركت ان كلماتي مريرة وتهكمية ، فقاطعتني مرة اخرى قائلة :

ـ ليس في ظروف شيء يهمك . وان اردت ان تعرف فحسبك اني مدينة لأني اقترضت نقودا واود ان اعيدها . وكانت لدي فكرة غريبة قوامها اني ساكسب هنا على موائد القمار .. ومن يدري ؟ لعل السبب في ذلك اني لم ابين لي مخرجا آخر .

ـ او لعله انك بحاجة شديدة جدا للكسب كالغريق الذي يتعلق بقشة . فلو لم يكن غريقا لما خال القشة كتلة من الخشب.

ويبدو ان كلماتي ادهشت بولينا ، فسألتني : « ماذا تقول ؟ او لم تعول انت ايضا على نفس هذا الشيء ؟ لقد اخبرتني منذ اسبوعين فقط ، وبتطويل وافاضة ، انك كنت واثقا تمام الثقة بالكسب على مائدة الروليت هنا ، وحاولت اقناعي الا اعدك مجنونا . اكنت تمزح حينئذ ؟ اني اذكر انك كنت جادا تماما ، فلا يمكن الآن حمله على محمل المزاح » . فاجبتها في اهتمام شديد : « هذا صحيح . ولم ازل موقنا تماما باني ساكسب . ولا ابالي ان اخبرك ان ما تقولينه يجعلني ادهش لان خسائري الفادحة اليوم لم تزعزع هذه الثقة ولم تترك في ذهني مسحة شك واحدة في

هذا الشأن . فلم ازل تام اليقين بأني متى قامرت لحسابي فلابد حتما ان اكسب » .
ـ وما الذي يجعلك على هذه الثقة الجازمة ؟
ـ الحق اقول لك اني لا اعرف شخصيا . كل ما اعرفه اني لابد ان اكسب ، وانه ليس امامي سبيل آخر . ولعل هذا هو السبب في شعوري بحتمية الكسب .
ـ اذن انت محتاج الى الكسب حاجة ماسة ايضا ، مادمت واثقا الى هذا الحد من الكسب .
ـ اراك لا تصدقين اني قادر على الجد في اى شيء .
فاجابتني بولينا بهدوء وعدم اكتراث : « الامر سيان عندي . وان شئت ، فهذه هي الحقيقة ، نعم ، انا لا اعتقد ان اى شيء جدي يمكن ان يقلقك . وانت قادر على القلق ، ولكن ليس بشكل جدي ، ولماذا تريد انت النقود ؟ لم استطع ان اتبين شيئا جديا في كل الاسباب التي ذكرتها لي » .
فقاطعتها قائلا : « وبهذه المناسبة ، لقد قلت لي ان عليك دينا تريدين الوفاء به . ويبدو انه دين كبير ! فهل انت مدينة به للفرنسي ؟ »
ـ كيف تجسر ان توجه الى اسئلة ؟ انك اليوم شديد الفظاظة . اسكران انت ؟
ـ اني اقول كلّ ما يرد على خاطري كما تعلمين . واسئلتي تكون صريحة جدا احيانا . واكرر لك اني عبدك ، ولا احد يشعر بالخجل امام عبد ، ولا يمكن ان تشعري بالاهانة من عبد !
ـ كلام فارغ ! انا لا اطيق نظريتك هذه عن العبد !
ـ تكرمي بملاحظة انني اتكلم عن عبوديتي لا لانني اردت في اى وقت ان اكون عبدك . انما اذكر هذا على انه واقع لا حيلة لي فيه ولا سلطان لي عليه .
ـ قلْ لي بلا مواربة : لماذا تريد النقود ؟
ـ لماذا تريدين ان تعرفي ؟
فاجابتني وهي تحرك رأسها بكبرياء : « كما تشاء ! » .
ـ انت لا تطيقين نظرية العبودية ، ثم تطلبين مع هذا طاعة العبودية مني : لا تجادل . اجب ! ـ ليكن اذن ! تسألينني لماذا اريد المال ؟ وانا اجيبك : لان المالَ كلّ شيء .
ـ اعلم هذا . ولكن الذي لاشك فيه ان الرغبة في المالَ ينبغي

الا لتدفعك الى الجنون ! انك شخصيا على شفا الجنون واعلوبة! فلابد هنا من هدف خاص معين . تكلم بوضوح . انا مصرة على هذا !

وبدا انها توشك ان تغضب ، وامتعني ان اراقب تصاعد غضبها وهي تسألني ، فقلت :

ـ طبعا هناك هدف . ولكني لا ادري كيف اشرحه لك او اقول ما هو . الأمر بساطة انني متى ملكت المال صرت شخصا آخر ، ولم اعد عبدا ، حتى في عينيك !

ـ ماذا ؟ وكيف تحقق ذلك ؟

ـ كيف؟ ابدو بعيدا عن كل تصديق ان اتمكن من جعلك تنظرين الى غير نظرتك الى العبد ؟ ان دهشتك وعدم تصديقك هما اللذان يزعجاني .

ـ لقد قلت ان هذه العبودية مصدر سرور لك . وكنت اعتقد هذا ايضا !

فصحت في حبور غريب : « اكنت تعتقدين هذا ؟ لكم احب هذه السذاجة منك ! اجل . اجل . ان العبودية لك اعظم سروري . فهناك لذة في احط مهاوي الهوان والتفاهة ! والله يعلم انه قد تكون هناك لذة في السوط عندما يمزق اللحم على ظهر المرء . ولكن هبي اني اريد ان اجرب لذات من نوع آخر ايضا ؟ لقد راق الجنرال ، منذ هنيهة ، ان يلقنني درسا مقابل السبعمائة روبل سنويا التي قد اتقاضاها منه او لا اتقاضاها ، امام الجميع على المائدة . ورفع الماركيز دي جرى حاجبه واخترقني بنظراته . ومن يدري ؟ لعلني اشتهي من كل قلبي ان اشد انف الماركيزامامك؟»

ـ كلام اطفال ! يستطيع المرء ان يجعل نفسه محترما في اي وضع كان . واذا اقتضى ذلك نضالا ، فذلك من شأنه ان يرفعه؛ لا ان يحط من قدره .

ـ كلام منقول نصا من الكتب ! ولكن ماذا اذا لم اكن مستطيعا ان اجعل نفسي محترما ؟ اي انني قد اكون جديرا بالاحترام ولكني لا ادري كيف اتصرف بوقار. الا تصدقين ان هذا ممكن ؟ لماذا ؟ ان كل الروس هكذا . وسأقول لك لماذا : لأن الروس موهوبون جدا ، ومتعددوا الجوانب بحيث يتعذر عليهم أن يجدوا السمت اللائق لأنفسهم على الفور. وكل شيء يتوقف على السمت. ونحن الروس جميعا على وجه التقريب موهوبون جدا بحيث

لاينابسنا الا السمت الملائم للعبقرية . ولكن معظمنا ليسوا عباقرة لسبب بسيط وهو ان العباقرة لايولدون كل يوم . والفرنسيون وحدهم ، وربما ايضا بعض الاوربيين ، هم الذين حددوا جيدا مفهوما للسمت يجعلهم يبدون ويقورن بطريقة ملحوظة في حين انهم لا قيمة لهم . ولذا يعني السمت عندهم الشيء الكثير جدا . فالفرنسي يمكن ان يتحمل الاهانة الحقيقية والمميتة من غير ان تهتز فيه شعرة ، ولكنه لايتحمل حكة على الانف ، لانها مضادة لاصول اللياقة التقليدية والسمت المقبول . وبسبب هذه الشكليات نجد شلباتنا ضعيفات جدا امام الفرنسيين . ولكني لا اراهم ذوي سمت حقيقي ... ولكني بالطبع لا احسن فهم هذه الامور كلها ، لانني لست امرأة . ولعلني اهذي ، وانت تتركين لي العنان كي اهذي . وينبغي ان توقفيني . فأنا عندما اتحدث اليك اريد ان اقول كل شيء بحذافيره . وافتقد كل حاسة للسمت والشكل المناسب . وانا مستعد ان اعترف بانه لا سمت عندي ، بل ولا فضائل لي اطلاقا ... اعلن هذا لك ، واصارحك انني لا اهتم نفسي بالفضائل . فكل شيء عندي قد توقف الآن . وانت نفسك تعرفين السبب . وليس في راسي فكرة واحدة . ومنذ زمن طويل لم اعد ادري ماذا يجري ، في روسيا او هنا . لقد مررت بدرسدن ، ولكني لا اذكر شيئا من درسدن. وانت نفسك تعرفين ما الذي يستغرقني . وما دام لا امل لي اطلاقا ، ولست شيئا في نظرك ، ففي وسعي ان اقول لك بصراحة : انني لا ارى شيئا سواك ، ولا شيء عداك له وزن عندي . اما لماذا احبك فهذا ما لا ادريه . ولعلك لست طريفة اطلاقا ! تصوري انني لا ادري هل انت ظريفة حقا ام لا ، وهل انت مليحة بطيب النظر اليك ام لا قد لا يكون قلبك طيبا اطلاقا ، وقد لا يكون عقلك نبيلا . هذا جائز جدا .

– لعلك تظن انك تستطيع ان تشتريني بالمال ، لانك لا تؤمن بطيبتي ؟

فصحت بها : « ومتى ظننت اني مستطيع ان اشتريك بالمال؟»

– انك تترك العنان للسانك ، وهانت ضللت طريق عقلك ، ولعلك تأمل الا تشتري بمالك شخصي ، بل احترامي .

– ليس بالضبط . لقد قلت لك انى ساجد عناء في الشرح . انك تربكينني . لا تغضبي من ثرثرتي . اما لماذا ينبغي الا تغضبي

مني ، فانت تعرفين السبب : لأني مجنون. ولكني بعد كل شيء لا ابالي ان تغضبي . كل ما املكه ان افكر واتخيل وسوسة اذيالك وانا هناك في زنزانتي واعض يدي . ولماذا تغضبين مني ؟ الاني قلت اني عبدك ؟ استغلي عبوديتي . استخدميني ! اتدرين اني قاتلك يوما ما ، لاني ساكف عن حبك ؛ ولا بسبب الغيرة ! كلا . بل ساقتلك لاني احيانا اتخيل نفسي آكلك ، التهمك ... اتضحكين ؟

فقالت بغضب : « لست اضحك اطلاقا ! بل آمرك بالصمت!»

وسكت ، وقد قطع الغضب انفاسها. واقسم اني لا أدري اهي جميلة ام لا ! ولكني كنت دائما احب ان انظر اليها وهي واقفة امامي هكذا ، ولذا كنت شغوفا باغضابها . ولعلها لاحظت ذلك ، ولذا فهي تتصنع الغضب فقط .. وقلت لها ما بذهني فصاحت بتقزز : « ما أدنا هذا ! » فقلت :

ـ لست ابالي ! بل اقول لك ان من الخطر علينا ان نخرج وحدنا . فقد عانيت عدة مرات من دافع قوي خامرني وكاد يستولي على نفسي كي اضربك واشوهك واقتلك ! اتظنين ان الامر لن يصل الى هذا الحد ؟ انك تسوقينني الى الجنون ! اتخالين اني اخشى الشجار ، او اخاف غضبك ؟ وماذا يهمني من غضبك ؟ اني احبك حبا بائسا ؛ واعلم اني بعد غضبك ساحبك الف ضعف اكثر من ذي قبل ! واذا قتلتك يوما ، ساقتل نفسي ايضا بالطبع. سارجيء اذن قتل نفسي أطول مدة ممكنة كي انغمس في عذاب حياتي بدونك ، هذا العذاب الذي لايطاق ! ! اقول لك شيئا لايصدق ! ان حبي لك يتزايد كل يوم ، وهذا يكاد يكون مستحيلا كما تعلمين . فكيف يمكن الا اكون قدريا بعد هذا ؟ اتذكرين كيف همست لك منذ ايام ونحن فوق قمة شلانجنبرج عندما تحديتني، قائلا لك : « مريني الق بنفسي فورا في هذه الهاوية!» اتذكرين! ولو كنت قلتها يومئذ لوثبت بلا امهال . الا تصدقين اني كنت خليقا ان اقفز ؟

ـ يا للكلام الفارغ الذي لا يصدقه عقل !

ـ لست ابالي اهو كلام فارغ ام غير فارغ ! كل ما اعرفه انني حين اكون معك فلابد لي من الكلام ! اتكلم واتكلم واتكلم ! اني افقد كل احترامي للذاتي عندما اكون معك ولا ابالي !

فقالت ببرود وضغط على الحروف تقصد به الاساءة : « ولماذا

آمرك ان تقفز من قمة الجبل ؟ لم تكن لهذا ادنى فائدة لى » .
فصحت : « عظيم ! لا فائدة لك فى سحقى ! انى لارى حقيقة اعماقك ! اتقولين لم تكن لك فى هذا فائدة ؟ ولكنك تعرفين ان اللذة دائما شىء طيب ، وان احساس القوة الضاربة التى لا حدود لها ، ولو على ذبابة نوع من اللذة ايضا . الانسان طاغية بالطبع، ويحب تعذيب سواه . وانت تعبدين التعذيب ! »

واذكر انها رمقتنى عندئذ بنظرة انتباه حقيقى ولابد ان كل احساساتى الجنونية السخيفة كانت قد ظهرت بوضوح على وجهى. والآن اذكر ان محادثتنا كانت حرفيا كما دونتها هنا ، وكانت عيناى بلون الدم ، وقد برز الزبد من شدقى . واما بخصوص قمة الجبل فاقسم بشرف انها لو طلبت منى الآن ان القى بنفسى الى الهاوية لقفزت بلا تردد . وحتى لو كانت قالتها مازحة ، او استهزاء بى وهى تبصق على : لقفزت !

وقالت : « ولم لا ؟ » لانها تعلم كيف كنت قادرا — وايم الله — ان اقتلها فى تلك اللحظة ! وكانت تخاطر بهذا القول . فاكدت لها انها ليست اكذوبة ، فسألتنى فجاة : « ا انت جبان؟»

— لست ادرى . ربما كنت جبانا . لست ادرى . فهذه مسألة لم افكر فيها منذ وقت طويل .

— ا اذا قلت لك اقتل هذا الرجل ، اتقتله ؟

— اى رجل ؟

— ايما رجل اشاء !

— الفرنسى ؟

— لا تسألنى ! بل اجبنى ! ايما رجل اسميه لك ! اريد ان اعرف هل تعنى حقا ما قلته الآن !

وبدا لى الجد الخطير الذى وقفت تنتظر به اجابتى غريبا جدا ، فصحت بها :

— فانشدك الله ان تخبرينى ما الذى يجرى هنا ؟ اخائفة انت منى ام ماذا ؟ انى ارى الامور تسير على غير مايرام . انت ابنة لزوجة رجل مفلس ومجنون ، ومتيم بتلك الشيطانة بلانش . ثم هناك ذلك الفرنسى بتاثيره الغامض عليك . وهانت الآن توجهين لى هذا السؤال بكل هذا الجد . فاريد على الاقل ان اعرف ، والا جننت واقتصت على شىء فظيع. اتعنين انك لا تستطيعين ان تحملى نفسك على الصراحة معى ؟ كأننى استطيع ان اشعرك بالخجل !

ـ لست احدثك عن هذا على الاطلاق . انما سألتك سؤالا اريد منه جوابا .

فصحت : « اقتل ! طبعا اقتل ! واقتل ايما شخص تطلبين مني قتله ، ولكن ايمكنك فعلا ان تطلبي ذلك مني ؟ »

ـ اتحسبني سابقي عليك ؟ بل ساصدر الامر ثم اظل شخصيا في الآخرة . ألديك الجسارة الكافية لهذا ؟ انك قد تقتل بالامر ربما ـ ولكنك خليق ان تاتي وتقتلني لاني جرؤت على اصدار هذا الامر اليك !

فخيل الى ان راسي يدور عند سماع هذه الكلمات . فحتى ذلك الحين كنت قد حملت سؤالها على محمل الهزل تقريبا ، وكانه تحد لي . ومع هذا كنت اعلم انها جادة ، الا اني دهشت لسماعها تقر صراحة بحقها في ان تأمرني ، وبرضاها من ممارسة هذا السلطان علي ، وان تقول لي : اذهب الى الموت ، وسابقى انا في الآخرة ـ كان في هذه الكلمات شيء صريح اكثر مما ينبغي ، وابعد مدى مما يجب . وماذا تحسبني ، بعد كل شيء ؟ لقد تجاوز هذا حدود العبودية والهوان . ليس امام المرء بعد معاملة اي شخص على هذا النحو ، الا ان يرفعه الى مستواه . وهكذا رغم عبثية حديثنا كله وغرابته ، احسست بروحي تهتز له .

وفجاة انفجرت ضاحكة . وكنا جالسين على « دكة » بقرب الطفلين اللذين يلعبان ، في مواجهة المكان الذي تقف عنده المركبات وينزل منها ركابها عند نهاية المشى الكبير امام الكورسال . وصاحت : « ارى هذه المراة البدينة ؟ انها البارونة فورملهلم . لقد وصلت منذ ثلاثة ايام . وهذا هو زوجها الروسي الطويل الممسك بالعصا . أتذكر كيف نظر الينا منذ أيام ؟ اذهب مباشرة الى البارونة ، واخلع قبعتك ، وقل لها شيئا بالفرنسية » .

وسالتها : « لماذا ؟ » فاجابتني :

ـ لقد اقسمت انك مستعد للقفز من قمة شلانجنبرج ، وقلت انك مستعد ان تقتل بامري . وانا بدلا من القتل والمآسي اريد ان اضحك فحسب . اذهب من غير ان تقول كلمة اخرى ، لاني اريد أن ارى البارون يضربك بعصاه !

ـ اتتحدينني لانك تظنين اني لن اقدم على هذا ؟

ـ نعم ، اتحداك . اذهب أنا مصرة ان تذهب .

ـ حسنا جدا . ساذهب ، وان كانت الفكرة غريبة . ولكن ؟

تظنين اني بهذا قد اسبب المتاعب للجنرال ، ولك عن طريقــة ! الســم اني لا افكر في نفسي ، بل فيــك ؟ وفي الجنرال . ثم ما الهدف من اهانة امراة ؟

فقالت بازدراء : « هانا اتبين ان كل ذلك كان كلاما . ولعل عينيك امتلأتا بالدم الآن لانك شربت خمــرا اكثر مما يجب على الغداء .. كانما انا لا اعرف ان ما طلبته منك غباء وســـخف وسوقية ، وان الجنرال سيغضب جدا. انما اريد فقط ان اضحك. وهذا كل شيء ! ولــكن كيف تهين امراة ؟ الارجح ان تاكل علقة !

فاستدرت وذهبت في صمت لتنفيــذ امرها . وطبعا كان لذلك حماقة وبلاهة ، وكان ينبغي ان اتخلص من الموضــوع كله ، ولكنى تذكرت وانا ادنو من البارونة احســـاسا بالتهور والاندفاع ، اجل احســـت تهورا صبيانيا . ثم انى كنت في حالة استثارة رهيبة ، وكانني مخمور .

الفصل السادس

مر الآن يومان منذ وقوع ذلك الحادث الاحمق . والصخب والضجة والكلام والدق على المائدة ! والفوضى ، والبلبله والحماقة والسوقية ـ وكل هذا بسببى ! ومع هذا يبدو الامر احيانا مضحكا ـ او على الاقل اجده هكذا . وكم اود ان اعرف ماذا يجرى حقيقة بداخلى ، وهل انا مجنون حقا ، ام هو ضلال مؤقت ، وينبغى ان اكبل بالسلاسل الى ان اتعلم حسن السلوك . احس احيانا كما لو كانت بعقلى آفة . وفى احيان اخرى اميل للاعتقاد بان هذا كله معناه اننى لم اتجاوز مرحلة الطفولة كثيرا ، ومقاعد الدرس ، واننى اعبث عبثا صبيانيا بكل بساطة .

والمسالة كلها يقع وزرها على عاتق بولينا ! لعله لولاها لما حدث هذا العبث . ومن يدرى . لعلنى صنعت هذا كله بدافع اليأس! (وان كان من الغباء التذرع بهذا !). وانا ، ببساطه ، لااستطيع ان افهم ما الذى اراه فيها . انها طبعا جميلة جدا . او على اى حال هكذا تبدو . وانا ـ بعد كل شىء ـ لست الشخص الوحيد الذى ساقته الى الجنون . فهى طويلة نحيلة . بل نحيفة اكثر مما ينبغى قليلا . وتشعرك كما لو كان من الممكن عقدها فى انشوطة ، او ثنيها نصفين . وقدماها طويلتان ضيقتان مغويتان معذبتان ! اجل ، هما مغويتان معذبتان ! وشعرها احمرانى ، وعيناها عينا هرة حقيقية ! وما اشد غطرسة نظراتها المتكبرة ! فمنذ اربعة اشهر ـ عندما دخلت خدمتهم حديثا ـ جرت محادثة مثيرة فى قاعة الرقص بينها وبين دى جرى ذات مساء ورمته بنظرة جعلتنى اتخيل بعد ذلك عندما انصرفت الى الفراش انها صفعته على خده ، ثم وقفت تنظر اليه . ومنذ تلك الليلة بدات احبها .

ولكن ينبغى الا انحرف عن الموضوع باستطرادالى .

لقد سلكت الدرب المفضى الى الممر الكبير ، ووقفت فى وسطه فى انتظار وصول البارون والبارونة . ولما صارا على بعد خمس

خطوات مني خلعت قبعتي وانحنيت . واذكر ان البارونة كانت ترتدي زيا كاملا من الحرير الرمادي له اهداب وكشكشات وذيل. وكانت قصيرة جدا وملحوظة البدانة ولاسيما عند الذقن الذي كان لتهدله يخفي رقبتها . ووجهها قرمزي ، وعيناها صغيرتان تنمان عن الحرد والغطرسة . وتتهادى في مشيتها كأنها تضفي على الجميع شرفا . وكان البارون طويلا نحيفا ، وملامحه ـ كما هو شائع لدى الالمان ـ ملتوية ، ووجهه تغطيه مئات الغضون والتجاعيد . ويلبس نظارة ، وسنه حوالي الخامسة والاربعين ، وساقاه تبدءان من صدره تقريبا ـ وهذا من علامات السلالة . وهو متكبر كالديك الرومي . ونضاض الثوب قليلا ، وعلى سحنته تبلد يكاد يشبه الاستغراق في التفكير . وقد ومض هذا كله أمام عيني في ثوان معدودات .

وفي البداية لم تكد انحنائي وامساكي قبعتي في يدي تستلفتان نظرهما ؛ وتجهم البارون بعض الشيء ، أما البارونة فمضت لطيتها متجاهلة اياي . فقلت بالفرنسية بصوت مرتفع وواضح ضاغطا على كل مقطع :

ـ سيدتي البارونة . يشرفني ان اكون عبدك !

ثم انحنيت ، ولبست قبعتي ، ومررت بالبارون ، ملتفتا نحوه بوجهي في ادب ، ومبتسما .

وكانت قد امرتني ان اخلع قبعتي . اما الانحناء والعبث الصبياني فكانا من ارتجالي . والله اعلم ماذا جعلني اصنع هذا ، فهو أشبه بالجري هابطا التل ، فلم استطع التوقف . وصاح البارون ، بل سح ، ملتفتا نحوي في دهشة غاضبة : « هيه ! » . فاستدرت نحوه ووقفت في توقع مهذب ، وانا لم ازل انظر اليه باسما . واحمر بوسوح ، وقطب حاجبيه حتى لم يعودا قادرين على مزيد من التقارب ، واربد وجهه بصورة ملحوظة ، والتفتت البارونة نحوي ايضا ، وهي ترمقني باستنكار غاضب ، وتطلع الينا المارة ؛ ولوقف بعضهم عن السير بالفعل . وتضاعف غضب البارون، فاعاد نباحه مرتين : « هيه ! هيه ! » . فقلت بالالمانية وانا انظر في عينيه مباشرة : « بالتاكيد ! » .

فصاح وهو يهز عصاه : « ! انت مخبول ! » وقد ظهرت عليه

العصبية بعض الشيء . ولعل ملابسي سببت له ارتباكا ، لانى كنت حسن الزى جدا ، ولا اخلو من تانق ، كأحد افراد المجتمع الراقى . فصحت به مرة اخرى بالالمانية وانا امط المقاطع على طريقة اهل برلين : « بالتأكيد ! » ، فاستدار البارون والبارونة على اعقابهما بسرعة وفرا هاربين من امامى . وبدأ بعض السابلة يتحدثون عما وقع ، وحملق بعضهم فى وجهى بدهشة ، ولكنى طبعا لا اذكر كل شيء بوضوح . واستدرت ورجعت الى بولينا اليكسندروفنا بخطوتى وسرعتى العاديتين . ولكن قبل أن أصل اليها بنحو مائة خطوة رأيتها تنهض وتتجه الى الفندق مع الطفلين. ولحقت بها عند المدخل ، وقلت لها : « هاك . لقد فعلتها .. » فأجابتنى : « حسن جدا . والآن انقض ماصنعت ! » ولم تعرنى التفاتا وشرعت تصعد السلم .

ورحت اتجول على غير هدى طول الامسية ، فى الحديقة ثم فى الغابة ، حتى وجدت نفسى فى مقاطعة اخرى . تناولت بيضا مقليا وشربت نبيذا فى احد الاكواخ ، ولم تكلفنى هذه الوجبة الريفية اكثر من تالر ونصف . وكانت الساعة الحادية عشرة عندما عدت الى الفندق . حيث استدعانى الجنرال فورا .

ومجموعتنا تنزل فى جناحين بالفندق ، بكل منهما حجرتان . واولهما عبارة عن حجرة استقبال بها بيانو كبير ، تتصل بحجرة اخرى هى حجرة جلوس الجنرال . وهناك وجدته فى انتظارى واقفا فى وسط الحجرة وقفة ملكية . وكان دى جرى جالسا يتراخ على الاريكة . وشرع الجنرال يخاطبنى قائلا :

ــ اسمح لى ان أسالك ماذا صنعت ياسيدى ؟

ــ كنت اتمنى ان تمضى مباشرة الى لباب الموضوع ياجنرال . واحسبك تريد ان تسالنى بصدد التقائى بالمانى معين هذا اليوم ؟

ــ المانى معين حقا ! هذا الالمانى ياسيدى هو البارون فورمرهلم ، وهو شخص بالغ الاهمية . وقد كنت شديد الفظاظة معه ومع البارونة .

ــ كلا على الاطلاق !

فصاح الجنرال : « لقد افزعتهما ياسيدى العزيز ؟ » فاجبته بهدوء :

ـ لم يحدث شيء من هذا . كلّ ما هنـاك اني عندما كنت في برلين لاحظت انهم هنـاك يكررون كلمة معناها تقريبا « بالتأكيد » بين كل عبارة وأخرى ، مع مط مقاطعها . ولما قابلته على الممر تذكرت فجاة هذه الـكلمة وثقلت على اعصابي . كما ان البارونة كلما التقيت بها ـ وقد حدث هذا ثلاث مرات من قبل ـ كانت تمشي ناظرة امامها وكانني دودة توطأ بالاقدام ، فخلعت قبعتي بكل تهذيب (اؤكد لك !) وقلت لها بالفرنسـية : « سـيدتي ! لي الشرف ان اكون عبدك ! » ولما التفت البـارون نحوي وقالْ : « هيه » لم اتمالك نفسي من الصياح كما صاح قائلا : «بالتأكيد» مرتين ، قلتها بصورة عادية في المرة الأولى ، ثم ممطوطة بكل قوتي في المرة الثانـية . وهذا كل ما هنالك !

واقر بأني كنت مبتهجا بهذا الايضاح الطفولي للغاية ، وتملكتني رغبة في أن اجعل الأمر برمته يبدو سخيفا بقدر الامكان سخافة مضحكة . وكنت كلما مضيت في الـكلام اخذتني الحماسة له . فصاح الجنرال :

ـ السخر مني !

والتفت الى الفرنسي واوضح له بالفرنسـية اني كنت بـبساطة احاول اثارة فضيحة . وضحك دي جري بازدراء وهز كتفيه ، وصحت :

ـ لاتظن هذا ! لم يكن الامر من هذا القبيل اطلاقا ! لقد كان ما اقدمت عليه سيئا بالطبع ، وانا اعترف بذلك لك بكل صراحة . ويمكن أن يوصف بالفظاظة ، وبانه عبث ابله ، لا اكثر . واذكر لك ياجنرال اني آسف عليه الى اقصى حد . ولـكن هناك اعتبارا واحدا اعتقد انه يعفيني من الاسف عليه ، فانا منذ اسبوعين ، وربما ثلاثة ، لم أكن اشعر اني على ما يرام . كنت مريضـا ، عصبيا ، سريع الاثارة ، كثير الاخيلة والبدوات ، وكنت احيـانا افقد السيطرة على نفسي . بل كنت احيانا اشعر بدافع للتحدث الى الماركيز . ولـكن لماذا امضي في ذلك ، فلعله لايحب مني هذا . وعلى الجملة كانت هناك اعراض وبيلة . ولا ادري هل تجعل البارونة فورمرهلم هذه الحقيقة في اعتبارها عندما اذهب اليها لأطلب صفحها (لاني انوي ان اطلب صفحها) . ولا اعتقد انها ستجعل

هذا في اعتبارها ، لان هذا الاعتبار قد اسيء استخدامه اخيرا في الدوائر القضائية . فالمحامون يجنحون في المحاكمات الجنائية الى تبرير جرائم موكليهم بالدفع بانهم لم يكونوا يدرون ما يصنعون وقت ارتكاب الجريمة ، وان ذلك ضرب من المرض : « لقد ارتكب القتل وهو لايدري ما هو صانع » . وتصور ياجنرال ان الطب يؤيدهم في هذا ، مؤكدا ان ثمة مرضا من هذا القبيل : هو ضرب من الجنون الوقتي ، لايدري فيه المرء ما هو صانع ؛ او هو لايكاد يدريه الا نصف دراية ، او ربع دراية ! ولكن البارون والبارونة ينتميان الى الجيل القديم ، وينحدران من ارومة اليونكر البروسيين وكبار ملاك الاراضي . ولعلهم لا يعرفون شيئا عن هذا التقدم في الطب الشرعي، ولذا لن يقبلوا هذا العذر. فما رايك انت ياجنرال؟

فقال الجنرال بخشونة وغضب مكبوح : « حسبك ياسيدي ! حسبك ! فانا انوي التخلص نهائيا منك ومن عبثك الصبياني . ولن تعتذر للبارون والبارونة . واي اتصال بك ولو للاعتذار فيه حط من قدرهما . فالبارون عندما عرف انتماءك الى بطانتي كلمني في هذا الامر بالكورسال ، واؤكد لك انه كان على وشك طلب الترضية مني . فهانت ترى ما عرضتني له ــ عرضتني انا ياسيدي ! انا ! واضطررت ان اسال البارون الصفح واعده بانني سأفصلك فورا ، في يومنا هذا ، من خدمتي » .

ــ على رسلك لحظة ياجنرال . على رسلك لحظة ! اكان هو الذي طلب اليك فصلي ؟

ــ كلا ! ولكني اعد نفسي مطالبا بتقديم هذه الترضية اليه ، وقد سر البارون لذلك بالطبع . لذا يجب ان نفترق ياسيدي العزيز . وانت مستحق لك عندي اربعة فريدريشدورات وثلاثة فلورينات حسب سعر القطع . وهاك هذا المبلغ ؛ وهاك الحساب ، ويمكنك ان تراجعه . وداعا ! ونحن منذ هذه اللحظة غريبان ، وانا لم اعرف معك الا المتاعب والمضايقات . وسأنادي النادل الآن وابلغه اني لست مسئولا منذ الغد عن نفقاتك في الفندق في خدمتك ياسيدي !

واخذت النقود وورقة كتب عليها الحساب بالقلم الرصاص ، وانحنيت للجنرال وقلت له بكل وقار وجد :

ـ لايمكن ان تنتهي الامور بهذا الشكل ياجنرال ! وانا شديد الاسف لانك تعرضت للمضايقة من جانب البارون ، ولكن ـ واستميحك العفو ! ـ لا تلومن الا نفسك ! فما الذى جعلك تتولى اجابة البارون نيابة عنى ؟ وماذا يعنى القول بانى انتمى الى اسرتك؟ انا مجرد مؤدب في بيتك ولا اكثر من هذا . فانا لست ابنك ، ولا تحت وصايتك ، ولا يمكنك ان تكون مسئولا عن افعالى . فانا قانونا شخص كامل الاهلية ، في الخامسة والعشرين ، ومتخرج في الجامعة ، وسيد راق مهذب (جنتلمان) ، وغريب عنك تماما . ولا شيء سوى احترامي الذى لا حدود له لمكانتك يمنعني من طلب الترضية منك ، وطلب ايضاح عن توليك الاجابة والمسئولية بدلا مني .

وذهل الجنرال ، فلم يسعه الا ان يمد ذراعيه في يأس ونفاد حيلة ، ثم استدار الى الفرنسي وشرح له انني ـ عمليا ـ طلبته للمبارزة ، فضحك الفرنسي بصوت عال ، واستطردت انا بكل هدوء ، غير مكترث اطلاقا بضحكة الماركيز :

ـ ولكني لست انوى ان ادع البارون يفلت . وما دمت انت ياجنرال قد شاركت في هذا الموضوع بموافقتك على الاصغاء لشكوى البارون وانحيازك لجانبه ، لذا اتشرف بابلاغك انني في صباح الغد ساطلب بنفسي من البارون ان يقدم لي ايضاحا رسميا لالتجائه ـ متخطيا اياى ـ الى طرف ثالث ، كأنني غير قادر بالاجابة عن نفسي .

وجرت الامور كما توقعتها . فاستولى الرعب على الجنرال عند سماعه هذه الحماقة الجديدة وصاح :

ـ ماذا ؟ اتنوى حقا ان تستمر في هذه المسألة اللعينة ؟ انت لاتدرى ما انت صانع بي ! اباك ياسيدى العزيز ! اياك ! انى .. انى ... ـ بالاختصار ـ نظرا لمكانتي ومكانة البارون سيقبض عليك الشرطة ويبعدونك لمنعك من التسبب في متاعب اخرى . تذكر هذا !

ومع انه كان يكاد يختنق غضبا ، الا انى ادركت انه كان مرتاعا ، فاجبته في هدوء وجد صعوبة في تحمله :

ـ لا احد يمكن ان يقبض عليه للشغب قبل ان يتم اقتراف الشغب . وانا لم ابدا بعد ايضاحي للبارون ، ولايمكن ان تكون لديك فكرة عن الاساس الذى سابني عليه تصرفي في هذه المسألة ،

ولا من كيفية تصرف فيها . انما اريد فقط ان استجلى ما بعد اهانة لى ، وهو اعتبارى تحت وصاية شخص يدعى لنفسه السلطان على حريتى ، فلا حاجة بك للانزعاج حقا .

فقال الجنرال فى تلعثم ، وقد غير لهجته الغاضبة الى المناشدة . وقد امسك بيدى كلتيهما :

ـ ناشدتك الله يا اليكسى ايفانتش ان تتخلى عن هذه النيات الجنونية . سل نفسك ماذا يمكن ان تتمخض عنه . المزيد من المضايقات فحسب ! ويجب ان تقر بانى لابد فى مثل موقفى ان اكون شديد التدقيق ، ولا سيما هنا . انت لاتدرى . لاتدرى حقيقة موقفى ! انا مستعد ان اعيدك الى العمل اذا رحلت من هنا . هذا اجراء مؤقت ـ بالاختصار يمكنك ان تفهم الاسباب يا اليكسى ايفانتش !

وتراجعت نحو الباب وانا ارجوه مرة اخرى بحرارة الا يقلق ، ووعدته ان يكون كل شىء على مايرام ، وان جميع الأصول ستراعى. ثم اسرعت بمغادرة الحجرة .

والروس فى الخارج كثيرو التهيب احيانا ، ويخشون ما عسى ان يقوله الناس او يظنونه بهم . وهل هذا الشىء او ذاك هو الذى يليق الاقدام عليه . وقصارى القول انهم يتحسسون دواما مواطىء اقدامهم ، ولاسيما من يرون انفسهم من ذوى الاهمية . واحب شىء اليهم هو العرف المستقر الذى يمكنهم اتباعه فى عبودية : سواء بالفنادق او اثناء الرحلات ، وفى الاجتماعات الخ ... وقد افلت من فم الجنرال قوله ان موقفه يوجب عليه الحذر الشديد ولذا فزع بسهولة وغير لهجته نحاة معى . وقد لاحظت هذا وكنت اعرف انه خليق وهو تحت سلطان الاندفاع ان يتصل بالسلطات فى اليوم التالى ، ولذا يجب على ان اكون على حذر :

والواقع انى لم اكن راغبا اطلاقا فى اغاظة الجنرال ، بل بولينا. فقد عاملتنى بكل قسوة بحثها اياى على مثل هذه الاعمال ، فقررت ان احملها على ان تطلب منى بنفسها التوقف عنها . فعبث الصبيانى يمكن فى النهاية ان يورطها ايضا . وفى الوقت نفسه بدات احس مشاعر ورغبات اخرى تخامرنى .. وهبوطى الى احط الدرك امامها ليس معناه اطلاقا ان ادع الآخرين يعاملوننى باستخفاف

وزراية . ولن اسمح بالقطع للبارون ان يجلدني وتملكتني الرغبة فى ان احطمهم جميعا بدون حمقى بحيث اخرج من الموقف بطلا. ولم تكن بى حاجة للقلق ! فسوف يدعوها خوفها من الخزى العلنى العام أن تردنى من المضى فى افاعيلى . وان لم تردنى فسوف ترى على الاقل انى لست شيئا هينا ذريا .

(سمعت الآن نبأ خارقا للعادة عن مربيتنا التى قابلتنى على السلم : ان ماريا فيليوفنا ذهبت بمفردها الى كارلسباد اليوم بقطار المساء لزيارة بنت عمها ، فما معنى هذا ! تقول المربية انها كانت تنوى الذهاب منذ مدة ، ولكن كيف لم يعرف احد شيئا من ذلك . ولكن لعلنى الشخص الوحيد الذى لم يعرف. وقالت المربية ايضا ان ماريا فيليوفنا جرت بينها وبين الجنرال مشادة كلامية أمس الاول . فهمت! كان ذلك بشأن الآنسة بلانش بلاشك. اجل . أن شيئا حاسما يوشك ان يحدث !)

الفصل السابع

استدعيت النادل هذا الصباح وابلغته ان ترسل فاتورة حجرتي الي شخصيا منذ الآن . ولم تكن الحجرة باهظة التكاليف بحيث يتطلب ذلك مني مغادرة الفندق. وكان معي ما يوازي مائة وستين جولدنا ، ولعل ثروة تنتظرني . والغريب انني وان لم اربح شيئا حتى الآن ، الا ان جميع افعالي ومشاعري وافكاري افعـــال ومشاعر وافكار رجل ثري ؛ ولا استطيع ان ارى نفسي في اي ضوء آخر . وفي اللحظة التي قررت فيها ــ مع ان الوقت مبكر ــ ان اتوجه فورا الى مستر استلي في فندق انجلترا ، الذي لايبعد عن فندقي ، دخل دي جرى الى حجرتي . ولم يكن هــذا قد حدث من قبل ، ثم ان العلاقات بيني وبين هــذا السيد كانت في المدة الاخيرة يسودها التباعد ، ان لم نقل انها علاقات متوترة . فهو لايحاول اخفاء ازدرائه لي . بل يعمل جهده لاظهار ذلك . وانا لدي من الاسباب الخاصة بي لكيلا اكون مفرط الشغف به . فانا باختصار امقته . ولذا ادهشني وصوله جدا ، وحدست على الفور ان شيئا ذا صفة خاصة جدا على وشك الوقوع .

ودخل الماركيز الحجرة بتهذيب شديد ، ثم قال لي كلمة مجاملة بشأن حجرتي. ولما راى قبعتي في يدي اعرب عن دهشته لازماعي الخروج للنزهة في هذه الساعة المبكرة . ولما سمع انني ذاهب لزيارة مستر استلي بدا عليه التفكير والاهتمام العميق . وكان دي جرى ــ شأن جميع الفرنسيين ــ مرحا ومهذبا عندما يكون ذلك ضروريا ومفيدا ؛ وينقلب سمجا بصورة لا تطاق عندما لا تكون ثمة حاجة للمرح والتهذيب . فالفرنسيون قلما يكونون مهذبين بطبيعتهم ، بل يبدو تهذيبهم ايضا حسب الطلب ، وعلى اســـــاس محسوب . فالفرنسي قد يرى من الملائم ان يكون ظريفا ، ولكن تصرفاته هذه تكون غير طبيعية وتسير في مسار يحدده العرف . والفرنسي ــ على سجيته ــ له مزايا وفضائل محدودة وشائعة جــدا فهو

بابجاز اسمح مخلوق فى العالم . ولا يفتتن برجل فرنسى الا غير ذوى الخبرة ـ ولاسيما الشابات الروسيات ـ اما الشخص الذكى فيدرك ما وراء هذه الظواهر على الفور ولايطيق هذه الدقة فى المراسم والشكليات وما الى ذلك من اشكال التهذيب السائدة فى الصالونات المتلبسة بمظاهر الألفة والمرح .

وشرع دى جرى يقول بتبسط ولكن بتهذيب شديد : جئتك فى عمل . لا اخفى عنك انى جئت بمثابة رسول ، وسيط من قبل الجنرال . ومعرفتى بالروسية محدودة جدا ولم اكد افهم كلمة واحدة مما قلته بالامس ، ولكن الجنرال شرح لى المسالة بالتفصيل . واعترف ...

فقاطعته قائلا : « تقول انك وسيط فى الموضوع . وانا طبعا مجرد مؤدب خاص ولم ازعم فى اى يوم لنفسى شرف صداقة اسرته ، او اننى على صلة حميمة بها ، ولذا لست اعرف جميع الظروف . ولذا ارجوك ان تخبرنى : هل صرت انت حقا واحدا منهم ؟ لانه يبدو لى انك تشارك فى كل شىء الآن ، وانك غدوت وسيطا لا يتغير فى جميع امورهم » .

ولم يرقه سؤالى ، لانه كان سؤالا مفرط الشفافية ، او مباشرا اكثر مما يجب ، وهو لايريد ان يكشف موقفه ، فقال ببرود : « انى مرتبط بالجنرال بالعمل من جهة ، وبحكم ظروف خاصة معينة من جهة اخرى . وقد ارسلنى الجنرال لأطلب اليك التخلى عن النية التى اعلنتها بالامس . وهذا كله طريف جدا بالطبع ، ولكنه طلب منى بصفة خاصة ان ابلغك انك لن تنجح ، فالبارون لن يستقبلك . ولديه ، كما تعلم ، جميع الوسائل لمنع اية مضايقات فى المستقبل من جانبك . ولابد ان تتبين هذا من تلقاء نفسك ، فلماذا تمضى فى هذا الطريق ؟ والجنرال يعد بردك الى عملك فى اول فرصة ملائمة ، وان مرتبك سيستمر حتى ذلك الحين . وهذا شىء مفيد لك ، اليس كذلك ؟ » .

وقلت له بكل هدوء انه مخطىء بعض الشىء . وان البارون بدلا من ان يطردنى سوف يسمعنى ، وقلت له ايضا لعله جاء بقصد استكشاف كيف ساعالج الامر بالضبط . فقال : « رباه ! طبعا مادام الجنرال مهتما الى هذه الدرجة فهو بالطبع راغب فى ان

يعرف كيف تنوى ان تتصرف . هذا طبيعى جدا » .

وشرعت فى الايضـاح ، واستقر هو مصغيا ، مسترخيـا على الاريكة ، وقد مال براسه الى احد الجانبين ، وقد ظهرت مسحة غير خافية من السخرية على سحنته ، فكان موقفه موقف المتنازل فى استعلاء . وحاولت بكل قوتى ان اتظاهر بالنظر الى الموضـوع بكل جد، وبينت له ان البارون بتقدمه بالشكوى منى الى الجنرال : كأنى خادم الجنرال ، يكون قد حرمنى من منصبى فى المقام الاول ، ثم هو فى المقام الثانى قد افترض انى غير كفء للاجابة عن نفسى وغير اهل لمخاطبتى مباشرة . فطبيعى انى شـعرت بالاهانة التى لا مبرر لها . ولما كنت آخذ فى الاعتبار الفارق فى السن ، والوضع الاجتماعى . وما الى ذلك كله (وهنا كدت الا استطيع كتمان الضحك) فانا غير راغب فى ارتكاب حماقة اخرى ، اى اننى لا انوى طلب الترضية الصريحة المباشرة من البارون ، بل ولن اقترح ذلك عليه . ولكننى اعد نفسى محقا فى ان اعرض عليه وعلى البارونة اعتذارى ، ولاسيما انى فى المدة الاخيرة لم اكن على ما يرام ، ومعرضا للاختلالات العصبية وتناوبى النزوات وما الى ذلك . الا ان البارون بتقدمه بالشكوى بالأمس الى الجنرال — تلك الشكوى المبينة المهينة لى جدا — وباصراره على ان يفصلنى الجنرال ، قد جعلنى فى وضع لا يسمح لى بتقديم اعتذاراتى اليه والى البارونة ، لانهما — بل والعالم كله — قد يظنون اننى اتقدم بالاعتذار تحت ضغط الموقف ، واملا فى استعادة منصبى . ومن كل ما تقدم يتبين انى مضطر الآن ان اطلب من البارون أن يعتذر لى اولا — فى حدود معقولة ومعتدلة بالطبع — كان يقول مثلا انه لم يقصد الاساءة الى او اهانتى . وبعد ان يصنع البارون ذلك تكون يداى مطلقتين كى اقدم له اعتـــــذارى القلبى الخالص . « وقصارى القول انى ساطلب من البارون ان يطلق يدى » .

— ما كل هذا الحرص على الشكليات ؟ ولماذا ينبغى ان تعتذر؟ لقد اقدمت ياسيدى على هذا كله بقصد مضايقة الجنرال ، او لعل لديك غرضا آخر خاصا بك . ياسيدى العزيز — عفوك ! لقد نسيت اسمك . المسيو الكسيس ؟ اليس كذلك ؟

— عفوك ياسيدى الماركيز ، ولكن ما شانك انت بهذا كله ؟

ـ ولكن الجنرال ...

ـ وما شان هذا كله بالجنرال ؟ لقد قال امس شيئا ما معناه انه يجب ان يكون شديد الحرص ... وبدا عصبيا جدا ... ولكن ليست عندي اى فكرة عما يتكلم عنه ...

فقال دي جري بصوت يحمل معنى المناشدة التى زادها الضيق ظهورا : « انت تعرف طبعا ان هناك ظرفا معينا ... الست تعرف الآنسة دي كومنج ؟ » .

ـ اتعنى الآنسة بلانش ؟

ـ حسن جدا . الآنسة بلانش دي كومنج والسيدة والدتها ... تعرف انت ان الجنرال ـ باختصار ـ يحبها و ... قد يؤدي الامر الى الزواج . فانظر كيف تكون المضايقات فى هذه الحالة ، وشتى صنوف الفضائح والخزى العام ...

ـ لست ارى هنا فضيحة ولا خزيا عاما له اى علاقة بالزواج.

ـ ولكن البارون شخص سريع الغضب ، بروسى الطبع ، وسينير مشاحنة على الطريقة الالمانيه .

ـ ولكن ذلك يتعلق بي ، لا بك ، لانى كما ترى لم اعد منتميا لهذه الاسرة (قلت ذلك فى تباله شديد) ولكن لاتؤاخذنى ! هل استقر الرأى على زواج الآنسة بلانش من الجنرال ؟ وما الذى ينتظرانه لعقد القران ؟ اعنى لماذا يخفيان ذلك عنا ، وعن الاسرة على الاقل ؟

ـ ليس فى امكانى ... والواقع ان المسألة لم تتقرر بعد ؛ ثم انهما ينتظران انباء معينة من روسيا ، ويجب ان يرتب الجنرال احواله .

ـ آه . نعم ! الجدة ..!

فنظر الى دي جرى نظرة مقت ، وقاطعنى قائلا : « قصارى القول انى اعول على تهذيبك الفطرى وذكائك ولباقتك . فانت طبعا ستصنع ذلك لاجل اسرة تلقتك بين احضانها كفرد منها وعاملوك بحب واحترام » .

ـ تعلم انه طردنى من عملى ، وانت تقول ان هذا مجرد اجراء لحفظ الظاهر . ولكنك توافقنى على انه عندما يقول لك احد : « انا لا اريد ان اعرك اذنيك حقا ، ولكن ـ حفظا للمظاهر ـ

اسمح لي ان اعركهما !.. عندئذ يكون الامر سيان من حيث النتيجه اليس كذلك ؟ »

وعندئذ قال بغطرسة وعجرفة : « في هذه الحالة ، وما دام طلبي ليس له وزن عندك .. اسمح لي ان اقول لك ان اجراءات ستتخذ ، نفي هذا البلد سلطات ، وستبعد عن هنا اليوم بالذات. شخص ساذج مثلك يريد ان يتحدى البارون ! وتظن انك ستترك وشانك ؟ صدقني لا احد يخشاك هنا ! ولئن تقدمت لك بطلب ، فقد كان ذلك بمبادأة مني ، لانك نابهت الجنرال . الا تفهم ان البارون سيكلف خادمه بطردك ؟ » .

فاجبته بهدوء تام : « سوف لا اذهب اليه بنفسي . وانت مخطىء ياموسيو دي جري ؛ لان كل شيء سيجرى بترتيب ادق مما يبدو انك تتصوره . فانا ذاهب الآن فورا الى مستر استلي كي ارجوه ان يكون وسيطي ، وشاهدى ، فهو يحبني ولا اعتقد انه يرفض ذلك. وسيذهب الى البارون وسوف يستقبله البارون ، وقد اكون مجرد «مؤدب خاص» ، ومرءوس على نحو ما ، اى عديم القدرة منى دفع الاذى بنفسي ، ولكن مستر استلي ابن شقيق لورد ، لورد حقيقي . والكل يعلمون هذا . اللورد بيبروك. وهذا اللورد هنا بنفسه . فصدقني اذ اقول لك ان البارون سيكون مهذبا جدا مع مستر استلي وسيسمع ما لديه من قول . وان لم يحسن الاصغاء فسوف يعد مستر استلي ذلك اهانة شخصية (وانت تعرف صرامة الانجليز في هذا الشان) وسيرسل صديقا له الى البارون . وله ـ صدقني ـ اصدقاء محترمون . فكر في هذا كله. ت ان الامور قد تتجه غير الوجهة التي تتوقعها».. وذعر الفرنسي حقا ، فقد كان لهذا كله رنين الصدق ؛ وبدا انني حقيقة في وضع يمكنني من اثارة المتاعب ، فقال هذه المرة بصوت فيه توسل حقيقي :

ـ ارجوك ان تتخلى عن هذا كله ! يبدو عليك الاستمتاع بفكرة الشجار .. فليست الترضية ما تريد ؛ بل الفضيحة . وكما قلت لك من قبل قد يكون هذا كله طريفا ومسليا جدا ، بل ويدل على البراعة ، ولعل هذا ما تسعى اليه . ولكني باختصار (وكنت قد نهضت وتناولت قبعتي) جئت لاسلمك بضعة سطور من شخص معين . اقراها من فضلك . ولدى تعليمات بانتظار ردك .

وسلمني قصاصة ورق مطوية ومغلفة بورق لاصق . وكانت بها سطور بخط بولينا :

« يبدو انك تنوى المضى في هذه المسالة. انت عنيد وامام الاثارة شرعت في الاعيبك الصبيانية ، ولكن هناك ظروفا قد اشرحها لك فيما بعد ، فارجوك ان تكف وتهدأ . فكل هذا هراء ! انا بحاجة اليك ، وقد وعدت ان تطيعني ، تذكر قمة شلانجنبرج ! ارجوك بل وعند الاقتضاء آمرك ان تطيعني — ب . »

« حاشية : لعلك غاضب مني بسبب الامس . ان كان الامر كذلك ارجوك ان تصفح عنى » .

واحسست راسي يدور عندما قرات هذه السطور ، وابيضت شفتاى ، وبدات ارتجف . وسطر الفرنسى امامه في لبانة ؛ ثم اشاح بنظراته عني كمن لايريد ان يشاهد اضطرابي . وكنت افضل لو ضحك مني صراحة . واجبته قائلا : « وهوكذلك ! قل للآنسة الا تقلق ، ولكن اسمح لى ان اسالك لماذا لم تعطنى هذه الرسالة من قبل ؟ كان يجب أن تبدا بهذا بدلا من الثرثرة في التوافه . ان كان السبب الحقيقي لحضورك هو القيام بهذه المهمة ... »

— اوه .. ان المسالة برمتها خارقة للمعتاد جدا كما تعلم ، ولذا اعتقد انك ستغفر لى تلهفى الطبيعى ، فقد كنت اريد ان اعرف باسرع ما يمكن من فمك انت ما هى مقاصدك . ومن جهة اخرى لست اعرف ماذا جاء في هذه الرسالة ؛ وخطر لى انه لن يكون وقت تسليمها لك متاخرا اكثر مما ينبغى اذا ارجاته قليلا .

— فهمت ! لقد قيل لك الا تسلمها لى الا عند الضرورة . والا تسلمها اطلاقا اذا استطعت ان تسوى كل شيء بالكلام . اليس كذلك ؟ اجبنى ياسيو دى جرى اجابة صريحة !

فاجابني متصنعا التحفظ التام وهو ينظر الى بصورة غريبة : « ربما ! » . فتناولت قبعتى ، وهز راسه وانصرف . واعتقد انى رايت ابتسامة سخرية على شفتيه . وكيف لا !.. وغمغمت لنفسى وانا اهبط السلم : « سنسوى الامر فيما بيننا يوما ما ايها الفرنسى ، وسنرى اينا خير الرجلين ! » ولكني لم استطع ضبط افكارى وتنظيمها ، لانّ الدم كان يندفع الى راسى .

وتدافعت فكرتان بحيوية شديدة الى ذهنى بمجرد تمكنى من

التفكير بوضوح . أولاهما انه من الغريب ان مثل هذه التفاهات . وما هي الا تهديدات صبيانية من فتى مثلي : في اليوم السابق ، انفجرت كل هذا الذعر العام . وثانيتهما : ما اعظم تأثير هذا الفرسي على بولينا ! كلمة منه كافية كي تصنع ما يأمرها به ، فاذا بها تكتب لي رسالة وتلتمس مني مكرمة . لقد كانت علاقاتهما بالطبع خافية علي منذ البداية ، منذ بدأت اعرفهما . ولكني لاحظت عليها في الايام القلائل الاخيرة نفورا بل وازدراء له ؛ وانه لم يعد ينظر نحوها ، ولو على سبيل التهذيب الشائع . لاحظت هذا . وبولينا نفسها حدثتني عن هذا التقزز ، فقد ندت منها اعترافات ذات مغزى كبير ـ ومعنى ذلك ان له عليها سلطانا ؛ وانها خاضعة له .

الفصل الثامن

في المشى الذى تظلله اشجار البلوط التقيت بصديقى الانجليزى، فصاح عندما وقع نظره على :

ـ اوه . اوه ! لقد كنت ذاهبا اليك ، وانت كنت قادما الى . اصحيح انك قطعت صلتك بالاسرة ؟

فقلت بدهشة : « خبرنى اولا كيف عرفت كل شيء ؟ ايعرف الجميع هذا ؟ » .

ـ لا . ليس الجميع . وينبغى الا يعرفه الجميع . لا احد يتحدث في هذا .

ـ كيف عرفت اذن ؟

ـ سمعت مصادفة . اين تذهب الآن ؟ انا احبك وكنت قادما اليك .

ـ انت انسان رائع يامستر استلى ! ! وكنت في دهشة كيف عرفا؟ وبما انى لم اشرب قهوتى بعد ، ولا اظنك شربت قهوتك. فلنذهب الى الكورسال لندخن واخبرك بكل شيء . . . ثم تخبرنى انت ايضا .

وكان المقهى قريبا . فجلسنا الى مائدة وجاءنا النادل بالقهوة ، واشعلت سيجارة ولكن مستر استلى لم يدخن . بل ركز نظراته على ، متاهبا للاصغاء . وبدات بقولى : « لن اذهب الى اى مكان، بل سأبقى هنا » . فاقرنى مستر استلى على ذلك بقوله : «كنت أعلم هذا » .

ولم يكن في نيتى عند الذهاب الى مستر استلى ان اتحدث اليه عن حبى لبولينا . بل كنت مصمما على الا احدثه في هذا الشان. ثم انه شخصا شديد الحياء . وكنت قد رايت ذات مرة ان لبولينا تاثيرا خارقا للعادة عليه ، ولكنه لم يذكر اسمها قط . ومع هذا كله ، فمنذ جلست وركز نظرته الثابتة على محياى احسست فجاة برغبة لا تفسير لها في اخباره بكل شيء ، اى بكل قصة حبى

بجميع دقائقها ، وتكلمت على مدى نصف ساعة بلا انقطاع ، واستمتعت بالكلام كثيراً جداً ، فتلك اول مرة اتحدث فيها عن حبى . وعندما لاحظت فى مواضع معينة من حديثى الحار انه يبدو محرجاً ، زادت حرارة كلامى عمداً . ولست نادماً الا على شىء واحد ، فلعلنى تكلمت اكثر مما ينبغى عن الفرنسى .

واصغى لى مستر استلى ، وهو جالس بلا حراك قبالتى من غير ان تند عنه كلمة او صوت ، مثبتاً نظراته على عينى . ولكن عندما اشرت الى الفرنسى كبحنى فجاة ، وسالنى بحدة اى حق لى فى التعرض لهذا الظرف الذى لا علاقة له بالموضوع . ومستر استلى من عادته دائماً ان يوجه اغرب الاسئلة . واجبته على الفور :

ـ لا حق لى فى هذا اطلاقاً .

ـ وهل فى وسعك ان تقول شيئاً محدداً عن الماركيز والآنسة بولينا ... فيما عدا الافتراضات ؟

ومرة اخرى دهشت للسؤال المحدد المباشر الصادر عن رجل له مثل حياء مستر استلى ، وقلت :

ـ ليس عندى شىء محدد ، لا شىء بالطبع .

ـ فى هذه الحالة انت مخطئة لا فى التحدث الىّ عن ذلك فحسب ، بل فى مجرد التفكير فيه شخصياً .

فقاطعته وانا اكتم دهشتى قائلاً : « وهو كذلك ! وهو كذلك ! اوافقك على رايك . ولكن ليس هذا لب موضوعنا الآن » ... وعندئذ حدثته بكل تفصيلات حادث الامس : حدثته بما طرا على بال بولينا فجاة ، وماكان من اقدامى على تلك المغامرة مع البارون ، وعن فصلى من عملى ، وعن تخاذل الجنرال الخارق للعادة ، وختمت كلامى ببيان مفصل عن زيارة دى جرى هذا الصباح ، عارضاً عليه كل ظلالها ، ثم اريته رقعة بولينا ، وسالته اخيراً : « ماذا تفهم من هذا ! لقد كنت قادماً لزيارتك لسماع رايك . اما انا فكان من الممكن ان اقتل الفرنسى ، ولعلى قاتله يوماً ما » .

ـ « وانا كذلك كنت خليقاً ان اقتله . اما فيما يتعلق بالآنسة بولينا فالناس ـ كما تعلم ـ يضطرون احياناً للدخول فى علاقات مع اشخاص معينين ، حتى وان كرهوهم ، اذا اقتضت الضرورة ذلك . وقد تكون هناك علاقات لا تدرى عنها شيئاً ، لتعلقها

بظروف خارجية . واعتقد انك يجب ان تهدأ ، الى حد ما بالطبع. أما بخصوص ما صنعته بالامس ، فهو غريب جدا . لا لانها ارادت التخلص منك وارسالك لمواجهة عصا البارون ـ ولسبب اجهله لم يستخدم البارون عصاه مع انها كانت فى يده . بل لان مثل هذه النزوة من جانب شابة بهذا الرقى امر غير لائق بالمرة . وهى بالطبع لم تكن لتخمن اطلاقا انك يمكن ان تقدم على تنفيذ امرها الهازل بحروفه ... »

وعندئذ صحت وانا انظر الى مستر استلى بثبات : « اسمع ! انى اشعر انك سمعت من قبل هذا الموضوع كله . وممن ؟ من الآنسة بولينا نفسها ! » فنظر الى مستر استلى بدهشة ، وقال مستعيدا ثباته السابق : « عيناك فيهما وميض ينبى عن الشك ! ولكن لا حق لك اطلاقا فى اظهار شكوكك . ولست اقرك على هذا وارفض بالكلية الرد على سؤالك » . فصحت وقد تاثرت بصورة غريبة ، وعجبت كيف طرات مثل هذه الفكرة على مخى : « لاباس! ليس هذا مهما ! ولست ابالى ! » فكيف ومتى واين كان من الممكن ان تختار بولينا مستر استلى موضعا لسرها . ولكن فى المدة الاخيرة غاب مستر استلى عن نظرى ، واما بولينا فكانت دائما لغزا بالنسبة لى ، حتى اننى شعرت فجاة وانا فى منتصف قصتى انه ليس عندى شىء معين ومحدد اقوله عن علاقاتى بها . بل على العكس كان كل شىء خياليا غريبا غامضا ، ولا يشبه شيئا مما على وجه الارض. وقلت له وانا اكاد الهث : «يبدو اننى فى متاهة. فهناك أشياء كثيرة لايمكننى ان ارتبها فى ذهنى فى الوقت الحاضر. ولكنك رجل طيب . والآن هناك شىء آخر ، لست اريد نصيحتك بشانه ، بل اريد رايك » .

وبعد برهة صمت استطردت قائلا :

ـ ما الذى جعل الجنرال يفزع فى رايك ؟ لماذا يضطربون جميعا هكذا ويقيمون الدنيا بسبب ما اقدمت عليه من معابثة حمقاء ؟ وبحيث راى دى جرى نفسه انه يجب ان يتدخل (وهو لايتدخل الا فى الحالات القصوى) حتى جاء لزيارتى ، وناشدنى وتوسل الى . دى جرى توسل الى انا ! ولاحظ اخيرا انه جاءنى فى التاسعة صباحا ، او قبلها مباشرة ، وكانت رقعة الآنسة بولينا فى يده من قبل ذلك . وانى لاتساءل متى كتبت ؟ امن الممكن ان

يكونوا ايقظوها خصيصا لهذا الغرض ؟ وفضلا عن نهوض هذا دليلا على ان الآنسة بولينا خاضعة لسلطانه ! فهي فعلا تسالني المعذرة! اقول فضلا عن هذا اسال ايضا ما اهمية ذلك كله لديها شخصيا ولماذا تهتم هي به ؟ ولماذا يخافون البارون ؟ وما علاقة هذا بزواج الجنرال من الآنسة بلانش دى كومنج ؟ يقولون انه يجب ان يكون حذرا بسبب هذا الظرف . ولكن حذره بهذه الصورة اكثر مما يجب . فما رايك في هذا ؟ انى ارى من نظراتك انك تعرف بشان هذه المسالة ايضا اكثر مما اعرف انا !

فابتسم مستر استلى وهز راسه وقال :

ـ يبدو على حقيقة انى اعرف عن هذا الموضوع اكثر مما تعرف. والمسالة كلها تدور حول الآنسة بلانش . وانا متاكد ان هذه هى الحقيقة .

فصحت بصبر نافد : « وماذا عن الآنسة بلانش؟» (وقدخامرنى الامل فجاة ان شيئا ما قد يتضح لى بشان الآنسة بولينا). فقال استلى :

ـ يبدو لى ان الآنسة بلانش شديدة التلهف حاليا على تجنب الالتقاء بالبارون والبارونة، ولاسيما اذاكان اللقاء محفوفا بالحرج. او بما هو اسوا : بمشاحنة ومشادة .

ـ اكمل ! اكمل !

ـ فالآنسة بلانش كانت في رولتنبرج العام قبل الماضى ، اثناء الموسم . وكنت انا ايضا هنا . ولم تكن الآنسة بلانش يومئذ تدعى الآنسة دى كومنج ، ولم تكن امها السيدة الارملة كومنج موجودة. او على الاقل لم يسمع احد عنها شيئا قط . ولم يكن هناك دى جرى ايضا. وقناعتى ليست بعدم وجود اى قرابة بينهم فحسب، بل انهم لم يتعارفوا الا منذ فترة وجيزة. وان دىجرى لم يصبح ماركيزا الا منذ وقت قصير ايضا . وثمة ظرف معين يجعلنى واثقا بهذا . بل واجازف بالقول انه لم يحمل اسم دى جرى الا منذ امد قصير. واعرف هاهنا رجلا التقى به من قبل تحت اسم آخر.

ـ ولكنه ذو معارف مهمون جدا . اليس كذلك ؟

ـ هذا ممكن جدا . بل من الممكن ان يكون هذا ايضا حال

الآنسة بلانش . ولكن في السنة قبل الماضية تلقت الآنسة بلانش – بناء على شكوى هذا البارون – دعوة من شرطة البلدة لمغادرتها ، وفعلا غادرتها !

– وكيف كان ذلك ؟

– لقد حضرت الى هنا اول مرة مع شخص ابطالي ؛ وهو امير ذو اسم ضخم : باربريني او ما الى ذلك . وهو رجل يتزين بعدد كبير من الخواتم والالماسات الحقيقية فعلا ، وكانا يخرجان معا في مركبة رائعة . وفي البداية اوتيت الآنسة بلانش حظا حسنا جدا في لعبة الثلاثين والاربعين ، ولكن الحظ اعرض عنها بعد ذلك . وعلى ما اذكر على الاقل خسرت مبلغا جسيما في امسية واحدة . ولكن الاسوا من هذا ان اميرها الايطالي اختفى ذات صباح ، لا احد يدري الى اين . اختفت الجياد والمركبة ايضا . واختفى باختصار كل شيء . وكانت فاتورة الفندق رهيبة ، ووجدت الآنسة زلما (وكانت قد غيرت اسمها فجاة من باربريني الى الآنسة زلما) في احط مهاوي اليأس ، وكانت صرخاتها وعويلها تسمع في جميع ارجاء الفندق ، ومزقت ثوبها من شدة الغيظ والكمد . وفي هذا الوقت كان هناك كونت بولندي معين (وجميع المسافرين البولنديين كونتات) في الفندق تركت الآنسة زلما التي مزقت ثوبها ، وتخمش وجهها باصابعها الجميلة المعطرة اثرا بالغا في قلبه ، فتفاهما ، ولما حان وقت الغداء كانت قد وجدت العزاء والسلوان. وفي تلك الليلة نفسها ظهرت متعلقة بذراعه في الكورسال. وجعلت الآنسة زلما تضحك بصوت عال جدا كالعادة ؛ واستردت تصرفاتها الثقة . وعلى الفور انضمت الى صفوف السيدات لاعبات الروليت اللواتي يدفعن اللاعبين باكتافهن بكل قوتهن ليفسحن لانفسهن مكانا . وبعد ذلك تصرفا ظريفا في نظر امثالهن . ولابد انك لاحظتهن ...

– نعم . نعم .

– انهن لسن اهلا للالتفات اليهن .. ووجودهن يضايق السادة الفضلاء ، ولاسيما من يقمن منهن بتغيير اوراق الالف فرنك على المائدة كل يوم .. وطبيعي انهن متى توقفن عن تغيير اوراق النقد بالفيشات يطلب اليهن مغادرة البلدة . ومضت الآنسة زلما في تغيير اوراق النقد ، ولكن حظها ازداد سوءا . وكثيرا ما يحالف الحظ

هؤلاء السيدات كما تعلم ، وضبطهن لانلسهن بسترعى الانظار ، ولكن هذه ليست نهاية قصتى . فذات يوم اختفى الكونت ايضا كما اختفى الامير من قبل ، وظهرت الانسة زلما على مائدة القمار تلك الليلة بمفردها . وهذه المرة لم يتقدم احد اليها ليعرض عليها ان تتابط ذراعه . وفى مدى يومين كانت قد خسرت كل شىء . وقامرت بآخر جنيه ذهبى تملكه فخسرته . ونظرت حولها ورات بجانبها البارون فورمرهلم وقد ركز عليها بصره نظرة استنكار نفاذة ولكن الانسة زلما لم تتنبه لاستنكاره ، ونظرت اليه بابتسامة ذات مغزى وطلبت اليه ان يضع لاجلها عشرة جنيهات ذهبية على اللون الاحمر . وعلى اثر ذلك تقدمت البارونة بشكوى ، فتلقت الانسة فى ذلك المساء نفسه دعوة لعدم الظهور فى الكورسال . وان تساءلت كيف تسنى لى ان اعرف كل هذه التفصيلات التافهة غير اللائقة قلت لك اننى عرفتها من مستر « فيدر » . وهو قريب لى ، هو الذى اوصل الانسة زلما فى مركبته ذلك المساء من رولتنبرج الى سبا . والآن اعلم ان الانسة بلانش تريد ان تكون زوجة الجنرال لتتحاشى بلاشك فى المستقبل مكان تلقى مثل هذه الدعوة التى تلقتها فى السنة قبل الماضية من شرطة الكورسال . وهى الآن لا تقامر ، ولعل السبب ان تحت يدها الآن من المال ما تقرضه للمقامرين بالربا ، وهذا أفيد لها طبعا . بل انى اشك ان الجنرال العاثر الحظ مدين لها شخصيا . ولعل دى جرى من مدينيها ايضا . ولعله ايضا شريك متواطىء معها . ولعلك توافقنى على انها لا تريد ــ حتى يتم الزفاف على الاقل ــ ان تستلفت انتباه البارون وزوجته البارونة باى شكل من الاشكال . وقصارى القول ان الفضيحة آخر شىء تريده فى وضعها الراهن . وانت مرتبط بالاسرة ، وقد يسبب ما اقدمت عليه فضيحة ، ولاسيما انها تظهر علنا كل يوم متأبطة ذراع الجنرال أو الانسة بولينا . افهمت الآن كل شىء ؟

فصحت : « كلا ! لم افهم ! » وانا ادق المائدة بعنف حتى ان النادل اسرع نحوى فى فزع . واردفت ذلك بقولى وانا اكاد اخرج عن طورى من شدة الغضب : « والآن خبرنى يامستر استلى . ما دمت تعرف هذه القصة كلها من قبل ، وبالتالى تعرف جيدا جدا من هى هذه الانسة بلانش دى كومنج ، لماذا اذن لم تنبهنى

او نبه الى هذا الأمر الجنرال نفســـه ، وأخيرا وليس آخرا ، الآنســة بولينا ، التى شوهدت فى الكورسال متأبطة ذراع الآنســة بلانش ؟ كيف صبرت على هذا ؟

فأجابنى مستر استلى بهدوء : « لم تكن هنــاك جـدوى من تنبيهك ، لأنه لم يكن بوسعك ان تصنع شيئا . ثم ماذا كان هناك ليقال ؟ ان الجنرال قد يكون أعرف بالآنســة بلانش منى ، ومع هذا يظهر فى صحبتها هو والآنســة بولينا . ان الجنرال رجل عاثر الحظ منكود . لقد رأيت بالأمس الآنســة بلانش تركض على جواد بديع وفى صحبتها المسيو دى جرى والأمير الروسى الصغير ، وكان الجنرال يركض وراءهم فوق حصان كستنائى . وفى صباح اليوم التالى رأيته يشكو — رغم مقعده الممتاز — من ألم فى ســاقيه .
وخطر لى على الفور انه نفس ضائعة ، ولكن هذا كله بالطبع ليس من شأنى ، وأنا لم أحظ بشرف التعرف على الآنســة بولينا الا من فترة وجيزة ولكنى (وهنا كح مستر استلى نفســه) سبق ان قلت لك اننى لا أقر لك بالحق فى توجيه أسئلة معينــة ، برغم مودتى الصادقة لك » .

فقلت ، وأنا انهض : « يكفى هذا . فقد اتضح لى الآن تماما ان الآنســة بولينا أيضــا تعرف كل شىء عن الآنســة بلانش ، ولكنها لا تطيق فراق ذلك الفرنسى ، ولذا تتحامل على نفسهـا كى تخرج للنزهة مع الآنســة بلانش . وصدقنى انه ما من سبب آخر كان من الممكن ان يحملها على الخروج مع الآنســة بلانش ، وأن تبعث الى برسالة كى أدع البارون وشأنه . أجل هـــذا هو أرجح جميع الاعتبارات . ولكنها — بعد كل شىء هى التى حرضتنى على مخاطبة البارون . اللعنة ! ما الذى يمكن أن يفهمه المرء من هذا ؟ »

— لقد نسيت فى المقام الأول أن هـــذه الآنســة بلانش خطيبة الجنرال ، ونســيت فى المقام الثانى أن الآنســة بولينا ابنــة زوجة الجنرال لها أخ وأخت صغيران ، هما طفلا الجنرال اللذين يهملهما هذا الرجل المجنون أيما اهمال ، وأعتقد فضلا من هذا انه سرق ميراثهما .

— نعم . نعم . هذه هى المسألة ! فتركها الطفلين معناه التخلى عنهما بالكلية ، أما بالبقاء هنا فهى مستطيعة أن ترعى مصالحهما

ولعلها تستنقذ بذلك ايضا بقية من بقايا ثرائهما . نعم . هـــذا صحيح تماما ! ومع ذلك ! ومع ذلك أ اوه ! لقد فهمت الآن لماذا يبدون جميعا اهتماما بالبابولينكا !

ـ بمن ؟

ـ بتلك العجوز القيمة بموسكو وترفض ان تموت ، مع انهم ينتظرون يوميا برقية نعاها .

ـ طبعا . كل افكارهم الآن مركزة عليها . وكل شيء يتوقف على وصيتها . فان اتضح ان الجنرال هو وريثها تزوج . وتطلق بذلك يد الآنسة بولينا ايضا ، اما دى جرى ...

ـ اما دى جرى ..؟

ـ فيحصل على امواله . وهذا سبب بقائه هنا .

ـ اتظن هذا ..؟ ان ذلك كل ما يدعوه البقاء هنا ؟

فقال مستر استلى ، مطبقا شفتيه فى حزم : « لست اعرف لذلك سببا آخر » . وصحت انا بغضب : « اما انا فاعرف ! هو ايضا ينتظر الوصية ، لان بولينا ستتلقى عندئذ بائنة ، ومتى حصلت على المال القت بنفسها بين ذراعيه . فجميع النساء سواء . واشدهن كبرياء لاينكشفن الا من اماء أو جوار خاضعات من اشد الانواع شيوعا فى العالم ! وبولينا لا تقدر الا على الحب الجارف ، ولا شيء غير ذلك . وهذا هو رايى فيها ! راقبها ، وخصوصا حين تكون بمفردها مستغرقة فى التفكير . انها تبدو عندئذ مقضيا عليها ، ضحية لعنة ! وهى كفء لاى انتهاك وملطفة منتهية ... انها... انها... ولكن من الذى يناديني؟ (وصمت فجأة) من الذى يصرخ مناديا باسمى ؟ لقد سمعت احدا يصرخ بالروسية : اليكسى ايفانتش ! انه صوت امراة .. اسمع ! »

وكنا قد اقتربنا من الفندق ، وتركنا المقهى خلفنا منذ وقت طويل ، من غير أن نلاحظ ذلك وقال مستراستلى : « لقد سمعت امراة تصرخ ، ولكنى لا اعرف من التى تنادى ، فهى تصرخ بالروسية . انى اتبين الآن ان الصيحات صادرة من هناك . من تلك المراة الجالسة فى المقعد الكبير التى حملها عدد من الخدم الى شرفة المدخل .. ومن ورائها يحملون الحقائب . لابد اذن ان يكون القطار قد وصل ! »

ـ ولكن لماذا عصاها تنادينى ! هاهى تصيح من جديد . انظر ! انها تلوح لنا بيدها .

ـ اراها فعلا تلوح بيدها .

وجاء صوتها من شرفة المدخل صائحا :

ـ اليكسى ايفانتش ! اليكسى ايفانتش ! يا للسماء ! بالك من اخرق !

وجرينا نحو المدخل ، ولما صرنا على ممر العربات كادت تصعقنى الدهشة ، وكدت اعجز من الحركة !

الفصل التاسع

وكانت المرأة على المدخل الواسع للفندق ، الذى رفعها اليه فى مقعدها الكبير الوثير خادمتها وحجابها وحشد من خدم الفندق الذين احدقوا بها ، وعلى راسهم كبير السقاة بنفسه ، كصدى للضجة التى اثارها وصول هذه الشخصية الكبيرة مع خدمها وذلك العدد الهائل من الحقائب ـ كانت هى بعينها الجدة ! نعم ، الجدة بلحمها ودمها ، التربة ، لرهيبة ، ذات الخمس والسبعين سنة ، « انتونيدا فاسيليفنا ترا . يفيشيفا » ، صاحبة الاراضى الواسعة، والسيدة الرفيعة القدر فى موسكو ، التى تبودلت بشأنها البرقيات . هى بعينها التى كانت لتحتضر ولكنها لم تمت ، وهاهى تظهر امامنا فجأة بشخصها ، كصاعقة انقضت من السماء ! لقد فقدت القدرة على استخدام ساقيها ولذا جىء بها الى هنا فى كرسى (وهكذا كانت تحمل الى كل مكان فى السنوات الخمس الاخيرة) . وهى كالعادة آمرة ، مرحة ، لطيفة ، نوارة الحيوية ، تجلس منتصبة وتصيح بصوت عال آمر ، موبخة كل انسان ، تماما على نحو ما رأيتها من قبل مرتين او ثلاثا منذ عينت مؤدبا خاصا لدى الجنرال . فلا عجب ان وقفت مذهولا من فرط الدهشة قبالتها ، وكانت قد لمحتنى بعينى الصقر اللتين فى وجهها عن بعد ، وهى محمولة فى كرسيها الوثير وعرفتنى ونادتنى باسمى كاملا على نحو ما حفظته منذ المقابلة الاولى . وقلت لنفسى : « وها هى المرأة التى توقعوا ان يروها مسجاة فى تابوتها ثم دفينة فى التراب ، تاركة وراءها ميراثها الضخم ! انها خليقة ان تعيش بعدنا جميعا . ستعيش بعد كل من فى الفندق ! ولكن ماذا سيحدث الآن بحق السماء للاسرة؟ وماذا سيصنع الجنرال؟ انها ستقلب الآن الفندق راسا على عقب! »

وقالت الجدة بصوتها الصارخ المجلجل : « ماذا تعنى بوقوفك هكذا وتحديقك فى ياسيدى؟ هل نسيت كيف تنحنى وكيف ترحب بسيدة ؟ هل اصابك الكبر؟ ام لعلك لم تعرفنى ؟ » والتفتت الى كبير

سقاتها وهو شيخ أشيب الشعر يلبس الفراك ورباط الرقبة الأبيض ، وله رأس أصلع وردى لامع ، صحبها فى رحلتها) أتسمع يابوتابتش ؟ انه لم يعرفنى ! لقد دفنونى ! وارسلوا البرقية تلو البرقية : اماتت أم لم تمت بعد ؟ أنا أعرف كل شىء . اعرف كل شىء ! وهاأنذى كما ترى . حية جدا ! »

فقلت بمرح ، مستعيدا حضور ذهنى : « على رسلك يا انتوتيدا فاسيليفنا ! لماذا اتمنى لك المرض ؟ كل ما هنالك انى دهشت ... وكيف لا ، وحضورك غير متوقع اطلاقا ... »

ـ وما الغريب المدهش فى هذا ؟ كل ماهنالك انى ركبت القطار وجئت . وكانت عربة القطار مريحة جدا ، بدون ارتجاجات . أكنت تتمشى ؟

ـ أجل ، كنت فى الكورسال .

فنظرت حولها وقالت : « أحب هـذا المكان . فهو دافىء ، والأشجار بديعة . هذا ما أحبه بالضبط ! هل قومنا موجودون بالفندق ؟ هل الجنرال بالداخل ؟

ـ نعم . انهم بالتأكيد فى الفندق جميعا ، فى هذه الساعة .

ـ هل ينظمون أوقاتهم هنا بالساعة ويعيشون بالرسميات ؟ بحكم الأناقة والموضة ؟ ويحتفظون هنا بمركبة كما سمعت . على طريقة السادة الروس ! ويصرف كل نقوده ، ولذا لابد ان يسافر للخارج ! وهل بروسكوفيا معه أيضا ؟

ـ بولينا اليكسندروفنا هنا أيضا .

ـ والفرنسى ؟ حسنا ! سأرى بعد قليل كل شىء بنفسى . ارشدنى الى الطريق ، وخذنى مباشرة الى الجنرال . وكيف تحب أنت الاقامة هنا ؟

ـ يعنى ...

ـ وأنت يابوتابتش قل لهذا النادل الاخرق ان يعد لى جناحا ملائما ، جميلا ، ليس عاليا جدا ، وخذ كل الأمتعة الى هناك . لماذا يتدافعون جميعا ليحملوا مقعدى ؟ ماذا جرى لهم ؟ العبيد ! ومن هذا الذى معك يا اليكسى ؟

ـ انه مستر استلى .

ـ لم أسمع به قط . من عساه يكون ؟

ـ انجليزى . صديق لى . ويعرف الجنرال .

ـ انجليزى : هذا هو السبب فى انه يحملق فى وهو يكز على

اسنانه . انا احب الانجليز . هيا . خذني الى فوق ، الى جناحهم مباشرة ! اين يقيمون ؟

وحملت الجدة فصعدوا بها سلم الفندق العريض ، وصعدت انا امامها ، فكان الموكب لافتا للانظار ، وكان كل من يقابلنا يقف ويحدق في دهشة . ويعد فندقنا افضل فنادق البلدة واغلاها واكثرها ارستقراطية . وعلى سلالمه وفي ممراته يلتقي المرء دواما بسيدات راقيات وانجليز مهيبين . واستفسر الكثيرون عن الموكب من رئيس السقاة ، الذى كان في مثل دهشتهم . وبالطبع قال لجميع من استوضحوه انها سيدة اجنبية مهمة ، روسية ، كونتس وسيدة عظيمة . وانها نزلت في الجناح الذى كانت تشغله في الاسبوع السابق الفراندوقة ن . والواقع ان مظهر الجدة الآمر المتكبر وهي محمولة في مقعدها كان له وقع هائل . وكانت تقيس كل قادم جديد يقترب منها بنظراتها وتسائلني بصوت عال من هو؟

والجدة تنحدر من سلالة قوية ، ومع انها لم تغادر مقعدها قط الا ان كل من رآها شعر انها لابد ان تكون مفرطة الطول ، مظهرها منتصب مستقيم ، ولا تتكىء على الوسائد اطلاقا . ورأسها الاشيب الضخم عال ، ومحياها بملامحه الخشنة البارزة لافت للانظار . ونظراتها تجمع بين الغطرسة والتحدى . وكل من يراها يتبين ان نظراتها وحركاتها طبيعية جدا . وبرغم سنواتها الخمس والسبعين كانت بشرتها ناضرة . ولم تزل محتفظة بمعظم اسنانها . وترتدى ثوبا اسود من الحرير وقلنسوة بيضاء . وهمس لي مستر استلي وهو يصعد السلم بجوارى : « انى اراها مثيرة للاهتمام وطريفة بصورة خارقة » . وجال بفكرى في الوقت نفسه : « انها تعرف كل شيء عن البرقيات . وتعرف بأمر دى جرى ايضا . ولكن يبدو انها لم تعرف بعد بأمر الآنسة بلانش » . وافضيت بأفكارى هذه الى مستر استلي .

وما ان تغلبت — انا الخاطىء — على دهشتي الاولى ، حتى ابتهجت لفكرة الصاعقة التي ستنقض على الجنرال ، فامتعني هذا ، ومشيت في المقدم في غاية الانتعاش . وكانت حجرات الاسرة في الطابق الثالث ، ولم اعلنهم بحضور الجدة ، بل ولم اطرق الباب ، بل دفعته ففتحته على مصراعيه ، ودخلت الجدة محمولة دخول الظافرين . وكانوا مجتمعين كلهم في حجرة جلوس الجنرال ، كما لو كان ذلك بترتيب سابق . وكانت الساعة الثانية عشرة ، ويبدو

انهم كانوا يناقشون ترتيبات رحلة ما . فالبعض سيركبون العربة، والبعض سيمتطون ظهور الجياد . ولن يترك احد منهم في الفندق. وقد دعى بعض الاصدقاء ، فضلا عن الاسرة كلها لهذه الرحلة . وعلاوة على الجنرال ، وبولينا ، والطفلين وخادماتهما المربيات ، كان في الحجرة ايضا : دى جرى ، والآنسة بلانش في ثياب الركوب ، وامها السيدة الارملة دى كومنج ، والامير الروسى الصغير، ومسافر المانى لم اره هناك من قبل . وهبط الحمالون بالمقعد الذى تحتله الجدة في منتصف الحجرة بالضبط ، على مسافة ثلاث خطوات من الجنرال . ولن انسى هذه اللحظة ماحييت ! وكان الجنرال يقول شيئا ما قبل دخولنا مباشرة ؛ وكان دى جرى يصححه له . وينبغى ان نذكر هنا ان الآنسة بلانش ودى جرى - لسبب او لآخر - كانا مهتمين جدا بالامير الروسى الصغير في اليومين او الثلاثة الايام الاخيرة - تحت ذقن الجنرال المسكين - وكانت اللهجة السائدة مرحة وان كانت متكلفة بعض الشيء . وما ان وقع نظر الجنرال على الجدة حتى توقف عن الكلام في منتصف الجملة ، فاغر الفم ، وكأنه تحول الى حجر . وجعل ينظر اليها بعينين جاحظتين كالمسحور المشلول تحت وقع نظراتها المميتة . وكانت الجدة تحدق فيه وهى صامتة بلا حراك . ولكن بالها من نظرة منتصرة متحدية ساخرة ! وظل كل منهما يرنو الى الآخر عشر ثوان كاملة ، في حين غرق من حولهما في صمت عميق . وصعق دى جرى في بداية الامر . ولكن سرعان ما ظهر على وجهه القلق البالغ ، ورفعت الآنسة بلانش حاجبيها وحملقت بضراوة في الجدة. اما الامير الروسى الصغير والالمانى فراقبا المشهد كله في حيرة . وشوهدت الدهشة الشديدة والارتباك في نظرة بولينا، وشحب وجهها فجأة حتى صار في بياض الورق ، ولكن الدم اندفع بسرعة الى وجنتيها بعد دقيقة واحدة ، وتضرج وجهها بشدة . اجل ، كان وصولها نكبة للجميع . ورحت انقل نظراتى من الجدة الى كل واحد منهم ثم اردها الى الجدة ثانية . ووقف مستر استلى بمعزل ، هادئا كالعادة .

.. واخيرا انفجرت الجدة هاتكة حجاب الصمت : « هاانذى ! جئت بدلا من البرقية ! ولم تكونوا تتوقعون حضورى . اليس كذلك؟» فغمغم الجنرال المنكود : « انتونيدا فاسيليفنا ... عمتى ... ولكن كيف ؟ » ... واعتقد ان الجدة لو كانت قد لبثت بضع ثوان اخرى

قبل ان نتكلم لاصيب بفالج .

ــ « اتقول كيف ؛ ركبت القطار وجئت . ولماذا جعلت القطارات اذن ؟ وانتم جميعا كنتم تحسبون انى فارقت الحياة وتركت لكم كل شيء ! انا اعرف كل شيء عن البرقيات التى ارسلتموها من هنا . ولابد انك انفقت عليها مبلغا كبيرا . فالبرقيات هنا غالية التكاليف . لقد جمعت حقائبى وشددت عزمى ، وهاندى ! اهذا هو الفرنسى ؟ المسيو دى‌جرى . اليس كذلك ؟» . فقال دى‌جرى بالفرنسية : « نعم ياسيدتى . وانا سعيد جدا ، صدقينى ، نصحتك ! هذه معجزة ! معجزة ان نراك هنا . مفاجاة جميلة!» فقالت :

ــ جميلة بالطبع ! انا اعرفك ايها الدجال . ولا اصدقك ولو بهذا القدر (وارته طرف خنصرها) ومن هذه ؟ (واشارت الى الآنسة بلانش ، وقد ترك منظرها وهى فى ثياب الركوب اثرا فى نفسها) انت من اهل هذه الاصقاع ، ام ماذا ؟..

فقلت لها : « هذه هى الآنسة بلانش دى كومنج ، وهذه امها السيدة دى كومنج ، وهما مقيمتان بالفندق » .

قالت الجدة بحدة : « هل الابنة متزوجة ؟ » فاجبتها بصوت تعمدت ان يكون خفيضا : « الآنسة دى كومنج غير متزوجة » . فسألتنى : « مرحة ؟ ظريفة ؟ » ولم افهم السؤال على الفور ، فعادت تقول : « غير مضجرة ؟ انفهم الروسية ؟ اما دى جرى فقد التقط اللغة وهو فى موسكو» . فبينت لها ان الآنسة دى‌كومنج لم تذهب قط الى روسيا» فخاطبتها الجدة على غير توقع بالفرنسية: « بونجور! » . فردت عليها الآنسة بلانش التحية بالفرنسية وهى تنحنى برشاقة ، لكنها اظهرت على محياها تحت ستار التواضع والتهذيب المتناهى مبلغ دهشتها من هذه الاسئلة والتصرفات ، فقالت الجدة : « اوهو ! انها تسبل جفنيها ، وتحسن التظاهر بأنها السيدة الراقية ! لقد عرفت كنهك فى الحال : ممثلة ! » ثم قالت فجاة متلفتة الى الجنرال : « لقد نزلت بحجرات فى الطابق الادنى . وساكون جارتك . فهل انت مسرور ام لا ؟ » . فقال الجنرال بلهفة : « اوه ياعمتى ! صدقينى انى بكل اخلاص اشعر بكل السرور والرضا ... » وكان قد افاق شيئا ما من الصدمة ، ولما كان ــ عند الضرورة ــ يستطيع ان يكون فصيحا ووقورا ، لذا انطلق يقول : « لقد ذعرنا وانزعجنا للغاية بأنباء توعكك ،

وتلقينا برقيات تبعث على اليأس . وفجأة ، وبغير مقدمات ... » فقاطعته الجدة على الفور : « هذا كذب! » فقال الجنرال : « ولكن كيف امكنك ان تجازف بمثل هذا السفر ؟ » مقاطعا اياها بدوره ، ورافعا صوته كأنه لم يسمعها « ففي مثل سنك وحالتك الصحية ... وعدم توقعنا ، لا عجب أن تستولي علينا الدهشة . ولكنى مسرور جدا وسنبذل جميعا (وهنا ابتسم ابتسامة تدل على الحبور) قصارى جهدنا كي نجعل زيارتك ابهج ما يمكن » فقالت : « كفى. كل هذا هراء ! انك تهذى كما هي العادة . سأتدبر امرى على خير وجه . ولكن لا اعتراض لى على صحبتك . فلم اكن يوما ممن يحملون الغل لاحد .. ثم ما الذى يدعو للدهشة ؟ لا شيء ابسط من هذا . فما الذى يدهشهم جميعا ؟ اوه ! براسكوفيا ، اهذه انت ؟ كيف احوالك هنا ؟ » فقالت بولينا متوجهة نحوها : « كيف انت ياجدة ؟ متى بدات السفر ؟ » فاجابتها الجدة قائلة : « هذا هو السؤال الوحيد الذكى الذى سمعته حتى الآن ! فقد سئمت كل هذه الامارات الدالة على الدهشة ! لقد جرت الامور هكذا : ظللت راقدة فى الفراش مدة طويلة ، وظل الاطباء يعالجوننى الى أن طردتهم واستدعيت فندلفت كنيسة القديس نقولا ، وكان قد ابرا امراة من هذا المرض بعينه بوصفه يعرفها . وافادنى وصفته ، ففي اليوم الثالث بدات اعرق ، ثم نهضت من الفراش. وعندئذ تجمع اطبائى الالمان من حولى ، ولبسوا نظاراتهم وراحوا يقولون لى : ان انت سافرت الآن للخارج واستشفيت بالمياه المعدنية شفيت تماما من الامساك . وعندئذ قلت لنفسي : ولم لا ؟ وتصايح بعضهم بان الرحلة سوف تقتلنى ، ولكنى لم الق اليهم بالا ، وقضيت يوما فى حزم حقائبى ، وفى يوم الجمعة الماضى اخذت فتاة من خدمى ، وبوتابيتش ، وفيدور حاجبى الخاص – ولكنى ابعدته بعد ان وصلنا الى برلين ، لانى وجدته بلا فائدة ، واستطيع الوصول الى هنا وحدى . وحجزت ديوانا خاصا بسكة الحديد ، وفى جميع المحطات حمالون يحملونك ان شئت بعشرين كوبكا . ولكن هذه الحجرات التى حجزتموها فاخرة جدا ، فمن اين جاءتك النقود ياسيدى الطيب ؟ لان جميع املاكك مرهونة ، مقابل دينك لهذا الفرنسي وحده! فانا – كما ترى – اعرف كل شيء . كل شيء! »

وشرع الجنرال يقول فى ارتباك : « عمتى .. انا .. انا مندهش ياعمتى .. واعتقد اننى قادر أن ارعى شئونى بنفسي ، بدون اشراف

من احد . لم انا اعيش فى حدود قدرتى ، ونحن ... » فقاطعته قائلة : « فى حدود قدرتك حقا ! لابد اذن انك سرقت من طفليك آخر درهم فى ميراثهما ايها الوصى ! » فقال الجنرال باستنكار : « بعد مثل هذه الكلمات .. لم اعد ادرى ... » فقاطعته مرة اخرى : « لم تعد تدرى .. هذا هو الواقع . ولعلك لا تفارق ابدا مائدة القمار . هل قامرت وخسرت كل شىء ! » فصعق الجنرال ، وشهق وكاد يختنق من شدة الهياج الداخلى وهو يقول :

ـ فى الروليت ؟ انا ! رجل فى مثل رفعة مكانتى ! فكرى فيما تقولين ياعمتى . لابد انك لم تزالى مريضة !

ـ كف عن هذا الهراء الآن ! فلست احسبهم يستطيعون انتزاعك من الروليت . ولا اصدق كلمة مما تقول . وسألقى نظرة على هذه الروليت اليوم . وانت يابراسكوفيا اذكرى المشاهد والمنازه وسوف يتولى اليكسى ايفانتش اصطحابى اليها . وانت يابوتابتش دون جميع الاماكن التى يجب ان تذهب اليها (والتفتت ثانية الى بولا وسألتها باقتضاب) ما هى هذه الاماكن ؟

ـ هناك اطلال قلعة قديمة غير بعيدة من هنا . ثم هناك شلانجنبرج!

ـ وما هو شلانجنبرج ؟ ايكة او روضة ام ماذا ؟

ـ ليست روضة ، بل جبلا ، له قمة وللقمة سور . والمنظر من هناك بديع .

ـ وهل يستطيعون حمل مقعدى والصعود به الى تلك القمة ؟ اتظنين ذلك ؟

فاجبتها انا : « يمكن العثور على حمالين » . وفى هذه اللحظة دخلت المربية فيدوزيا لتحية الجدة والترحيب بها ، ومعها طفلا الجنرال . فصاحت الجدة : « لا قبلات ! انا اكره تقبيل الاطفال . فكل الاطفال انوفهم سائلة ! وانت يافيدوزيا ، كيف تجدين الاحوال هنا ؟» فاجابتها : « الجو هنا دائما جميل يا انتونيدا فاسيليفنا . ولكن قيل انك كنت مريضة ياسيدتى ! وقد قلقنا عليك كثيرا » . فقالت الجدة : « اعرف ... انك طيبة النفس » ثم التفتت الى بولينا وسألتها : « ومن كل هؤلاء الناس ؟ اكلهم ضيوف ؟ ومن هذا الرجل القصير الغريب المنظر ذو النظارة ؟ » فهمست بولينا فى اذنها : « الامير نيلسكى ياجدة ! » فصاحت الجدة : « اوه ! روسى ! وانا التى ظننت انه لن يفهم ! ولعله لم يسمع ! اما مستر استلى فقد رايته . آه . ها هو (والتفتت اليه) كيف حالك ؟»

فالحنى لها مستر استلى فى صمت . فقالت : « ماذا عندك لتقوله لى ! قل شيئا .. ترجمى له يابولينا ! » فقامت بولينا بالترجمة وقال مستر استلى بوقار ، ولكن بطلاقة : « انا مسرور جدا برؤيتك ، وبانك فى صحة طيبة » وترجمت كلماته الى الجدة التى بدت مسرورة بها ، وعلقت قائلة : « الانجليز دائما بارعون فى العثور على الرد اللائق . ولقد كنت دائما استلطف الانجليز ، ولا يمكن مقارنة الفرنسيين بهم (والتفتت الى مستر استلى مرة اخرى) . تعال لزيارتى. وساحاول الاأكون مزعجة . قولى له ما قلته وابلغيه انى اعيش فى الطابق الادنى » . (واشارت لمستر استلى باصبعها الى اسفل) وسر مستر استلى بهذه الدعوة ، وشملت الجدة بولينا بنظرة نافذة وراضية وقالت بحرارة :

ـ كان من الممكن ان اشغف بك جدا يابراسكوفيا . فانت فتاة لطيفة ، وافضل من فى المجموعة كلها . ولكن يا لحدة مزاجك ! انا نفسى حلاة المزاج . استديرى للخلف... اهذا شعر مستعار؟

ـ كلا ياجدة . بل شعرى ..

ـ عظيم . انا لا احب الموضة السخيفة السائدة الآن . انت مليحة جدا . ولو كنت شابا لوقعت فى غرامك . لماذا لا تتزوجين ؟ ولكن الوقت حان للذهاب . ولابد ان استنشق شيئا من الهواء بعد كل هذا الوقت حبيسة فى القطار . (والتفتت الى الجنرال) وماذا عنك انت ؟ الم تزل غاضبا ؟

فقال الجنرال مبتهجا بسرعة : « كانما يمكننى ان اغضب منك .. فانا افهم انه فى مثل سنك ... » وهمس دى جرى فى اذنى بالفرنسية : « هذه العجوز ارتدت الى الطفولة » . وقالت الجدة :

ـ اريد ان ارى كل ما يستحق المشاهدة هنا . استطيع ان تستغنى من اليكسى ؟

ـ كلما شئت . وانا وبولينا والمسيو دى جرى يسرنا جميعا ان نصحبك .

وقال دى جرى بابتسامة خلابة بالفرنسية : « سيكون ذلك متعة اى متعة ! » فقالت الجدة : « انت ومتعتك ! كم تضحكنى ياسيدى ! لن اعطيك نقودا ! » والتفتت الى الجنرال فجاة وقالت : « سأذهب الى حجرتى لاراها ، ثم نخرج لمشاهدة المزارات . والآن هيا لرفعونى ! »

ورفعوا الجدة مرة أخرى ، ومشت السرية كلها في موكب وراء المقعد المرفوع ، هابطين السلم . وكان الجنرال يمشي كالمذهول تلقى ضربة من هراوة على رأسه . أما دي جري فكان غارقا في التفكير . وترددت الآنسة بلانش كمن تريد البقاء حيث هي ، ثم غيرت رأيها وتبعت الموكب ، ومن ورائها الأمير الروسي ، ولم يبق في جناح الجنرال سوى الألماني والسيدة الأرملة كومنج .

الفصل العاشر

القاعدة المرعية في جميع منتجعات الصحة بشتى انحاء القارة الاوربية ، ان مديري الفنادق ورؤساء السقاة بها لايراعون في توزيع الحجرات احتياجات ورغبات نزلائهم بقدر ما يستندون في ذلك الى تقديرهم لقيمتهم ، ولا مفر من الاقرار بانهم قلما يخطئون في هذا التقدير . ولسبب مجهول كان الجناح الذي خصص للجدة من الفخامة بمكان . فهو عبارة عن اربع حجرات فاخرة الاثاث لها حمام خاص ، واستعدادات للخدم ، وحجرة مستقلة لخادمتها الخاصة ، وما الى ذلك . وفي هذا الجناح اقامت بالفعل غراندوفة حتى الاسبوع الماضي . وقيل هذا طبعا للقادمين الجدد توطئة لرفع السعر . وقد حملت الجدة فوق مقعدها فطافت بالحجرات ، وفحصتها بنظرات نقادة . وصحبها كبير السقاة في هذه الجولة بكل احترام ، وهو رجل بدا يتقدم في السن ، ودب اليه الصلع . ولست ادري ماذا عساهم ظنوا الجدة . ولكن مما لاشك فيه انهم حسبوها شخصية بالغة الاهمية . ودونوها في سجل الفندق باسمها مسبوقا بلقب اميرة ، مع انها لم تحمل قط هذا اللقب . ولعل السبب انها تسافر مصحوبة بخدمها الخصوصيين ، وفي ديوان خاص بالقطار ، ومعها عدد ضخم من الحقائب والصناديق . وقد ساعد ايضا على هذا صوتها الاجش ، والاسئلة الغريبة التي توجهها ، بلا خجل او ارتباك ، وبلهجة من لا تقبل معارضة ، بالاضافة الى قامتها المنتصبة وهي في مقعدها . وغطرستها وتعاليها ، فلا عجب ارتفعت في الجميع الرهبة لمجموع شخصيتها . واثناء جولتها بين الحجرات كانت تأمر فجأة بايقاف كرسيها ، وتشير الى قطعة اثاث معينة وتوجه احرج الاسئلة الى كبير السقاة المتبسم في احترام ، ولكن في شيء من العصبية ايضا . وكانت توجه اسئلتها بالفرنسية التي تتكلمها برداءة شديدة ، بحيث كنت عادة اضطر للقيام بدور المترجم . وكانت معظم اجابات كبير السقاة

لا تروقها وتعدها غير مرضية . ومعظم اسئلتها كانت تبدو قليلة الصلة بالموضوع . فقد أوقفت مثلا كرسيها فجاة امام صورة ـ وهى نسخة ضعيفة من لوحة اسطورية مشهورة وسألته : «صورة من هذه ؟» فاجابها رئيس السقاة بانها قد تكون لاحدى الكونتسات. فقالت : « اتريد ان تقول انك لا تدرى ؟ تعيش هنا ولا تدرى ولماذا هى هنا ؟ ولماذا عيناها مائلتان ؟ » وارتج على كبير السقاة فلم يحر جوابا ، فصاحت بالروسية : « يا له من قدم غبى ! »

ومضوا بها محمولة وتكررت القصة امام تمثال صغير من الخزف. وبعد ان رمقته طويلا أمرت بابعاده ، من غير سبب معروف لذلك. واخيرا انهالت على كبير السقاة بالاسئلة عن اثمان سجاجيد حجرة النوم ، وعن مصدرها . ووعدها رئيس السقاة أن يتقصى ذلك . فصاحت : « بلهاء . معتوهون ! » وانصرفت لتامل الفراش ، ثم قالت : « يا للكلة الكبيرة ! اسحب الستائر ! » وسحبت الستارة ، ولكنها صاحت : « اكثر . اكثر ! افتحها من آخرها . ارفع الوسائد ، والغطاء » وراحت تفحص كل شىء فى الفراش بعناية ودقة . وعندئذ صاحت : « انا مسرورة لعدم وجود بق ! اخلعوا كل الملاءات ، وضعوا ملاءاتى ووسائدى . ولكن الحجم كبير جدا . ثم ماذا يمكن أن تصنع عجوز مثلى بمثل هذا الجناح ؟ ساضجر وحدى . لابد أن تأتى لزيارتى كثيرا يا اليكسى ايفانتش ، عندما تنتهى من التدريس للطفلين » . فقلت لها : « اننى منذ الامس لا اعمل لدى الجنرال . واعيش فى الفندق مستقلا بنفسى » . فسالتنى : « وكيف كان ذلك ؟ » .

ـ منذ بضعة ايام حضر الى هنا بارون عالى القدر هو وزوجته البارونة من برلين . وبالامس عندما كنت اتمشى متنزها خاطبتهما بالالمانية : غير مراع النطق البرلينى .

ـ وبعد ؟ وماذا فى ذلك ؟

ـ استاء من ذلك وشكا الى الجنرال ، وبالامس فصلنى الجنرال من العمل لديه .

ـ لماذا ؟ هل كنت فظا مع ذلك البارون ؟ وليس بلدى بال لو كنت فظا معه !

ـ كلا . بالعكس ! بل كان البارون الذى هز عصاه فى وجهى . فصاحت بالجنرال : « وهل سمحت ان يعامل معلم طفليك على هذا النحو ؟ ما أخيبك ! ثم طردته ايضا لهذا السبب ! انتم جميعا

بلهاء ! كلكم ! » فقال الجنرال بمسحة من التعالي : « لا تزعجي نفسك ياعمتي ! ففي وسعي أن ارعى شئوني . والبكسي ايفانتش لم تعدم لك صور صادقة لما حدث». فقالت لي : « وانت تقبلت هذا ؟ » فاجبتها : « لقد اردت ان اتحدى البارون للمبارزة ، ولكن الجنرال اعترض » . فقالت للجنرال : « ولماذا اعترضت ؟» والتفتت فجأة الى كبير السقاة وقالت : « انصرف انت ايها الرجل الطيب ! وبمكنك ان تاتي عندما تستدعى ، ولا حاجة بك للوقوف هنا فاغر الفم . انا لا اطيق هذا المحيا النورمبرجي ! » فانحنى الرجل وانصرف من غير ان يفهم بالطبع مرادها . واجاب الجنرال بابتسامة صفراء : « لايمكننا ياعمتي أن نشتبك هنا في مبارزات». فقالت : « ولم لا ؟ جميع الرجال ديكة قتال. فلماذا لاتبارزان؟ انتم قطيع من الاوز! ولا تعرفون كيف تحفظون كرامة وطنكم . والآن ارفعوني ! بابوتابتش ، رتب الامور بحيث يكون هناك دائما حمالان على اهبة الاستعداد . استأجرهما واتفق معهما . يكفي اثنان. كل مهمتهما ان يحملاني عند صعود السلالم ؛ وفي وسعهما ان يدفعا المقعد في الاماكن المنبسطة ، وفي الشوارع . قل لهما هذا . وادفع لهما اجرهما مقدما ، كي يكونا اكثر احتراما . وعليك ان تكون بجانبي دائما . وانت يا اليكسي ايفانتش ارني بارونك هذا عندما نخرج ، لاني احب ان القي نظرة على بارون كهذا . واين الروليت؟» فقلت لها ان موائد الروليت في الكورسال. وعندئذ سألتني : اهناك عدد كبير من هذه الموائد ؟ وهل المقامرون عليها كثيرون ؟ وهل يلعبون طول النهار ؟ وكيف ترتب الامور ؟ واخيرا قلت لها ان افضل شيء تصنعه ان ترى كل شيء بعينيها ، لان من العسير وصفه باكمله .

— عظيم جدا. خذوني اذن الى هناك مباشرة ! وامش في المقدمة يا اليكسي ايفانتش !

فسألها الجنرال متوسلا : « اتريدين ان تقولي ياعمتي انك لن تستريحي بعد رحلتك ؟ » وكان يبدو محرجا ؛ بل راح الجميع يتململون ويتبادلون النظرات . ويبدو انهم استشعروا الارتباك والخزي من الذهاب في صحبة الجدة مباشرة الى موائد القمار ، حيث تبدي بلا شك اطوارها الغريبة ، وعلى الملا هذه المرة ، مع انهم كانوا قد وعدوها ان يصحبوها اينما ذهبت . فقالت الجدة ، « ولماذا استريح ؟ لست مجهدة . وقد ظللت جالسة خمسة ايام.

ويمكننا ان نذهب لمشاهدة الينابيع والمياه الطبية بعد ذلك . ثم تلك القمة التي تحدثت عنها بابراسكوفيا ... وماذا هناك ايضا مما يستحق المشاهدة ؟ » فقالت بولينا في غموض : « اشياء كثيرة جدا » فصاحت الجدة : « اترين ؟ انت نفسك لا تعرفين ماهي » والتفتت الى خادمتها وقالت : « ستاتين انت معي ايضا » فقال الجنرال بارتباك : « ولماذا تذهب ياعمتي ؟ هذا كثير حقا . بل انهم قد لايسمحون لبوتابنش بالدخول ايضا » فقالت الجدة : « هراء ! اتتركها لمجرد انها خادمة ؟ انها بشر ايضا . وقد ظللنا نتدحرج على القضبان الحديدية اسبوعا باسره ؛ وهي ايضا تريد ان تشاهد ما هناك . ومع من يمكن ان تذهب ان لم تذهب معي؟ فهي تخاف ان تخرج انفها من الباب بمفردها » فقال الجنرال : « ولكن ... » فصاحت به : « اتريد ان تقول انك تخجل من ان تشاهد معي ؟ ابق اذن هنا ، فلم يدعك للذهاب احد . يالك من جنرال بديع حقا ! لقد كان زوجي جنرالا ! ثم لماذا تتبعونني جميعا حيثما ذهبت ؟ استطيع ان ارى كل شيء مع اليكسي ايفانتش » .

ولكن دي جري اصر بحزم على ان يتبعها الجميع ، معلنا بعبارات تفيض ملقا انها متعة كبرى ان يذهبوا معها ؛ وما الى ذلك وانطلقنا معا . وقال دي جري للجنرال بالفرنسية :

ـ لقد ارتدت للطفولة . ولو تركت وحدها لارتكبت حماقات .

ولم اتمكن من سماع بقية ما قاله ؛ ولكن كان واضحا ان لديه نيات معينة ؛ ولعل آماله انتعشت . وكانت المسافة الى الكورسال نحو نصف ميل ، فاخترقنا ممر البلوط الى الميدان الذى يقع امام الكورسال مباشرة . وهدا الجنرال بعض الشيء ، لان موكبنا رغم غرابته كان على الاقل مهيبا ومحترما . ثم ما الذى يدعو للعجب من ان شخصا مريضا واهنا عاجزا عن استخدام ساقيه قد جاء ليستشفي بالمياه الطبية ؟ ولكن الجنرال بلا شك كان يخشى الكازينو . فلماذا تذهب عجوز مقعدة لزيارة موائد القمار ؟

وكانت بولينا والآنسة بلانش تسيران على جانبي الكرسي ذي العجلات ؛ وتتقدمان بين الفينة والفينة على ممازحة مهذبة مع الجدة ، حتى كسبتا قلبها في النهاية تقريبا . ولكن بولينا كانت مضطرة للاجابة عن اسئلة الجدة التي لا تنقطع ولا حصر لها ؛ مثل : « من هذا الذى مر بنا الآن ؟ من هذه السيدة راكبة العربة ؟ هل البلدة كبيرة ؟ هل الحديقة مترامية ؟ ما هذه الاشجار ؟ ما اسم تلك

الجبال ؟ وهل فيها نسور ؟ ما هذا السقف الغريب الشكل ؟ » .
وكان استلي يسير بجواري ، ويهمس في اذني ، انه يتوقع اشياء كثيرة طريفة هذا الصباح . وفي المؤخرة مشى بوتابتش ومارفا ، وراء المقعد ، وقد ارتدى بوتابتش بدلته الفراك برباط العنق الأبيض ، وقبعته مدببة. اما مارفا فهاس في الاربعين من عمرها ، موردة الخدين ، دبت اليها بواكير الشيب ، لابسة قلنسوة ، وثوبا من قماش مطبوع وحذاء له صرير من جلد الماعز. وكانت الجدة تلتفت من فوق كتفها لتكلمهما . اما الجنرال ودي جرى فتخلفا قيلا ، وراحا يتناقشان في امرما بحرارة . وكان الجنرال منقبضا ، لما دي جرى فكان يتكلم بعزيمة . ولعله كان يحاول تشجيع الجنرال ، وتقديم شيء من النصائح اليه . ومنذ برهة وجيزة كانت الجدة قد تفوهت بتلك العبارة القاتلة : « لن اعطيك نقودا » . ولعل دي جرى لم يصدقها ، اما الجنرال فكان يعرف عمته جيدا . ولمحت دي جرى والآنسة بلانش يتبادلان الغمزات . وفي نهاية الممر كنت البين الرحالة الالماني والامير الروسي ، وقد شرعا يبتعدان عنا.
ووصلنا الى الكورسال فيما يشبه موكب النصر . واظهر بواب القاعة والخدم من الاحترام لنا ما يماثل ما ابداه خدم الفندق . ولكنهم لم يتمالكوا انفسهم من النظر الينا بفضول . وفي البداية امرت الجدة فحملت بالمقعد لتطوف بجميع القاعات . واثنت على بعض الترتيبات ، ولم تكترث بترتيبات اخرى . وسالت عن كل شيء . واخيرا وصلنا الى قاعات القمار ، وفتح لنا الحجاب الذين يحرسون الابواب المغلقة تلك الابواب على مصراعيها ، كالمذهولين .
واحدث ظهور الجدة عند مائدة القمار انطباعا عميقا لدى الجمهور، فتجمع حول مائدة الروليت وحول مائدة الثلاثين والاربعين عند نهاية القاعة حوالي مائة وخمسين او مائتين ، صفا وراء صف ، ومن تمكنوا من شق طريقهم الى المائدة وقفوا ثابتين في اماكنهم كالعادة ، غير متخلين ابدا عنها الى ان يخسروا رهاناتهم لانه غير مسموح لاحد ان يقف في الصف الاول لمجرد المشاهدة من غير ان يشارك في اللعب. وبرغم وجود كراسي مصفوفة حول المائدة الا ان القليلين جدا هم الذين كانوا يجلسون ، ولاسيما عندما يشتد الزحام ، لان الاقتراب ايسر في حالة الوقوف ، وبالتالي يتيسر العثور على مكان . ثم ان وضع النقود اسهل على الواقفين . ولذا كان الواقفون في الصف الثاني والثالث يزاحمون ويدافعون من في الصف الاول مترقبين

امم منفذا فيه . وبعضهم كان يدفعه التلهف ونفاد الصبر ان يزج بيده بين الواقفين امامه ليضع رهانه ، ويحدث ذلك احيانا من الواقفين فى الصف الثالث . فكان ذلك سببا فى نشوب نزاع كل بضع دقائق حول من هو صاحب الرهان الرابح . ولكن شرطة الكازينو كانوا من ذوى الكفاءة . ولم يكن هناك مناص بالطبع من الزحام او التزاحم . بل كان الشرطيون يسرون له ، لأنه مصدر كسب للكازينو . وكان مراقبو اللعب (الكروبييه) الثمانية المحيطون بالمائدة يرقبون المراهنات بيقظة تامة . وهم الذين يدفعون النقود للرابحين ، وهم الذين يسوون كل نزاع ينشب حول المراهنات . وفى الحالات القصوى يدعى الشرطة للتدخل ، وينتهى النزاع فى دقيقة واحدة. وكان الشرطة يقفون فى انحاء القاعة نفسها فى ملابس مدنية ، مختلطين بالجمهور ، بحيث يستحيل التعرف عليهم . ويقفون متنبهين لحوص و « فرسان المهنة » الذين يكثرون حول موائد الروليت لهنتهم . ففى كل مكان آخر تتم السرقة بنشل الجيوب وفتح الاقفال . وفى حالة الفشل تقوم ضجة هائلة . اما هنا فما عليك الا ان تذهب الى مائدة الروليت وتشرع فى اللعب ، وفجاة ، وعلانية ، تختلس ارباح شخص آخر وتضعها فى جيبك . واذا نشب نزاع امر المختلس بأعلى صوته ان الرهان كان رهانه . فان كان قد قام بعمليته فى براعة ، وتردد الشهود ، تمكن اللص غالبا من الاستيلاء على المبلغ ؛ وذلك بالطبع ان كان المبلغ غير بالغ الجسامة . اما ان كان جسيما جدا فلابد أن يكون المراقبون وبعض المقامرين انفسهم متيقظين لما يحدث . وان لم يكن المبلغ كبيرا جدا جنح صاحبه احيانا الى الاستسلام وانسحب من النزاع كراهية للفضيحة ، وانصرف من الكازينو . ولكن اذا كشف اللص طرد فورا يحف به الخزى .

وظلت الجدة ترقب هذا كله عن بعد بفضول شديد ، وابتهجت عندما طردوا لصا . اما لعبة الثلاثين والاربعين فلم تشوقها كثيرا . وفضلت عليها الروليت ، لأن دحرجة الكرة ابهجتها . وبعد برهة رغبت فى النظر الى اللعبة من قرب . ولست ادرى كيف تم لها ذلك ، ولكن الحجاب وبعض المزاحمين (ومعظمهم بولنديون كانوا قد خسروا اموالهم وراحوا يفرضون خدماتهم على المقامرين المحظوظين وعلى جميع الاجانب) اوجدوا لها فى الحال مكانا برغم الزحام : فى منتصف المائدة بالضبط ، بجوار المراقب الرئيسى ، ودفعوا كرسيها

اليه . وتكاثر في الحال مدة زوار من غير اللاعبين لمجرد مشاهدة اللعب (ومعظم هؤلاء من الاسر الانجليزية) كي ينظروا الى الجدة مع وراء ظهور المقامرين . واتجهت نحوها مناظير مقربة كثيرة ، وتولد الامل في صدور مراقبي اللعب (الـكروبييه) فمثل هذه المقامرة الغريبة الاطوار تبشر بشيء خارق للمعتاد . فظهور عجوز سبعينية مقعدة راغبة في المقامرة ليس بطبيعة الحال امرا يحدث في كل يوم . ودافعت الناس حتى وصلت الى المائدة ووقفت بجوار الجدة ، اما بوتابتش ومارفا فكانا بعيدين وسط الزحام . كذلك الجنرال وبولينا ودى جرى والآنسة بلانش وقفوا من بعيد ، مع المتفرجين .

وفي البداية اكتفت الجدة بالنظر الى المقامرين ، وامطرتني باسئلة مفاجئة غريبة في همس مرتفع : « من هذا الرجل ؟ من هذه المراة ؟ » ولفت نظرها على الخصوص شاب حديث السن جدا وقف عند نهاية المائدة ، وكان يراهن بالالوف في المرة الواحدة ، وسمعت الواقفين يتهامسون بانه كسب حتى الآن اكثر من اربعين الف فرنك تكدست امامه في كومة من الذهب واوراق النقد . وكان وجهه شاحبا وعيناه تلمعان ويداه ترتجفان . وهو الآن يلعب بتهور ، يراهن باقصى ما تقبض عليه يده ، ويكسب باستمرار ، ثم يجمع الارباح بسرعة .. وراح الخدم يحومون حوله ، ووضعوا له كرسيا وراء ظهره ، واخلوا فيما حوله مسافة كي تتيسر له الحركة وحتى لايزاحمه احد ، وذلك كله طمعا في مكافأة سخية منه . فكثيرا ما يعطي المقامرون الرابحون هبات لا يحصون مقدارها ، بل يخرجون قبضات النقود من جيوبهم وهم في غمرة الفرح . ووقف بولندى بجوار الشاب ، وراح يحوم حوله ويهمس في اذنه طول الوقت ، ولعله كان يرشده ابن يضع مراهناته وينصحه ، متوقعا بطبيعة الحال مكافأة مجزية . ولكن الشاب قلما كان ينظر اليه ، بل راح يراهن بجنون ، ويجني الارباح في كل مرة ، وكان واضحا انه خرج من طوره . وراقبته الجدة بضع دقائق ، ثم لكزتني قائلة :

— قل له يكف عن اللعب ! قل له ياخذ امواله وينصرف فورا ، والا خسرها في دقيقة واحدة !

وكانت تلهث من الاثارة ، حين استطردت قائلة :

— اين بوتابتش ؟ ارسل اليه بوتابتش . قل له . قل له (ولكزتني مرة اخرى) . اين بوتابتش ؟ (ثم صاحت بالفرنسية مخاطبة

الشاب مباشرة) اخرج من هنا ! اخرج !
وملت فوقها وهمست لها بحدة انه لا يجوز لها ان تصيح هنا . وان رفع الصوت ولو قليلا ممنوع في هذا المكان ، والا طردونا في الحال . فقالت :
ـ يا للعار ! انه ضائع ! لن ينقذه احد . لا اكاد اطيق النظر اليه ! يا له من اخرق !
واشاحت بوجهها بسرعة منه . وعلى البسار ، في النصف الآخر من المائدة ، رأت امرأة شابة ومعها قزم جالس بجوارها . من عسى ان يكون هذا القزم ؟ اهو قريبها ، ام هو شخص اتخذته مرافقا لمجرد التأثير ... لست ادري . وكنت قد لاحظت هذه السيدة من قبل ، لانها كانت ترتاد الموئد كل يوم في الساعة الواحدة ، وتغادرها في الثانية تماما . فهي تقامر كل يوم لمدة ساعة واحدة. وكان كل موظفي الكازينو يعرفونها ، ويقدمون لها كرسيا على الفور. وتخرج بضع قطع من النقود الذهبية وبضع اوراق نقد من ذات الالف فرنك من جيبها وتشرع في وضعها بهدوء وبرود اعصاب ، وتخط ارقاما بالقلم الرصاص على قطعة من الورق ، وتحاول العثور على نظام للفرص . وكانت مراهناتها عالية ، وتكسب كل يوم الفين، او على الاكثر ثلاثة آلاف فرنك ، ومتى كسبتها انسحبت. وراحت الجدة تراقبها فترة طويلة من الزمن ، ثم قالت لي :
ـ آه . هذه السيدة لن تخسر . لن تخسر ! من هي ؟ الا تعرف ؟ من هي ؟
فهمست لها قائلا : « اظنها فرنسية ، وامرأة من اياهن » . فأجابتني قائلة : « آه . نعم . ونستطيع من طريقة تحليقها ان تعرف اي طائر هي ! ومخالبها حادة جدا بلا شك . والآن خبرني ما الذي تعنيه كل دورة من دورات العجلة ؟ وكيف اراهن ؟ » . فبذلت جهدي في شرح معنى هذه التوافقات : احمر واسود ، زوجي وفردي ، وشتى نظم الارقام. واصغت بانتباه ، وهي تدون ما اقول في عقلها ، وتطلب مني تكرير الشروح ، وملقية اسئلة جديدة ، مستظهرة اجاباتها . وكانت امامنا امثلة لكل نوع من انواع اللعب بحيث يسهل التعلم بسرعة. . وكان ذلك مبهجا للجدة.
ـ وما هو الصفر ؟ لقد صاح كبير المراقبين الواقف هناك منذ قليل قائلا : « صفر » . ولماذا جمع بعد ذلك كل ما على المائدة؟ انه لمبلغ جسيم ، وقد جمعه كله لنفسه ! فما معنى هذا ؟

ـ الصفر معناه ان البنك او الكازينو هو الرابح ، فاذا وقفت الكرة على الصفر استولى البنك على كل شيء . صحيح ان لك الحق فى تجربة حظك مرة اخرى ، ولكن البنك لن يدفع شيئا على كل حال .
ـ الا احصل عندئذ على اى شيء ؟
ـ كلا ياجدة . ولكن اذا وضعت نقودك على الصفر ، ووقفت عنده الكرة حصلت على خمسة وثلاثين ضعفا لرهانك !
ـ خمسة وثلاثون ضعفا ! وهل يحدث هذا كثيرا ؟ لماذا اذن لا يفعل هؤلاء المغفلون ذلك ؟
ـ لان الفرص المضادة له عددها ست وثلاثون فرصة ياجدة .
ـ هراء يابوتابتش ! بوتابتش ! انتظر لحظة ، فمعى بعض النقود هاك ! (واخرجت كيس نقود محشو من جيبها واخرجت منه قطعة نقود تساوى عشرة جولدات وصاحت) هاك ! ضع هذه على الصفر فورا !
ـ ولكن الصفر ياجدة ربح منذ لحظة ، وقد لايربح مرة اخرى الا بعد وقت طويل ، ستخسرين قطعا . انتظرى قليلا .
ـ هيا ! بل الآن ! ضعها فورا على الصفر !
ـ وهو كذلك . ما دام هذا امرك . ولكن الصفر قد لايكسب قبل حلول المساء ! وبهذه الطريقة ستخسرين قرابة الالف رهان. وكثيرا ما يحدث هذا .
ـ هراء ! هراء ! من لا يجازف الا بالقليل لا يكسب الا القليل ! خسرنا ؟ اليس كذلك ! ضع قطعة اخرى !
وخسرت الثانية ، ووضعت قطعة ثالثة على الصفر ايضا ، ولم تكد تتمالك نفسها لتستقر فى مكانها ، وقد تركزت عيناها المتقدتان على الكرة التى تتراقص مع العجلة الدائرة . وخسرت الثالثة ايضا ، فكادت تخرج الجدة عن طورها . وعندما صاح المراقب : « ست وثلاثون » بدلا من الصفر المرتقب ، ضربت المائدة بقبضة يدها وصاحت :
ـ لياخذه الشيطان ! الن يظهر هذا الصفر ابدا ؟ سانتظر حتى يظهر ما ظل فى جسمى عرق ينبض ! انه هنا المراقب الملعون ، ذو الشعر المتموج ، فهو لا يجلب لى الحظ ! يا اليكسى ايفانتش ضع قطعتين من الذهب فورا ! وان استمرت خسارتنا بهذا الشكل فلن يفيدنا الصفر كثيرا .

ـ جدة !
ـ هيا ! هيا ! انها ليست نقودك !
ووضعت قطعتين من ذوات العشرة جولدنات ، ودارت الكرة مدة طويلة قبل ان تشرع في القفز بين الأرقام ، وراحت الجدة ترقبها وهي تكتم انفاسها ، وتعصر يدي ، وفجأة صاح المراقب : «صفر!» فصاحت الجدة ، ملتفتة بسرعة نحوي متهللة منتشية :
ـ ارايت ؟ ارايت ؟ الم اقل لك ؟ لابد ان الله هو الذي اوحى لي ان اراهن بقطعتين هذه المرة ! والآن كم ربحت ؟ لماذا لايعطونني المال ؟ بوتابتش ! مارفا ! اين هما ؟ هل انصرف جميع من معنا ؟ بوتابتش ! بوتابتش !
ـ فيما بعد ياجدة ! بوتابتش عند الباب ، فلن يسمحوا له بالدخول . انظري . ها هم يعطونك نقودك . خذيها !
وقدموا لها لفة ثقيلة بها خمسون قطعة ذهبية مختومة في ورق ازرق ، وعدوا على المائدة عشرين قطعةذهبية اخرى غير ملفوفة ، وجمعتها كلها بالجاروف وقدمتها اليها . وصاح المراقب :
ـ العبوا يا سادة ! راهنوا يا سادة ! الا من مراهن بعد ؟
وتاهب لدفع العجلة للدوران . وصاحت الجدة :
ـ يا الهي ! لقد تاخرت ! ستدور العجلة ! ضع بحق السماء شيئا ! اسرع .
ولكزتني بعنف وهي في قمة الإثارة . فسالتها :
ـ على اي شيء اضع الرهان ياجدة ؟
ـ على الصفر بالطبع ! على الصفر دائما ! راهن بكل ما تستطيع كم معنا ؟ سبعمائة جولدن ؟ لماذا التقتير ، راهن بمائتين فورا !
ـ فكري فيما تصنعين ياجدة ! قد لايظهر الصفر لمدة مائتي دورة اخرى . واؤكد لك انك ستخسرين كل نقودك !
ـ كف عن الكلام ! ضعها على الصفر ! ما اطول لسانك ! انا اعرف ماذا اصنع !
وكانت ترتجف من شدة الاثارة ؛ فقلت لها :
ـ تقضي التعليمات بعدم المراهنة على الصفر باكثر من مائة وعشرين جولدنا ياجدة . وقد راهنت بها .
ـ التعليمات ؟ غير مسموح ؟ لا اصدق هذا ؟ انت ياسيد ! ياسيد ! (ولكزت المراقب الواقف عن يسارها وكان يتاهب لدفع

العجلة للدوران قائلة بالفرنسية) : كم الرهان على الصفر؟ مائة وعشرون ؟

ـ نعم ياسيدتي ؟ وطبقا للتعليمات ايضا لا يتجاوز اي رهان فردي اربعة آلاف فلورين !

ـ آه ! لا حيلة الان . ضع مائة وعشرين !

وصاح المراقب : « تم اللعب ! » ودارت العجلة ووقفت على الرقم ١٣، وخسرنا ! وصاحت الجدة : « مرة اخرى ! مرة اخرى ! ضع مبلغا آخر! » . ولم احاول بعد ذلك ان اقاومها ، وهززت كتفي ووضعت على الصفر مائة وعشرين جولدنا اخرى . ودارت العجلة مدة طويلة ، والجدة ترتجف بشكل واضح وهى تتتبع دورانها . ورحت اتساءل : « اتراها حقا تظن الصفر يمكن ان يظهر مرة اخرى ؟ » . وانا احدق فيها بدهشة . وكانت ملامحها مشرقة بتوقع الكسب ، وصياح المراقب معلنا عن الصفر . وراحت تتكرة تترقب ، ثم صاح المراقب : « الصفر ! » وصاحت الجدة : « هاها ! » وهى تلتفت نحوى فى زهو انتصارها الجنوني .

وانا شخصيا مقامر ، وفى هذه اللحظة تحققت من ذلك ! فقد ارتجفت يداي واصطكت ركبتاي ، ودار راسي . فقد كانت طبعا حالة استثنائية ان يظهر الصفر ثلاث مرات فى مدى عشر دورات ، ولكن لم اشعر لذلك بدهشة خارقة . فقد رايت بنفسي امس الاول الصفر يظهر ثلاث مرات متوالية ، واعلن احد المقامرين المثابرين على تسجيل مشاهداته فى ورقة ان الصفر لم يظهر فى اليوم السابق الا مرة واحدة فى الاربع والعشرين ساعة .

وسلم المال الى الجدة بالاحترام والتهذيب الواجبين لشخص ربح مبالغ جسيمة . وتسلمت ٤٢٠٠ جولدنا او ٤٢٠ فريدريشدورا . الاربعة الالاف اوراق نقد ، والمائتين ذهبا . وفى هذه المرة لم تناد الجدة بوتابتش ، بل كان لديها ما يشغلها الان . ولم تلكزني ، ولم ترتجف ظاهريا على الاقل ، بل كانت ترتجف داخليا ان صح هذا التعبير ، وبدت مستغرقة تماما ومتوترة الاعصاب ، وهى تقول بحزم :

ـ يا اليكسي ايفانتش ! لقد قال ان المراهنات الفردية لا تتجاوز اربعة آلاف فلورين فى المرة الواحدة . اليس كذلك ؟ ضعها كلها على الاحمر .

ولم تكن هناك جدوى من محاولة اثنائها عن عزمها . ودارت

المجلة ، وصاح المراقب : « الاحمر ! » وبذلك كسبنا أربعة آلاف فلورين اخرى ، فقالت لى : « اعطنى اربعة آلاف وضع الاربعة الآلاف الأخرى على الاحمر ايضا » ووضعت الاربعة الآلاف كما امرتنى . وصاح المراقب مرة أخرى :

ـ الأحمر !

ـ اى ان مجموع أرباحنا الآن اثنا عشر الفا . هاتها هنا . ضع الذهب فى الكيس : وضع اوراق النقد فى الجيب . وهذا حسبنا الآن ! الى البيت ! ادفع الكرسى الى الوراء !

الفصل الحادي عشر

ودفع بكرسيها الى الوراء ، حتى الابواب فى الطرف الآخر للقاعة . وكانت الجدة جذلة متهللة . واحتشدت جماعتنا كلها حولها لتزف اليها التهاني . وبرغم غرابة اطوار الجدة وتصرفاتها الشاذة ، الا أن انتصارها غطى على الكثير جدا من اخطائها وذنوبها ، فلم يعد الجنرال يخشى توريط نفسه فى نظر الجمهور بالتنوه من قريبة لها مثل هذه الشخصية ، ثم تقدم للجدة بالتهنئة وهو يفتر من ابتسامة اغضاء والفة ، حتى لكأنه يسابر طفلة ويلاطفها . ولكنه فى الوقت نفسه كأن كالمصعوق ، شأنه فى هذا شأن سائر المشاهدين . وظل الناس يمرون بنا كى يتسنى لهم القاء نظرة عليها من كثب . وكان مستر استلى يتكلم عنها همسا الى اثنين من اصدقائه الانجليز بمعزل عنا . ونظرت اليها بضع سيدات وقورات بتعجب مهيب ، وكأنها حيوان غريب. اما دى جرى فراح يمطرها بالتهنئات والابتسامات . وصاح بالفرنسية :

ــ يا له من انتصار !

وقالت الآنسة بلانش بابتسامة من تلتمس الحظوة : « لقد كان حظك ياسيدتي كالنار ! » .

ــ نعم . نعم . لقد ربحت ببساطة اثنى عشر الف فلورين . اثنى عشر الفا قلت ؟ وماذا عن الذهب ؟ اذا اضفنا الذهب ارتفع المبلغ الى ثلاثة عشر الفا تقريبا . كم يساوى ذلك بعملتنا ؟ نحو ستة آلاف . اليس كذلك ؟

فقلت لها انه يساوى اكثر من سبعة آلاف ، اى ما يعادل بسعر العملة السائد حاليا ثمانية آلاف روبل .

ــ شيء ذو بال . ثمانية آلاف روبل ! وانتم جميعا تجلسون هنا كالبلهاء لا تصنعون شيئا . بوتابتش ! مارفا ! ارأيتما ؟

فصاحت مارفا وهى تتلوى من فرط السرور : « اوه ياسيدتى ! كيف صنعت هذا ؟ ثمانية آلاف روبل !

ـ هاك ! ها هي خمس قطع ذهبية لكما ، خذاها !
واندفع بوتابتش ومارفا لتقبيل يدها .
ـ اعط الحمالين عشرة فلورينات لكل منهما . يا الكسى ايفانتش ! ومن هذا الحاجب الذي ينحني ! وذاك الآخر ! اهما يهنئاني ! اعط كلا منهما عشرة فلورينات ايضا .
وتقدم شخص ذو شارب ضخم عليه ثياب زرية ، فرفع قبعته المدببة عاليا وهو يبتسم باحترام . وراح يحوم حول كرسيها قائلا بالفرنسية : « سيدتي الاميرة ... لاجيء منفي فقير ... شقاء مستمر ... الامراء الروس في غاية الكرم » .
ـ اعطه عشرة فلورينات ايضا . بل اعطه عشرين ! كفى هذا الآن، والا فلن ننتهي منهم، ارفعوني ! خذوني الى بعيد ! (والتفتت الى بولينا) براسكوفيا ! ساشتري لك قماشا لثوب جديد غدا ، وآخر للآنسة . ما اسمها ! الآنسة بلانش. اليس كذلك ! ساشتري لها قماش ثوب ايضا ، بلغيها هذا ياراسكوفيا !
فقالت الآنسة بلانش : « شكرا » وهي تنحني بخضوع ، وشفتاها مقوستان بابتسامة ساخرة تبادلتها مع دي جري والجنرال.
وكان الجنرال بادي الحرج جدا ، وقد شعرت بالارتياح عندما عدنا الى ممر الحديقة .
وقالت الجدة وقد تذكرت صديقتها القديمة مربية الجنرال :
ـ وفيدوزيا ! كم ستدهش ! لابد لها من ثوب جديد ايضا . يا الكسى ايفانتش . اعط هذا المتسول شيئا !
وكان مخلوق مهلهل الثياب محني الظهر مر بنا وهو ينظر الينا ، فقلت :
ـ قد لا يكون متسولا . بل صعلوكا .
ـ اعطه شيئا ! اعطه جولدنا !
وذهبت الى الرجل واعطيته قطعة النقود، فنظر الي بكل الدهشة ، ولكنه اخذها في صمت . وكانت تفوح منه رائحة الخمر .
ـ وانت يا الكسى ايفانتش ! الم تجرب حظك بعد !
ـ نعم . لم اجربه بعد باجدة .
ـ ومع هذا كانت عيناك متقدتين . لقد رايتهما !
ـ ساجرب حظي يوما ما باجدة . ساجربه حتما فيما بعد .
ـ ضع نقودك باستمرار على الصفر ! وسترى ! كم معك !
ـ اثنا عشر فريدريشدورا فقط باجدة .

ـ ليس هذا كثيرا .. سأقرضك خمسين أخرى ان شئت . خذ هذه اللفافة (والتفتت نحو الجنرال وقالت) : ولكن اياك ان تظن اني سأعطيك شيئا ياسيدي !

واجفل الجنرال ، ولكنه لم يقل شيئا . وعبس دي جري . وهمس في اذن الجنرال بالفرنسية :

ـ بحق الشيطان ! انها لعجوز رهيبة !

وصاحت الجدة : « متسول . متسول . متسول آخر . اعط هذا ايضا جولدنا يا اليكسي ايفانتش ! » وكنا في هذه المرة قد قابلنا رجلا مسنا اشيب الشعر ذا ساق خشبية ، يرتدي الفراك الازرق ، وفي يده عكاز طويل ، ويبدو كالجندي المتقاعد . ولما مددت له يدي بالجولدن تراجع خطوة الى الوراء ورمقني متهددا . ثم انشأ يسبني بالالمانية . فصاحت الجدة ، وهي تلوح بيدها : « احمق ! هذا كل ما هنالك ! اسرعوا ! اني جائعة . حان وقت الغداء الآن . ثم استلقي برهة ، لأعود مرة اخرى ! » .

فصحت : « اتعنين انك ستقامرين مرة اخرى ياجدة ! » .

ـ وماذا تظن ! الأنك تجلس وجمعا يجب على انا ايضا الا اصنع شيئا سوى النظر اليك !

واقترب منها دي جري وقال لها بالفرنسية : « ولكن الحظ قد ينقلب ياسيدتي . ويكفي لحظ السيء مرة واحدة كي تخسري كل شيء . وخصوصا بطريقتك في اللعب . كان هذا رهيبا ! » وغمغمت الآنسة بلانش : « ستخسرين قطعا ! » فقالت الجدة : « ومالشأنكم بهذا جميعا ! انه مالي الذي ساخسره وليس مالكم ! (والتفتت تسالني) واين ذلك المستر استلي ! » .

ـ بقي في الكورسال ياجدة .

ـ خسارة . انه لرجل ظريف !

ولما عدنا للفندق التقت الجدة بكبير السقاة على السلم ، فنادته وفاخرت بارباحها . ثم نادت فيدوزيا واعطتها ثلاثة فريدريشدورات ، وامرت بتقديم الغداء . وكانت فيدوزيا ومارفا في قمة الفرح على الغداء ، وقالت مارفا بصوتها الذي يشبه زقزقة الطيور :

ـ وانا وانفة ارقبك ياسيدتي قلت ليوتابتش : ما الذي ستصنعه سيدتنا ! وكان كل هذا المال امامك على المائدة . يا الهي ! لا احسبني رايت كل هذه المبالغ في حياتي كلها . وليس حول المائدة الا سيدات

وسادة ، فقلت لبوتابتش : « من اين جاءكل هؤلاء السادة النبلاء ؟ وانى لأتضرع للسيدة العذراء ان تكون فى عونها ! » وشرعت أصلى ولها وانفة من اجلك ياسيدتى . وراح قلبى يدق طق طق طق ، وجسمى كله يرتجف . « يارب هيىء لها حظا حسنا ! » . هكذا تضرعت ، واستجاب الله لى . ولم يزل جسمى يرتجف ياسيدتى!

– يا اليكسى ايفانتش استعد للذهاب معى بعد الغداء ... فى نحو الساعة الرابعة . والآن مع السلامة مؤقتا ، ولا تنس ان ترسل الى طبيبا ، اذ يجب ان استشفى بالمياه المعدنية ايضا ، قبل ان انسى !

وتركت الجدة وانا فى شبه حلم . وحاولت ان اتخيل كيف ستغدو الامور بالنسبة اجماعتنا . فرايت بوضوح انهم لم يستردوا بعد صوابهم تماما وما زالوا نصف مذهولين من اثر الصدمة ، ولا سيما الجنرال . فوصول الجدة بنفسها بدلا من البرقية المنتظرة ساعة بساعة معلنة وفاتها (وبالتالى ميراثهم) قمع كل مقاصدهم وقرارتهم ، الامر الذى جعلهم ينظرون سلفا الى ما تزمعه من الاقدام على مزيد من المراهنة فى الروليت وكأنهم مصعوقون . ولكن هذه الواقعة صارت اهم من الاولى رغم كل شىء . فلقد صرحت الجدة مرتين بانها لن تعطى الجنرال نقودا ، ولكن من يدرى ؟ ليس للمرء ان يفقد الامل بعد . فها هو دى جرى الشديد الارتباط بكل شئون الجنرال لم يفقد الامل . وانا متاكد ان الآنسة بلانش الشديدة الارتباط ايضا بشئونه اعلى الاقل كى تصير زوجة الجنرال وتضع يدها على ميراث كبير !) لن تتخلى عن الامل ، وستستخدم كل احابيل حيلها مع الجدة ، على النقيض من بولينا المتكبرة العنيدة التى لا تعرف كيف تفوز بالحظوة لدى احد . اما الآن والجدة ترتكب على مائدة الروليت ما ترتكبه . اما الآن وقد فرضت الجدة شخصيتها علينا بمثل هذا الوضوح وهذه الحيوية (هذه السيدة العجوز ذات النزوات والاطوار الغريبة التى ارتدت للطفولة) فلعل كل شىء قد صار حطاما ، لانها بنلهفها الطفولى خليقة ان تخسر كل درهم تملكه . يا اله السموات ! لقد خلت (وليغفرلى الله لانى كنت اضحك من ذلك فى سريرتى) ان كل قطعة نقود راهنت بها الجدة هذا الصباح كانت حتما خنجرا مغمدا فى صدر الجنرال ، ومثار غضب دى جرى ، والآنسة بلانش التى شهدت بذلك تسرب فرصها وتبددها. وهناك ايضا واقعة اخرى : فعندما كسبت الجدة

وراحت لنثر الاموال يمينا وشمالا وهي في غمرة فرحها ، حاسبة كل عابر سبيل متسولا ، لم يفتها ان تنذر الجنرال قائلة : « ولكني لن اعطيك انت شيئا من مالي » ، وهذا دليل على انها حزمت رايها ، وصممت عليه ، وآلت على نفسها ذلك . وهذا شيء خطير ، خطير جدا !

وقد مرت جميع هذه الاعتبارات براسي وانا اصعد السلم الامامي الى زنزانتي الصغيرة بالطابق الاعلى . ووجدت تلك المشكلة تستغرقني . وقد اكتشفت قبل ذلك بمدة طويلة بالطبع اقوى الطاقات التي يتكون منها الحبل الذي يكبل الممثلين على المسرح امامي ، ولكني لم اعرف بالضبط جميع مداخل ومخارج تمثيلهم . فانا لم اتمتع قط بثقة بولينا الكاملة ، وان كانت احيانا — وكانما على مضض — تفتح قلبها لي . ولكني لاحظت انها في كثير جدا من الاحيان — بل في الدوام تقريبا — كانت تحاول بعد تلك الافضاءات ما ان تقلب كل شيء قالته الى مزاح ، او تخلطه خلطا بحيث تتعمد ان يبدو لي كل ما قالته غير صحيح . وما اكثر ما كانت تخفيه ! لقد احسست على كل حال ان كل هذا الموقف المتوتر الغامض يتجه نحو خاتمته النهائية . ضربة اخرى وينتهي هذا كله ، وتفتضح خفاياه ! ولم اكد اشغل فكري بدوري شخصيا ، وان كنت انا ايضا متورطا في الموقف . وحالتي النفسية غريبة . فليس في جيبي الا عشرون فريدرشدورا ، وانا بعيد عن الوطن في بلد غريب ولا عمل لي ولا وسيلة لتعيش ، ولا امل لي ، ولا خطة محددة . ومع هذا لايقلقني شيء من ذلك على الاطلاق ! ولولا التفكير في بولينا لكنت خليقا ان استمتع بفكاهة الحل المتوقع واضحك منه من اعماق قلبي . ولكن بولينا تقلقني ، فمصيرها في كفة الميزان ، وقد توقعت هذا منذ امد طويل ، ولكن ليس مصيرها هو ما يقلقني . فما اريده هو التغلغل الى اسرارها ، وان تاتي الى قائلة : « ولكني احبك ! » وان لم يكن هذا ، لانه ثمة الجنون ، فما الذي اريده اذن ؟ كانما اعرف ماذا اريد ! انا روح ضائع ، وكل ما اريده ان اكون بقربها ، داخل هالتها ، وفي نطاق اشراقها ، دائما والى الابد ، وطول حياتي . هذا كل ما اعرفه. كانما بوسعي ان افارقها ابدا !

وفي الطابق الاول ، في دهليزهم ، شعرت كما لو كان احد قد احتك بي ، فالتفت ، وعلى بعد عشرين خطوة ، او ربما اكثر من

ذلك ، رايت بولينا خارجة من احدى الغرف ، ولابد انها كانت تبحث مني ، لأنها بمجرد ان رأتني اشارت الي كي آتي اليها .
ـ بولينا اليكسندروفنا ...
ـ صه !
فهمست لها : « تصوري ! لقد احسست كما لو كان احد قد ربت على جنبي ، فرفعت عيني واذا بي اراك . يبدو ان نوعا من الكهرباء ينبعث منك » . فقالت بولينا بتقطيبة تدل على انشغال البال ، ويبدو انها لم تسمع ما قلت : « خذ هذا الخطاب وسلمه الى مستر استلى شخصيا . هذه الدقيقة . اسرع من فضلك . لا تنتظر الرد . انه ... » وسكتت عن اتمام جملتها ، فرددت كالصدى في دهشة : « مستر استلى ؟ » ولكن بولينا كانت قد اختفت وراء الباب المقفل ، فقلت في نفسي : « آه ! هما اذن يتراسلان ! » وبالطبع جريت على الفور لابحث عن مستر استلى ، في الفندق اولا ، فلم اجده ، ثم في الكورسال حيث طفت جميع القاعات ، واخيرا خرجت وانا في حالة غيظ ويأس بالغة فوجدته مصادفة وسط كوكبة من الانجليز والانجليزيات على صهوات الجياد ، فاومأت اليه ، فاوقف حصانه وسلمته الخطاب . ولم يتسع امامنا الوقت ولو لتبادل النظرات ، ولكني اشك ان مستر استلى همز حصانه عمدا لينطلق به .
افكنت نهبا لعذاب الغيرة ؟ لست متأكدا ، ولكن حالتي المعنوية كانت منخفضة جدا ، ولم اكن اريد ان اعرف ماذا كان كل منهما يكتب للآخر . انه اذن موضع سرها ! وهو بالقطع صديق ، وهذا واضح جدا (وكيف صار كذلك في مثل هذا الوقت القصير؟) ولكن اهناك حب ايضا ؟ كان عقلي يهمس لي انه لا يمكن ان يكون هناك حب . ولكن العقل وحده قليل الاثر في مثل هذه الاحوال . وعلى كل حال لابد من تجلية هذه المسألة . فالامور تتجه الى التعقد غير السار .
وفي اللحظة التي دخلت فيها الفندق قال لي بواب البهو وكبير السقاة ـ الذى خرج من حجرته خصيصا لهذا الغرض ـ ان الجميع يبحثون عني ، وانهم ارسلوا ثلاث مرات يستعلمون عن مكاني ، وانه مطلوب مني الحضور فورا الى حجرة الجنرال . وكنت في حالة مزاجية سيئة جدا . في حجرة جلوس الجنرال وجدت بالاضافة الى الجنرال نفسه ـ دي جرى والآنسة بلانش

التى كانت بمفردها وليست معها والدتها . فأمها مجرد شخصية شكلية تستخدم فى مناسبات خاصة فحسب . وعندما يكون هناك عمل حقيقى يجرى تحضيره فالآنسة بلانش هى التى تدبر امر حياتها ، وليس من المرجح ان تكون السيدة الطيبه على علم كثير بشئون ابنتها المزعومة. وكانوا ثلاثتهم فى حالة تشاور محتدم ، وقد اغلقوا الباب بالمفتاح ، وذلك امر ليست له سابقة . وعندما اقتربت من الحجرة سمعت اصواتا عالية : صوت دى جرى الوقح المهاجم ، وصيحات بلانش الغاضبة السليطة ، ونبرات الجنرال المتطامنة ، فلا شك انه كان يلتمس لنفسه المعاذير . ولما ظهرت امامهم تمالكوا انفسهم بحزم ، وحاولوا ان يظهروا بصورة طبيعية. وسوى دى جرى شعره وقلب تقطيبه الى ابتسامة من تلك الابتسامات الفرنسية المتكلفة الحسنة المظهر ، اما الجنرال المتطامن فحاول ـ نصف محاولة ـ أن يبدو مهيبا . اما الآنسة بلانش وحدها فلم تحاول تغيير مظهرها الغاضب . وكل ما هناك انها توقفت عن الكلام ، وثبتت نظراتها على فى نفاد صبر وتوقع . واذكر بهذه المناسبة انها حتى هذه اللحظة كانت تعاملنى بكل اهمال ، ولا ترد حتى على انحناءاتى ، بل كانت تتجاهلنى ببساطة .

وبدأ الجنرال الكلام بنبرات اللوم الرقيق : « انى مندهش . مندهش جدا . فسلوكك بازائى وازاء اسرتى ـ باختصار ـ غريب جدا ... غريب للغاية ... » وقاطعه دى جرى بتجهم غاضب (ولابد قطعا انه يملك عليهم جميعا سلطانا ما !) : « ليس الامر هكذا ياسيدى العزيز ، فجنرالنا العزيز مخطىء فى استخدام مثل هذه اللهجة ... فما اراد ان يقوله .. انه يريد تحذيرك ، او بالاحرى ان يطلب اليك بكل جدية الا تعمل على خرابه . نعم : خرابه ! واستخدم هذا اللفظ من تبصر ... » فقاطعته قائلا : « ولكن كيف ؟ » فأجابنى وقد اشتدت حدته : « لانك تعهدت بالرعاية (كيف عساى اعبر عن هذا ؟) تلك العجوز ، تلك العجوز المسكينة الرهيبة.. ولكنها قطعا ستخسر. ستخسر كل شىء حتى آخر درهم ! وقد رايت بنفسك كيف كانت تقامر. واذا بدات تخسر فلن تترك الموائد ، لمجرد العناد، وتحت تاثير هياج غضبها ستواصل اللعب، وفى مثل هذه الاحوال لا يسترد المرء خسارته ابدا ، وعندئذ ... عندئذ ... » فاكمل الجنرال له جملته قائلا : « وعندئذ تكون انت قد خربت ودمرت الاسرة كلها ! انا واسرتى ورثتها ، وليس لها

اقارب ادنين سوانا . واقول لك صراحة ان احوالى مضطربة بصورة ملحة وكلية . وانت تعرف بعض الشيء من ذلك شخصيا . فاذا خسرت هي مبلغا كبيرا ، أو (كما هو محتمل) خسرت كل ثروتها
ـ اوه ! يا الهي ! ماذا يكون عندئذ مآل اطفالي (ورمق دى جرى بنظرة) ومصيري ! (وعندئذ نظر الى الآنسة بلانش التي اشاحت عنه في تقزز) اوه ! يا اليكسى ايفانتش . انقذنا ! انقذنا ! » .
ـ ولكن ماذا عساى أصنع ياجنرال ؟ خبرني.كيف استطيع. من انا في وسطكم ؟
ـ تخل عنها . اتركها وحدها !
ـ ولكن غيرى سيحلون عندئذ محلي !
ومرة اخرى تدخل دى جرى قائلا : « ليس هذا هو الحل ! ليس هذا هوالحل! كلا ! لاتتخلعنها ، ولكن على الاقل انصحها ، ثبط عزمها ، ابعد ذهنها عن القمار ، ولا تدعها تخسر كل شيء . اعمل على تسليتها » . فقلت بانصى ما استطيع من سذاجة : « وكيف يتسنى لى هذا . عليك ان تنهض انت بهذه المهمة يامسيو دى جرى » . وعندئذ ضبطت نظرة نارية سريعة متسائلة من الآنسة بلانش الى دى جرى ، فمرت في محياه امارات غريبة كاشفة لم يتسن له أن يخفيها وصاح ملوحا بيده : « ولكنها لن تقبلنى الآن! لوكنت في البداية...» ورمق الآنسة بلانش بنظرة استفهامية ، فقالت الآنسة بلانش ، وتقدمت نحوى بابتسامة ساحرة ، وتناولت يدى كلتيهما وضغطت عليهما بحرارة : « ياعزيزى السيد اليكسى . كن طيبا كريما ! » ... يا للشيطان ! ان هذه السحنة الشيطانية تعرف كيف تتغير في لحظة واحدة من النقيض للنقيض . ففى هذه اللحظة ابدت لى وجها متوسلا ، وكانت ابتسامتها عذبة جدا ، كابتسامات الاطفال ، ابتسامة لعوبا ! وغمزت لى خلسة . فهل خطر لها انها يمكن ان تقهرنى بضربة واحدة ! لقد اتقنت اللعوب ، ولكنه كان فجا شديد الفجاجة . ووثب الجنرال .. نعم وثب على اثرها قائلا : « اصفح عنى يا اليكسى ايفانتش ، لانى ابتدات معك الكلام على هذا النحو . فلم يكن هذا ما اريد قوله ! انى اناشدك وارجوك وانحنى امامك على الطريقة الروسية.. فانت وحدك الذى تستطيع انقاذنا . انت وحدك ! الآنسة دى كومنج وانا نتوسل اليك . لقد فهمت . اليس كذلك ؟ » وكان يشير الى الآنسة بلانش بنظرة جانبية ، فكان منظره مؤثرا داعيا للشفقة حقا .

وفي هذه اللحظة سمعنا ثلاث طرقات رقيقة على الباب ، ولما فتح الباب اتضح ان خادم الدهليز هو الطارق ، ومن ورائه وقف بوتابتش ، موفدين من الجدة التي ارسلتهما للبحث عني والذهاب بي اليها فورا . وقال بوتابتش : « انها مستاءة ! » فقلت : « ولكن الساعة لم تتجاوز النصف بعد الثالثة ! » فأجابني : « ولكنها لم تستطع النوم، وظلت تتقلب طول الوقت، ولذا نهضت وطلبت كرسيها المتحرك وأرسلت في طلبك . وهي الآن عند مدخل الفندق فعلا! » فصاح دي جري بالفرنسية : « يا لها من امرأة شريرة ! » .

ووجدت الجدة في مدخل الفندق فعلا ، نافدة الصبر لغيابي ، ولم تتمكن من الانتظار حتى الساعة الرابعة . وامرت الحمالين :

ـ هيا ارفعوني !

وانطلقنا الى الكورسال مرة اخرى !

الفصل الثاني عشر

كانت الجدة في غاية الضيق ونفاد الصبر . وكان واضحا ان راسها مشحون بالروليت ، بحيث نسيت كل شيء وبدت شاردة الذهن ولم توجه تقريبا اي سؤال عن شيء طول الطريق . ولما لمحت عربة فاخرة مرقت بجوارنا كالاعصار رفعت يدها وسالت : « ماهذا ؟ مركبة من هذه ؟ » ولكن بدا عليها انها لم تسمع اجابتي . وبين الحين والحين كانت تجفل من شرودها بحركة تدل على نفاد الصبر ، او على نزوة مفاجئة . ولما اريتها البارون والبارونة فورمرهلم عن بعد ، ونحن نقترب من الكورسال ، نظرت حولها في شرود واطلقت صيحة : « أوه ! » من فمها في عدم اكتراث . ثم التفتت الى بوتابتش ومارفا اللذين كانا يمشيا وراءنا مجهدين وقالت :

ــ فيم سيركما بعطه ورائي ؟ انا لست مضطرة الى اصطحابكما في كل مرة ! عودا الى البيت !

والتفتت نحوي قائلة : « حسبي انت » . فانحنى الخادمان واستدارا عائدين الى الفندق .

وفي الكورسال كان الكازينو يتوقع وصول الجدة ، وعلى الفور اعدوا لها مكانها السابق بجوار مراقب المائدة مباشرة . وكثيرا ماجال بخاطري ان هؤلاء المراقبين ــ وهم دائما في مظهر لائق وسمت سليم ويبدون وكانهم موظفون عاديون ، وكانه سواء عليهم خسر البنك ام ربح ــ ليسوا في الحقيقة عديمي الاكتراث لخسائر البنك ، ولديهم نظما تعليمات معينة لاجتذاب المقامرين ، واوامر برعاية مصالح الادارة في يقظة ، مقابل ما يتقاضونه بلا شك من مكافآت وعلاوات. وهم على كل حال عدوا الجدة فريستهم . وعندئذ حدث ماتنبا به الجميع .

واليك كيف حدث :

انطلقت الجدة في اللعب مباشرة على الصفر ، آمرة اياي ان اضع

عليه مائة وعشرين فلورينا او اثنى عشر فريدريشـــدورا . وكررت ذلك مرة ، ومثنى ، وثلاث ، ولم يظهر للصفر اثر . وصاحت الجدة وهي تلكزنى بصبر نافد : « استمر . استمر ! » فقاطعتها . وسألتنى اخيرا وهى تصرف باسنانها من نفاد الصبر : « كم مرة راهنا ؟ » فاجبتها : « اثنتى عشرة مرة ياجدة . خسرنا فيها مائة واربعة واربعين فردريشـــدورا . واؤكد لك ياجدة ان الصفر قد لا يظهر مرة اخرى قبل ساعة متاخرة من الليل ». فصاحت بضيق : « حسنا ! ضع شيئا على الصـــفر ، والف جولدن على الاحمر دفعة واحدة ! هاك ورقة نقـــد ! » ووقفت العجـــلة على الاحمر ، ولكن النقود الموضوعة على الصفر ضاعت . واستردنا بهذا الف جولدن . وهمست الجدة : « ارايت ؟ ارايت ! لقد استردنا تقريبا كل ما راهنا به (لان الالف جولدن اوفلورين تعادل مائة فردريشـــدور) . راهن على الصفر مرة اخرى ، وسنستمر في الرهان عشر مرات اخرى ثم نكف ! » . ولكن الجدة اصيبت بشبوط الهمة عند الدورة الخامســة ، فامرتنى : « ليأخذ الشيطان هذا الصفر اللعين ! ضع الاربعة الاف جولدن دفعة واحـــدة على الاحمر ! » فتوسلت اليها قائلا : « ياجدة ! هذا كثير جدا . لنفرض ان الاحمر لم يظهر » . ولكن الجدة كادت تضربنى (والواقع ان لـكزاتها كانت من العنف حتى لـكانها لطمات) فلم يبق امامى الا ان اضع الاربعة آلاف جولدن كلها التى كنا قد كسبـناها فى الصباح على الاحمر . ودارت العجلة . وجلســت الجدة هادئة ، وقد انتصبت بقامتها فى هدوء ، ولم يخالجها الشك قط فى انها رابحة . وصاح المراقب : « الصفر ! » .

وفى البداية لم تفهم الجدة ، ولـكنها عندما رأت المراقب يجمع بمجرفه نقودها كلها مع سائر ما على المائدة من نقود ، واكتشفت ان الصفر ــ الذى ابطأ كل هذه المدة فى الظهور والذى راهنت عليه وخسرت نحو الفى جولدن ــ هو الذى ظهر هذه المرة كانما ليغيظها بعد ان تخلت عنه واولته ظهرها ، نخرت فاها والقت بذراعيها الى الامام على مرأى من الجميع . وضحك المشـــاهدون طلا . وزعقت الجدة قائلة :

ـ يا اله السماء ! ها قد ظهر الملعون اخيرا ! يا له من شيء لعين حقا ! (والتفتت نحوي بضراوة) ولكن الخطأ خطؤك ! اردفعتني بيدها مستطردة) : انت منعتني من الاستمرار .

ـ مسألة حس سليم باجدة . وكيف يمكن ان اكون مسئولا عن جميع الفرص ؟

ـ عليك اللعنة انت وفرصك ! ابتعد عني !

ـ وداعا ياجدة !

واستدرت لانصرف ، فصاحت : « اليكسي ايفانتش ! اليكسي ايفانتش ! ابق ! الى اين انت ذاهب ؟ ما المسألة الآن ! لقد غضب المغفل ! تعال ! تعال الآن وابق معي فترة اخرى : لا تغضب ! فانا المغفلة . قل لي الآن ماذا اصنع ؟ » .

ـ لن اقدم لك نصحا باجدة ؛ لانك ستلومينني . العبي انت . قولي لي ماذا تريدين وانا اضع النقود كما تريدين .

ـ حسنا . حسنا ! ضع اربعة آلاف جولدن اخرى على الاحمر ! هاك حافظتي ، خذها ! (واخرجتها من جيبها واعطتني اياها) . هذا خذها . ففيها عشرون الف روبل من العملة .

ترددت وتلعثمت وانا اقول لها : « باجدة ! مثل هذا الرهان »

ـ سأسترد ماخسرت ، حتى ولو كلفني ذلك حياتي ! ضعها على الاحمر ، قلت لك ! كلها !

ـ لا استطيع باجدة ، فالحد الاعلى للرهان اربعة آلاف .

ـ راهن باربعة اذن !

وهذه المرة ربحنا ، وتهللت الجدة . ولكزتني قائلة : « ارايت! ارايت ؟ ضع اربعة الاف اخرى ! » ووضعتها ، وخسرنا ، ثم خسرنا مرتين ايضا على التوالي . فقلت لها : « لقد ضاعت الاثنى عشر كلها ياجدة ! » فقالت بهياج بارد الظهر ـ ان جاز لي هذا التعبير : « اراها ضاعت فعلا ياسيدي ! » وجعلت تنظر امامها من غير ان تتحرك . ولاشك في انها كانت في حالة تفكير حاد ، ثم قالت : « هيا . راهن باربعة الاف جولدن اخرى ... لست ابالي دلوقتلتني! » فقلت لها : « لم تبق نقود باجدة . ليس في حافظتك

شيء سوى بضعة أوراق .. ولكن لا نقود فيها . سندات روسية فقط » .

- وفى الكيس ؟

- قليل من الفكة فقط .

فقالت الجدة باصرار : « اتوجد هنا مكاتب لصرف النقود ؟ لقد قيل لي اننا نستطيع استبدال نقودنا هنا ... » فقلت : « هنا الكثير من هذه المكاتب طبعا ! ولكنك ستخسرين كثيرا جدا فى المقامرة » .

- هراء ! سأسترد كل شيء بما سأكسبه . خذني الى هناك . وناد هؤلاء الاغبياء !

فدفعت كرسيها الى الخلف . وظهر الحمالون . ودفعنا الكرسي الى خارج الكورسال . وصاحت تأمرنا : « اسرع من هذا ! اسرع من هذا ! دلنا على الطريق يا اليكسى ايفانتش . قف عند اقربهم ... اهو بعيد ؟ » فاجبتها : « بل هو قريب جدا يا جدة ! » .

وعند انطلاقنا خارجين من الميدان الى الطريق العريض قابلتنا جماعتنا بكامل هيئتها : الجنرال ، ودى جرى ، والآنسة بلانش مع امها . اما بولينا اليكسندروفنا فلم تكن بينهم ، ولا مستر استلي . فصاحت الجدة : « لا تقفوا ! ماذا تريدون ؟ ليس عندي وقت لكم ! » . وكنت امشي خلف كرسيها ، فاندفع دي جرى نحوى . ولم يتسع الوقت الا لاهمس له : « لقد خسرت كل أرباح الصباح ، وفوقها اثنى عشر الف جولدن . ونحن ذاهبون الآن لاستبدال بعض السندات الروسية (٥ ٪) » . فضرب دي جرى الارض بقدمه واندفع ليبلغ الجنرال ، فى حين اندفع كرسى الجدة الى الامام . وهمس الجنرال بفزع : « اوقفها ! كفها ! » فهمست اجيبه : « حاول ذلك انت ! » فقال الجنرال وهو يقترب منها : « ياعمتي ! عمتي ! نحن الآن .. نحن الآن .. (وتهدج صوته) فى طريقنا لاستئجار جياد لنزهة خارج البلدة . مناظر بديعة . القمة ، وكنا بسبيل الذهاب اليك لدعوتك .. » فدفعته بضيق قائلة : « بعدا لك ، انت وتمشك ! » ... فاردف الجنرال قائلا فى يأس : « هناك قرية ... وسنتناول الشاى هناك ... » وقال

دى جرى فى صياح الغضب بالفرنسية : « وسنشرب اللبن على العشب الناضر » .

واللبن والعشب الناضر ... هـــــذه هى الاغنية المثالية لدى البورجوازى الباريسى ، لانها ترمز ــ كما يعرف الجميع ــ ميله الى « الطبيعة والحقيقة » . ولكن الجدة صاحت :

ــ بعدا لك . انت ولبنك ! اشربه انت الى ان تصاب بوجع ابطن ! لماذا تضايقنى ! ليس عندى وقت ، قلت لكم !

وصحت انا : « ها نحن اولاء باجدة ! هذا هو المكان ! »

وتقدمنا الى البيت الذى يقع فيه مكتب الصـــــرف ، ودخلت لاستبدال السندات ، وانتظرتنى الجدة فى الخارج . ووقف دى جرى والجنرال وبلانش على مسافة قريبة ، وهم فى اشــــد الارتباك ورشقتهم الجدة بنظرة غاضبة ، فابتعدوا على امتداد الطريق الى الكورسال .

وكانت الشروط التى فرضها الصرف كارثة : بحيث لم استطع ان اقرر قبولها وعدت الى الجدة لأتلقى تعليماتها ، فصاحت ، باسطة ذراعيها الى الامام : « الاوغاد ! لاباس ! اتم الصفقة ! بل انتظر ! ناد المدير الى هنا ! » فقلت «الا يكفى احد الكتبة ياجدة !» فقالت : « كاتبا او غيره ، سيان ! يا لهم من اوغاد ! » .

وقبل الكاتب الخروج اليها عندما قلت له انها كونتس عجوز واهنة لا تستطيع السير . وامطرته الجدة باتهامات طويلة غاضبة بصوت عال ، تدور حول النصب والاحتيال ، وحاولت أن تساومه بخليط من الروسية والفرنسية والالمانية ، وقمت انا بالترجمة . وظل الكاتب الوقور ينقل بصره من احدنا الى الاخر فى صمت وهو يهز راسه . وكان يحملق فى الجدة بفضول كاد يصل الى حد القحة . واخيرا ظهرت على وجهه ابتسامة . وصاحت الجدة : « هيا الان ! ابدل السندات هنا يا اليكسى ابفانتش ، فليس هناك وقت ، والا ذهبت الى صرف آخر ... » فقلت لها : « انه يقول انك ستحصلين على اقل من هذا فى أى مكان لآخر .. » ولست اتذكر معدلات القطع التى حصلنا عليها ، ولكنها كانت رهيبة . واستبدلت سندات بما يوازى اثنى عشر الف فلورين ذهبا واوراق نقــــد ، وحملتها جميعا الى الجدة . فقالت وهى تلوح بيدها : « هيا !

هيا ! لا تعدها ! اسرع ! هيا بنا ! » . ولما اقتربنا من الكورسال قالت :

ـ « لن اضع ابدا شيئا على هذا الصفرالملعون ولا على الاحمر ايضا » .

وبذلت قصارى جهدى هذه المرة كي اقنعها بالمراهنة باقل رهان ممكن ، مبينا لها انه متى تحول تيار الحظ فلن يكون الوقت قد فات للمراهنة بمبالغ كبيرة . ولكنها كانت من نفاد الصبر بحيث انها ـ وان وافقتني اولا ـ لم تدع لى سبيلا لكبحها اثناء اللعب . فما ان بدات تربح ، بعد ان راهنت بمائة ومائتى فلورين؛ حتى اخذت تلكزنى صائحة : « لقد قلت لك هذا ! ارايت ؟ لقد ربحنا ! فلو كنا راهنا بأربعة آلاف جولدن بدلا من مائة لكنا ربحنا اربعة آلاف . والآن انظر كيف الحال ! انها غلطتك ! غلطتك!»

ولما كانت طريقتها فى المقامرة تغيظنى ؛ لذا قررت فى النهاية الا اقول شيئا ولا ادلى بنصيحة . وفجاة ظهر دى جرى ومعه الثلاثة الآخرون الى جوارنا . ولاحظت ان الآنسة بلانش ووالدتها وقفتا على حدة ، وراحتا تتبادلان الانحناءات مع الامير الروسى . وكان واضحا ان الجنرال فقد الحظوة ، فقد اهملناه نهائيا تقريبا . فلم تكن بلانش تعيره التفاتا ، مع انه لم يكف عن التراقص حولها . يا للجنرال المسكين! لقد شحب وجهه ثم احمر واضطرم، واستبد به العذاب ، فلم يلق باله الى مقامرة الجدة . واخيرا انصرفت بلانش مع الامير ، واوشك الجنرال ان يجرى خلفهما .

وهمس دى جرى بنبرات معسولة ، وبلغة روسية مكسرة : « سيدتى ! سيدتى ! لايمكنك ان تضعى مثل هذا الرهان ، لايمكنك ! لا . لا . لا ! » فقالت له الجدة : « لا يمكننى ؟ اذن علمنى ! » وعلى الفور شرع دى جرى يثرثر بسرعة بالفرنسية ، لينصحها ان تتربث انتظارا للفرصة المناسبة ، وان تقوم بعمليات حسابية سريعة ، فلم تفهم منه الجدة كلمة واحدة . وظل يطلب منى ان اتولى الترجمة ، وهو يدق على المائدة باصبع واحدة . واخيرا امسك بقلم رصاص وشرع يخط ارقاما . فعيل صبر الجدة منه وصاحت به : « ابتعد عنى ! كلامك كله فارغ ! كل ما تقوله

سيدتي سيدتي ! اسمع اذن ! انت لاتعرف شخصيا اى شيء عن هذا الأمر . فابتعد عني ! » ولكنه راح يعيد الشرح والتفهيم وقد تحمس واستشاط ، مرددا ايضا : « سيدتي ! سيدتي ! » فقالت لي الجدة : « اتبع نصيحته مرة ، وراهن كما يقول لك وسنرى ، فلعل الامر يستقيم ! » .

وكان كل ما يريده دى جرى ان يلهيها عن المراهنات المفرطة الارتفاع ، فاقترح عليها المراهنة على الارقام ، رقما واحدا في كل مرة ، او بتوافقات بين عدة ارقام . وتنفيذا لتعليماته وضعت عشرة فلورينات على كل رقم من سلسلة الارقام الفردية حتى ١٢ وخمسة اضعاف هذا المبلغ على سلسلة من الارقام من ١٢ حتى ١٨ ، ومن ١٨ حتى ٢٤ ، فكان مجموع المراهنات مائة وستين فلورينا . ودارت العجلة . وصاح المراقب :

ـ الصفر !

وخسرنا كل النقود . واستدارت الجدة الى دى جرى وصاحت به

ـ احمق ! فرنسي خائب ! نصيحة حقا ! اخرج من هنا لا يفهم شيئا ويزج بانفه !

وتلقى دى جرى هذه الاهانة الهائلة بهز كتفيه وانسحب ، وهو ينظر الى الجدة بازدراء . وكان شديد الحنق على نفسه لتدخله وافتقاره الى كبح النفس .

وبعد ساعة ، وبرغم كل محاولاتنا ، كنا قد خسرنا كل نقودنا . وصاحت الجدة : « الى البيت ! » .

ولم تنبس بكلمة الى ان وصلنا الى الشارع الواسع ، وهنا انفجرت سيل من الصيحات لا ينقطع حتى وصلنا الى الفندق : « يالي من حمقاء ! حمقاء غبية ! انت حمقاء غبية حقا ! » .

وما ان وصلنا الى جناحها حتى صاحت الجدة : « سأشرب الشاى ، ثم نحزم حقائبنا ونرحل ! » فقالت مارفا : « واين تريد سيدتي ان تذهب ؟ » . فقالت الجدة :

ـ وما شأنك انت بذلك ؟ احفظي مركزك ! مكانك ! يابوتابتش ! احزم كل شيء ، الحقائب والامتعة . سنعود الى موسكو ! لقد بددت خمسة عشر الف روبلا من الذهب !

ـ خمسة عشر الف ياسيدتي ! يا اله السماء !

ومد الرجل ذراعيه في تعجب، وفي ظنه انه يرضيها بذلك القول. فصرخت في وجهه :

ـ لاشيء من هذا يا احمق ! لاشيء من انينك وانتحابك ! هدوءا وصمتا ! واحزم الامتعة . والفاتورة بسرعة !

فقلت لها كي اكبح اندفاع غضبها : « القطار القادم يقوم في منتصف العاشرة ياجدة ! » .

ـ وكم الساعة الآن ؟

ـ منتصف التاسعة .

ـ شيء يضايق ! لاباس يا اليكسي ايفانتش . لم يعد معي درهم واحد . هذان سندان اجر الآن واستبدلهما لي ، فليست معي نقود للسفر ، كما تعلم .

وفعلت ما امرتني به ، وبعد نصف ساعة عدت الى الفندق ، ووجدت كل اصحابنا في حجرة الجدة . ويبدو ان انباء عودة الجدة نهائيا الى موسكو قد اثارتهم اكثر مما اثارتهم خسائرها . اجل ان رحيلها قد يكون الوسيلة لانقاذ ثروتها ، ولكن ماذا سيكون من امر الجنرال ؟ من الذي يفي بدينه لدى جرى ؟ ان الآنسة بلانش لن ترضى بالانتظار الى ان تموت الجدة ، ومن المؤكد ان تسلل الآن راحلة مع الامير الروسي او اي شخص آخر. ووقفوا في الحجرة امامها يسترضونها ويحاولون اثناءها عن عزمها . وكانت بولينا غائبة هذه المرة ايضا . والجدة تصرخ في وجوههم بغضب هائج :

ـ دعوني وحدي. دعوني وشأني ايها الشياطين ! ما شأنكم انتم بهذا ؟ وما شأن هذا الشخص بي ؟ (مشيرة الى دي جرى) . وانت ايضا ايتها النشيلة (مشيرة الى بلانش) ؟ لماذا تطلبون هكذا ؟ !

وصمتت الآنسة بلانش بكلمة فرنسية معناها « الشيطانة ! » وعيناها تتقدان غضبا ؛ ولكنها فجأة انفجرت ضاحكة واشاحت بوجهها ، ثم صاحت للجنرال بالفرنسية وهي منصرفة : « ستعيش مائة عام » . فصرخت الجدة عندئذ في وجه الجنرال : « اذن انت تدبر امورك على اساس موتي . اليس كذلك ؟ اخرج من هنا ! اطردهم جميعا يا اليكسي ايفانتش ! ماشأنكم بي جميعا ! لقد خسرت نقودي لا نقودكم ! » .

فتراجع الجنرال محرجا وهز كتفيه وغادر الحجرة ، ولبعه ى جرى . وصاحت الجدة بمارفا :

ـ استدعى براسكوفيا !

وبعد خمس دقائق عادت مارفا ببولينا التى كانت طيلة هذا الوقت فى حجرتها مع الطفلين وكان باديا عليها انها كانت قد قررت الخروج طول النهار . وكان وجهها جادا حزينا مهموما . وقالت لها الجدة :

ـ خبرينى يابراسكوفيا ! اصحيح ان زوج امك الابله يريد ان يتزوج هذه الفتاة الفرنسية المختلة العقل! انها ممثلة ، اليس كذلك؟ هذا ان لم تكن شيئا اسوا ! اخبرينى اصحيح هذا ؟

ـ لست اعرف عن يقين ياجدة. ولكن مما تقول الآنسة بلانش نفسها ، وهى لا ترى داعيا للكتمان استنتج ...

فقاطعتها الجدة بحرارة قائلة : « كفى ! فهمت كل شىء ! لقد كنت دائما اعتقد ان الامور ستصل معه الى هذا. وكنت اعده دائما خفيف العقل مغفلا . ويتظاهر بالعظمة لانه جنرال (وانما كان عقيدا ولم يرق جنرالا الا عند احالته للتقاعد) ويخال نفسه اهم شخص فى الدنيا ... انى اعرف كل شىء عن هذا الامر ياعزيزتى ، وكيف كنتم ترسلون البرقية تلو البرقية الى موسكو « الن تفارق العجوز الحياة قريبا ؟ » وكل هذا طمعا فى الميراث ! فبدون النقود هذه الصبية الحقيرة ـ ما اسمها ؟ دى كومنج ؛ اليس كذلك ؟ ـ لن تقبل ان يكون من خدمها ، بأسنانه الصناعية ! ويقولون ان لديها كومة من الاموال شخصيا تقرضها بالفائدة ؛ وانها كونت لنفسها ثروة ! وانا لا الومك يابراسكوفيا ، فلم تكونى انت التى ارسلت البرقيات . ولا اريد ان انبش الماضى ايضا ؛ فانا اعرف حدة مزاجك ـ ايتها النحلة اللاذعة ! ان لدغتك حارقة ، ولكنى شغوف بك ، لانى كنت احب امك . والآن ما قولك ؟ دعيهم جميعا وتعالى معى ! فليس لديك مكان آخر تذهبين اليه ، ولا يليق بك ان تبقى معهم الآن . (ثم قاطعت الجدة بولينا التى كانت توشك ان تتكلم) انتظرى ! انا لم اتم كلامى ! لست اطلب منك شيئا . انت تعرفين بيتى فى موسكو . انه قصر . ويمكنك ان تشغلى طابقا باسره فيه ، ولن تكونى بحاجة الى الدنو منى اسابيع بطولها ، ان لم تحبى

حدة طبعي . والآن ما جوابك : نعم ام لا ؟ »

ــ دعيني اسألك اولا : انت راحلة حقا على الفور ؟

ــ اتحسبينني امزح يا آنسة ؟ لقد قلت انى راحلة وسأرحل. لقد خسرت خمسة عشر الف روبل في روليتكم المثلث اللعنات اليوم! ومنذ خمس سنوات كنت قد وعدت باعادة الكنيسة الخشبية في ضيعتي بالحجر ، ولكني بدلا من هذا بددت نقودى . وهانا عائدة لأجدد بناء الكنيسة .

ــ والمياه المعدنية ياجدة ؟ لقد حضرت للاستشفاء بها .

ــ انت ومياهك ! لا تضايقيني ياپراسكوفيا . اتضايقينني عمدا ؟ اقادمة انت معى ام لا ؟

فقالت بولينا بتأثر : « انا مقدرة لجميلك ياجدة . وشاكرة جدا جدا لانك تقدمين لى بيتا . وقد خمنت جانبا من وضعى ، وقد بلغ من عرفاني لجميلك انى سآتى اليك ــ وربما كان ذلك قريبا جدا ــ ولكن هناك اسبابا هامة ، ولايمكنني ان اقرر فورا في هذه اللحظة . فلو بقيت هنا اسبوعا او اسبوعين ...

ــ معنى هذا انك لا تريدين ؟ ..

ــ بل معناه انى لا استطيع . وليس في وسعى على اى حال ان اترك اخى واختى . ولما كان من المحتمل عند تركى لهما ان يتبدا تماما ويتخلى الجميع عنهما ؛ فان كنت تودين اخذى ومعى الطفلان ياجدة ، ففي هذه الحالة طبعا سآتى اليك . وتأكدى ياجدة انى لا اكون عاقة او جاحدة . ولكني لا استطيع القدوم بدونهما ياجدة . (قالت ذلك بحرارة وتأثر) .

ــ لاتبتئسي الآن ! (ولم تكن بولينا مبتئسة ولم تبك قط) سيكون هناك مكان لفرخيك ايضا . فعشة دواجنى رحبة ! ثم ان الوقت قد حان لذهابهما الى المدرسة . اذن سوف لا تأتين الآن ؟ اعلمى ياپراسكوفيا انى قصدت بذلك خيرك ومصلحتك . واما اعرف لماذا لا تريدين المجىء معى ! انا اعرف كل شىء ياپراسكوفيا ! هذا الفرنسى لن يؤدى بك الى خير !

فتضرج وجه بولينا . وانا شخصيا اجفلت ، الجميع يعرفون ! انا وحدى الذى لا اعلم شيئا !)

ـ لا تقطبي ! فلن اكالفك ! ولكن خذي حذرك حتى لاتصابي بسوء ! انت فتاة ذكية بارعة . وسيؤلمني أن يصيبك سوء . والآن هذا يكفي . وقد أصابني الغثيان منكم جميعا . انصرف ! وداعا !

ـ سآتي واودعك على المحطة ياجدة ..

ـ كلا ! لا تاتي ! ستكونين اداة تعطيل ، لا اكثر ! الا يريد احد منكم ان يدعني وشأني ؟

فقبلت بولينا يد الجدة ، ولكن الجدة انتزعت يدها ، وقبلت بولينا على وجنتها . وعند مرور بولينا بجواري ، رمتني بنظرة سريعة ثم اشاحت ببصرها عني .

وقالت لي الجدة : « وداعا لك انت ايضا يا اليكسي ايفانتش ! لم يبق على قيام القطار سوى ساعة . واحسبني قد اجهدتك . خذ هذه الخمسين قطعة ذهبية » .

ـ اشكرك كثيرا ياجدة ، ولكني لا احب ...

فصرخت الجدة في وجهي : « وبعدا» وكانت صرختها من الحدة بحيث لم اجسر على الرفض ، واخذت النقود ، واردفت هي : « وان لم تجد لنفسك عملا عندما تعود الى موسكو ، تعال الى ، وسوف أجد لك شيئا . والآن انصرف ! » .

وذهبت الى حجرتي ورقدت على فراشي . ولابد اني ظللت راقدا على ظهري نصف ساعة ، ويداي خلف راسي . فقد حلت النكبة، وعندي الكثير مما يحتاج الى تفكير. وقررت ان اصر على حديث مع بولينا في اليوم التالي ها ! الفرنسي ! اذن كان الأمر صحيحا. ولكن الى اين تنتهي الامور بعد كل شيء ؟ بولينا ودى جرى . يا لهما من زوجين بحق السماء !

كان شيئا لايمكن تصديقه . وفجاة وثبت واقفا ، وقد خرجت عن طوري ، وقررت الذهاب فورا للبحث عن مستر استلي وان اجبره باى ثمن على الكلام . فهو ايضا بلا شك يعرف اكثر مما اعرف . مستر استلي ؟ انه لغز آخر اواجهه . ولكني سمعت طرقة على الباب ، فرفعت راسي لارى بوتابتش !

ـ سيدي اليكسي ايفانتش ! السيدة تريد أن تراك !

ـ ما الخبر ؟ اهي راحلة ؟ سيقوم القطار بعد عشرين دقيقة .

ـ انها مضطربة ياسيدي ، ولا تكاد تستقر في مكان . وطلبتك بسرعة . فاسرع بحق المسيح عليك !

فجريت انزل السلم على الفور ، وكانت الجدة قد حملت الى الدهليز فعلا : وكيس نقودها في يدها ، وصاحت بي :

ـ تقدمني ! هيا بنا !

ـ الى اين ياجدة ؟

ـ سأربح ماخسرت ولو كلفني هذا حياتي ! هيا . تقدم ! لا اسئلة ! انهم يلعبون هناك الى نصف الليل . اليس كذلك ؟

وصمت . ولكني بعد لحظة تفكير حزمت امري وقلت :

ـ آسف جدا يا انتونيدا فاسيليفنا! ولكني لا استطيع الذهاب!

ـ ولم لا ؟ ما الحكاية الآن ؟ اجننتم جميعا ؟

ـ آسف جدا ، والا للمت نفسي بعد ذلك ، لن اذهب ! ولن اكون شاهدا ولا متواطئا . اعفني يا انتونيدا فاسيليفنا ! وهاهي الخمسون فريدريشدورا ، خذيها ، ووداعا ! (ووضعت لفافة النقود الذهبية على مائدة صغيرة قرب كرسي الجدة المتحرك ، وانحنيت وابتعدت) . فصرخت الجدة من خلفي : « ما هذا الهراء لا تذهب ان لم تكن تريد ذلك ، فسأعرف كيف اجد طريقي من تلقاء نفسي . تعال معي بابوتابتش ! والآن احملوني ! هيا ! » .

ولم اعثر على مستر استلي فعدت الى حجرتي . وفي وقت متاخر جدا ، بعد منتصف الليل ، عرفت من بوتابتش كيف كان ختام يوم الجدة : فقد خسرت كل ما استبدلته لها ، وهو يعادل من عملتنا عشرة آلاف روبل. وكان البولندى الذى كانت قد اعطته قبل فترة وجيزة فريديشدورين قد اخذها تحت جناحه . وقاد العابها طول الوقت . وكانت قبل ظهور البولندى قد حاولت جعل بوتابتش يراهن لها ، ولكنها سرعان ما نحته جانبا . وعندئذ ظهر البولندى ومن حسن الحظ انه كان يفهم الروسية ، بل ويتكلم قليلا بمزيج من ثلاث لغات ، بحيث امكنهما ان يتفاهما . وقال لى بوتابتش :

ـ « كانت الجدة تسبه بلا رحمة طول الوقت ، ومع انه كان يقبل هدب ثوبها ، الا انه لايمكن مقارنته بك يا اليكسى ايفانتش ! لقد كانت تعاملك كسيد مهذب ، اما هذا البولندى ـ ويصعقنى الرب

ان كنت كاذبا ـ فقد رايته بعيني راسي يسرق نقودها من فوق المائدة. وقد ضبطته بنفسها مرتين، والهبته بساط لسانها المقدع. آه من الكلمات التي تفوهت بها حينئذ ! بل لقد شدت شعره ذات مرة ، فضحك الناس جميعا . وقد خسرت كل شيء ياسيدي. كل ما كان معها ، وكل النقود التي استبدلتها لها ! وقد اعدناها الى هنا . ولم تطلب سوى جرعة ماء ، ثم رسمت الصليب على صدرها واوت الى فراشها . ولابد انها انهكت قواها : لانها نامت على الفور. انعم الله عليها باحلام الملائكة . اف لهذه الاوضاع الاجنبية! ولقد كنت اعلم ان هذه ستكون النهاية الوخيمة ! وكلما عدنا الى موسكو بسرعة كان ذلك افضل . اليس لدينا في موسكو كل شيء ؟ الحديقة والازهار التي لا مثيل لها هنا . والعبير واشجار التفاح والانفساح ، ولكن كلا ! لقد صممت على السفر للخارج ! وهذه هي النتيجة ! » .

الفصل الثالث عشر

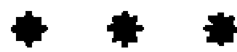
مر نحو شهر كامل من غير ان القى ولو نظرة واحدة على هذه المذكرات التي بدات تحت تاثير انطباعات كانت شديدة الحيوية ، مع انها مربكة محيرة . وكانت الكارثة التى كنت قد توقعتها فى ذلك الحين قد وصلت الى ذروتهـــا ، ولكن بصورة اشـــد مفاجاة وعنفا مما توقعته . فقد تمخضت الامور عن نتائج بشعة غريبة ، بل ومأسوية ـ على الاقل بالنسبة لى ، فحدثت لى تجارب تكاد توصف بانها اعجازية ! وهكذا على كل حال لم ازل انظر اليها ، وان كانت من وجهة نظر اخرى ، وبالقياس للدوامة التى خضت فيها وقتئذ ، لا تعدو ان تكون مخالفة للمعتاد بعض الشىء . ولكن الخارق اكثر من كل ماعداه بالنسبة لى انما هو موقفى من هـذه الاحداث . ولم ازل حتى يومنا هذا عاجزا عن فهم نفسى ! لقد مر كل شىء كالحلم ، حتى هواى المحتدم. لقد كان هوى محتدما عنيفا وصادقا بلا ريب ، ولـكن اين هو الآن ؟ ان التفكير فيـه يومض بالفعل فى ذهنى بين الحين والحين ، فاقول لعلنى كنت مجنونا، ولعلنى قضيت كل هذه الفترة فى مستشفى للمجاذيب ، او لعلنى لم ازل هناك . او لعل كل شىء كان محض تخيل ، بل لعله الآن لم يزل محض تخيل ...

وقد جمعت مذكراتى وقراتها من اولها لآخرها (ومن يدرى؟ لعلنى مافعلت هذا الا لأؤكد لنفسى انها لم تكتب فى مستشفى للمجاذيب؟). وانا الآن بمفردى تماما. وهاهو الخريف قد خيم ، واوراق الشجر اخذت تصفر. وهانذا فى هذه البلدة الصغيرة (وما اشـد قتامة الحياة فى البلدان الالمانية الصغيرة احيانا !) وبدلا من التفكير فى خطوتى التالية ، تركت نفسى نهبا للاحساسات العابرة ، والذكريات الحديثة ، ولتلك الدوامة التى اسرتنى ودارت بى ثم تركتنى ملقى الله اعلم اين ! ويخيل لى احيانا انى ما زلت فى الدوامة ، وان العاصفة قد تثور فى اى لحظة ، فتحملنى على اجنحتها ، وعندئذ

افقد كل احساسي بالترتيب او النظام : والتناسب وانا ادور معه وادور وادور ...

وقد يعينني على التوقف عن الدوران ، والاستقرار ان اسرد هنا بكل الدقة الممكنة جميع مغامرات هذا الشهر . وهانذا احس الدافع على ان اتناول قلمي . ثم هناك اشياء كثيرة لا اجد لدى ما اصنعه فيها على الاطلاق . وانه لشيء مضحك ولكن لمجرد ان اصنع شيئا كنت احصل من المكتبة الجائلة هنا على روايات بول دى كوك (بالالمانية) وانا لا اكاد اطيقها ، واقراها ، وانا اعجب من امر نفسى ! ويبدو انى خائف من قراءة اى شيء جـــــدى ، او الاشتغال بأى امر جدى فذلك يمكن ان يكسر سحر ما مر بى . وقد يحسب المرء ان هذا الحلم البشع وجميع الانطباعات الناجمة عنه كانت ثمينة غالية على بحيث انى اخاف ان امحصها ، خوفا من تلاشيها كالدخان . اهى حقا غالية ثمينة عندى ؟ اجل ، بالطبع! فلعلنى اظل ذاكرها بعد اربعين عاما من اليوم !

ولذا ســامضى فى الكتابة . واحسب انه يمكن ان تسرد الآن بمزيد من الايجاز ، فالانطباعات لم تعد على اشدها .



ولنفرغ اولا من امر الجدة . فى اليوم التالى خسرت كل ماكانت تملكه . وكان لابد ان يحدث هــذا . فالذين على شــاكلتها ممن يتعثرون على هــذا الطريق لا مفر من تردبهم الى اســفل بسرعة متزايدة ، كانهم سقطوا من قمة زلاقة . وقد ظلت تلعب طول النهار الروليت حتى الثامنة مساء . ولم اكن هناك ، وكل ما اعرفه عن ذلك انما هو بطريق السماع .

وكان بوتابتش واقفا الى جوارها طول النهار فى الكورسال . والبولنديون الذين يرشدون الجدة كانوا يتناوبون ذلك جملة مرات . وقد بدات بطرد البولندى الاول ، الذى كانت قد جذبت شعره فى اليوم الســابق ، واتخذت لنفسها بولنديا آخر ، ولكن هذا الآخر تبين لها انه اسوا من الاول ، فطردته واعادت الاول - الذى لم يكن قد ابتعد كثيرا ، بل شق لنفســه مكانا بجوار كرسيها طوال مدة نفيه ، وراح يدفع برأســه الى الامام نحوها باستمرار ، حتى اصابها الياس . ورفض البولندى الآخر ايضا ان يبتعد ؛ بل وقف احدهما

من يمينها والآخر عن يسارها . وكانا يتشاجران ويسب احدهما الآخر حول الرهانات طول الوقت باللغة البولندية ، ثم يتصالحان ويلقيان بالنقود على المائدة بدون اى منهج محدد . وعندما كانا يتشاجران كان كل منهما يلقى رهانا من جانبه ، احدهما مثلا على الاسود والآخر على الاحمر. وانتهى ذلك كله بفوضى ارعجت الجدة ، فاتجهت وهى تكاد تبكى الى المراقب المسن ترجوه أن يحميها منهما ويطردهما ، فتم طردهما على الفور برغم صياحهما واحتجاجهما ، وصراخهما معا ان الجدة مدينة لهما بنقود . وانها خدعتهما وعاملتهما بانحطاط وعدم امانة !

وقد حكى لى بوتابتش ذلك كله وهو يبكى فى ذلك المساء نفسه ، بعد الخسائر النهائية ، مقسما انهما حشيا جيوبهما بالمال الذى رآهما يسرقانه بلا حياء ؛ اذ كانا فى كل لحظة يضعان جانبا من نقودها فى جيوبهما. وقدطلب احدهما مثلا خمسة فريدريشدورات العابا له ، ثم وضعها مباشرة على مائدة الروليت الى جانب رهان الجدة . وربحت الجدة ، ولكنه صاح ان رهانه ربح اما رهانها فخسر . ولما تم طردهما تقدم اليها بوتابتش واخبرها انجيوبهما ملآنة من نقودها ، فطلبت من المراقب ان يتحرى هذا التبليغ . وبرغم احتجاجات البولنديين (اللذين بدوا كديكين انقضت عليهما ايد مجهولة) جاءت الشرطة وافرغوا جيوبهما لمصلحة الجدة . ذلك انها ظلت تتمتع بسلطة واضحة طالما انها لم تخسر كل شىء فى نظر المراقبين وادارة الكورسال بأسرها . وانتشرت شهرتها وذاعت بالتدريج فى البلدة كلها ، وهكذا تدفق كل زوار هذا المنتجع منجميع الجنسيات ، ومن اعلى الطبقات وادناها على الكورسال كى يروا « الكونتسة » الروسية العجوز التى ارتدت للطفولة ؟ والتى خسرت حتى الآن « عدة ملايين » .

ولكن الجدة لم تكسب الا القليل جدا بتخلصها من البولنديين. اذ سرعان ما تقدم بولندى ثالث يتكلم الروسية باتقان ويرتدى ثياب السادة ــ وان كان فيه شىء من سمات الخدم ــ وله شارب ضخم وفيه غطرسة شديدة ، وعرض خدماته عليها بدلا منهما . وكان هو ايضا يقبل اصابع قدمى المدام واهداب ثوبها ؛ ويعامل من حوله بتعال ، مصدرا اليهم اوامر استبدادية . اى انه فى

الحال عد نفسه ليس خادم الجدة بل سيدها . وفى كل دقيقة وبعد كل دورة من دورات عجلة الروليت كان يقسم للجدة اغلظ الايمان انه سيد بولندى ، ولن يأخذ من نقودها درهما واحدا وظل يكرر هذه الايمان حتى فزعت الجدة . ولكن بما ان حظها تحسن فى البداية وبدات تربح ، لذا لم يطاوعها قلبها على التخلى عنه . وبعد ساعة واحدة ظهر البولنديان اللذان كانا قد طردا من الكورسال خلف كرسى الجدة ، وعرضا عليها خدماتهما مرة اخرى ولو كسماة . وكان بوتابتش على اتم استعداد ان يقسم على ان البولندى الثالث كان يتبادل الضمرات معهما .. بل وكان يدس اليهما شيئا فى ايديهما . ولما كانت الجدة لم تتناول غداءها ، ولم تغادر كرسيها ، لذا كان احدهما نافعا لها ، فارسلته الى مطعم الكورسال ، الذى كان بابه مجاورا للكازينو ، واحضر لهـا كوبا من الحساء ، ثم شيئا من الشاى بعد ذلك . فجريا كلاهما الى الواقع لتنفيذ طلبها . ولكن فى نهاية النهار ، عندما بدا واضحا للجميع انها بصدد خسارة آخر ما معها من اوراق النقد ، تجمع ستة بولنديين وراء كرسيها لم يرهم احد او يسمع بهم من قبل وفى اللحظة التى خسرت فيها فعلا آخر دراهمها لم يلق احدهم اليها باله ، بل انحنوا من فوقها على المائدة ، وراحوا يلتقطون النقود ويصدرون الاوامر ويراهنون ويتجادلون ويتصايحون ، ويخاطبون السيد البولندى بكل الفة ، فى حين كان هو قد نسى فيما يبدو مجرد وجود الجدة هناك . وحتى بعد ان خسرت كل شىء وعادت الى الفندق فى الساعة الثامنة ، كان هناك ثلاثة بولنديين او اربعة لايطيقون فراقها ، ويجرون بجوار كرسيها على الجانبين ، صائحين باعلى اصواتهم ومدعين بلا انقطاع ان الجدة خدعتهم ولابد لها من الوفاء بحقوقهم . واستمر هذا طول الطريق الى الفندق ، حيث تم طردهم .

وطبقا لحسابات بوتابتش خسرت الجدة فى ذلك اليوم تسعين الف روبل ، بالاضافة الى ما كانت قد خسرته فى اليوم السابق وكانت تستبدل ما معها من السندات الواحد تلو الآخر (سندات ٥ ٪ وقروض داخلية ، وضمانات) . وكنت على وشك ان ابدى دهشتى لان الجدة ظلت طوال هذه السبع او الثمانى ساعات جالسة

فى كرسيها لا تكاد تغادر المائدة ، ولكن بوتابتش قال لى انها بدأت ثلاث مرات فى الربع . دُمدها ذلك بامل لايدع لها سبيلا للابتعاد عن المائدة . ويعرف المقامرون تمام المعرفة كيف يستطيع الشخص ان يجلس فى نفس الموضع طول النهار وطول الليل تقريبا وعينه على اكداس المال عن يمينه ويساره .

وفى هذه الاثناء كانت امور على اعظم جانب من الاهمية تجرى فى الفندق . فمنذ الصباح الباكر وحتى الساعة الحادية عشرة — حينما كانت الجدة لم تزل فى جناحها — كان صاحبانا — اعنى الجنرال ودى جرى — قد قررا اتخاذ خطوة اخيرة . فعندما علما ان الجدة لا تفكر فى السفر ، بل تزمع الذهاب الى الكورسال مرة اخرى ، ذهب الجميع بكامل هيئتهم — ما عدا بولينا — ليتحدثوا اليها حديثا اخيرا صريحا . وكان الجنرال يترنح تحت وطأة التفكير فى النتائج الرهيبة بالنسبة لنفسه ، ولذا بالغ فى تصرفاته بعض الشىء . فبعد نصف ساعة من الرجاء والتوسل ؛ حتى لقد ذهب الى حد الاعتراف بكل شىء ، اعنى بكل ديونه وبهواه المحتدم بالآنسة بلانش (لانه كان قد فقد عقله تماما) اتخذ فجاة لهجة تهديدية ، فصرخ فى وجه الجدة وضرب الارض بقدمه . وصاح بانها تلطخ اسرتهم بالعار ؛ جاعلة من نفسها احدوثة البلدة ، واخيرا .. اخيرا : « انت تلطخين الاسم الروسى بالعار ياسيدتى ! ولماذا تظنين قد خلق الله الشرطة ؟ » . فما كان من الجدة اخيرا الا ان طردته بعصاها (عصا حقيقة) . واجتمع الجنرال ودى جرى للتشاور مرة اخرى او مرتين فى ذلك الصباح ؛ وكانت النقطة الرئيسية التى يناقشانها : كيف يجدان ذريعة يدعوان بها الشرطة التدخل ؟ الا يمكنهما — مثلا — ان يقولا ان العجوز المسكينة جنت ، وانها لذلك تقوم على المقامرة بآخر درهم تملكه ، وما الى ذلك ؟ وبعبارة اخرى الا يمكنهما الحصول على نوع من الاشراف عليها ، او الحظر على تصرفاتها ؟ ولكن دى جرى هز كتفيه وضحك فى وجه الجنرال ، الذى لم يعد يدرى ماذا يقول ومن اى شىء يتكلم ؛ بل هو يثرثر بلا انقطاع وهو يذرع ارض حجرة جلوسه . واخيرا لوح دى جرى بيده ثم اختفى ، لا احد يدرى الى اين . وفى المساء اتضح انه غادر الفندق نهائيا ، بعد حديث جاد وخفى مع الآنسة بلانش . اما هى فقد اتخذت خطوات

حاسمة في ذلك الصباح نفسه ، تنبذت الجنرال تماما ولم تسمح له بمقابلتها . ولما جرى وراءها الى الكورسال وقابلها وذراعها في ذراع الامير ، قاطعته تماما هي وامها ، ولم يرد الامير على تحيته ايضا . وكانت الآنسة بلانش قد قضت النهار بطوله محاولة استدراج الامير ان يتخذ خطوة صريحة . ولكن وا أسفاه ! .. ففي ذلك المساء نفسه حدثت الكارثة ، واتضح فجأة ان الامير مفلس ؛ وكان يعول على اقتراض بعض المال منها بضمان سند يحرره على نفسه ، كي يلعب الروليت ، فطردته بلانش باحتقار واستنكار ، واغلقت عليها حجرتها !

وفي ذلك المساء بعينه كنت قد ذهبت لزيارة مستر استلي ، او على الاصح ينبغي أن اقول اني ظللت طول الصباح ابحث عن مستر استلي من غير ان اعثر له على اثر . فلا هو موجود في حجراته ، ولا في الكورسال . ولم يتناول غداءه في فندقه ذلك اليوم . وفي الساعة الخامسة لمحته فجأة قادما من محطة السكة الحديدية الى فندق انجلترا - وكان في عجلة شديدة من امره ، ويبدو مشغول البال . وان لم يكن من السهل التعرف على امارات هم او انزعاج على محياه . وبسط لي يده في مودة ، ولكنه لم يتوقف لنتحدث ، واستمر في سيره الحثيث . ولزمت جانبه ؛ ولكنه كان يرد على اسئلتي بطريقة جعلت من المستحيل على المضي في الاسئلة . ولم استطع ان احمل نفسي على ذكر بولينا على لساني . وهو شخصيا لم يوجه اي سؤال عنها . واخبرته بما كان من الجدة ، فاصغى بجد وهز كتفيه . فقلت :

- انها ستخسر كل ما تملك .

- نعم . لقد رايتها وهي في طريقها الى الموائد قبل أن انصرف ، وكنت واثقا تماما بانها سوف تخسر . وساذهب - ان اتسع وقتي - الى الكورسال كي اشاهدها ، فذلك شيء طريف جدا .

وعندئذ صحت . وانا اعجب لنفسي كيف لم اوجه اليه هذا السؤال من قبل .

- اين كنت ؟

- في فرنكفورت .

- في عمل ؟

– نعم . في عمل .

وماذا كنت مستطيعا ان اقول اكثر من هذا ؟ ومهما يكن من شيء ، فقد استدار محدثي وانا سائر بجواره ، نحو فندق « الفصول الأربعة » الذي كان على طريقنا . واحنى لي واختفى بالداخل . وفي طريق عودتي الى الفندق اكتشفت بالتدريج انني لو كنت قضيت ساعتين اتحدث اليه لما عرفت شيئا على الاطلاق ، لانه – بعد كل شيء – ليس هناك اي شيء اسأله عنه . هذه هي المسألة. فلا يبدو ان هناك سبيلا كنت اطرقه لصياغة السؤال الذي اوجهه اليه .

وكانت بولينا طول اليوم اما تشاهد متنزهة مع الطفلين ومربيتهما في البستان ، واما ان تبقى في الفندق . وكانت لها مدة طويلة وهي متجنبة للجنرال ونادرا ما تكلمه ، في اي موضوع جدي على الاقل . وقد لاحظت هذا منذ امد طويل . ولكني اذ علمت الوضع الذي اصبح فيه الجنرال قدرت انه لن يكون قادرا على تجنبها . وبعبارة اخرى انه لا محاله ستجري مناقشات عائلية هامة بينهما . ولكني عندما رجعت الى الفندق على اثر حديثي مع مستر استلي التقيت ببولينا والطفلين ، وكان وجهها ينم على اشد الطمأنينة . وكأن كل هذه العواصف العائلية قد تجاوزتها ومرت بها وحدها من الكرام ، واومأت لي ردا على تحيتي ، ومضيت الى حجرتي وانا في اشد الضيق .

اجل انني كنت انحاشاها ، ولم اسع الى صحبتها بعد حادث آل فورموهلم ، ولكن هذا كان مجرد تظاهر من جانبي . وبمرور الوقت نما الاستنكار في داخلي بقوة متزايدة . وحتى ان لم تكن تحبني اطلاقا فليس لها الحق في ان تدوس بقدمها على مشاعري وتتلقى اعترافاتي وعهودي بمثل هذه الزرايه . وهي – بعد كل شيء – تعلم انني احبها باخلاص وجد . وهي شخصيا سمحت لي ان اتحدث عن ذلك اليها . ومنذ مدة طويلة – حوالي الشهرين – لاحظت انها تريد ان تجعل مني صديقها وموضع سرها ، بل وبدأت تبذل محاولات في هذا الاتجاه . ولكن لسبب ما لم تثمر هذه الجهود يومئذ . وبدلا من ذلك نبتت بيننا علاقاتنا الغريبة الحالية . ولذا بدأت اكلمها بالطريقة التي اتبعتها . ولكن ان كان

حتى نفيضا اليها ؛ فلماذا لم تحرم على الكلام عنه فورا ؟

كلا . لم تحرمه على . بل كانت هى شخصيا تشجعنى على الكلام عنه .. و .. بالطبع كان كل مرادها من ذلك ان تضحك منى . وانا اعرف بالتأكيد . ومقتنع كل الاقتناع انها كانت تحب - بعد سماعى واغاظتى الى حد الايلام - ان تلعب على ملعوبا شيطانيا تظهر فيه كل ازدرائها وتهوينها من شأنى . ولكنها تعرف اننى لا استطيع ان اعيش بدونها . وها قد مرت ثلاثة ايام بعد موضوع البارون ، ولم اعد اطيق هذا الفراق . وعندما التقيت بها قرب الكورسال خفق قلبى بعنف فشحب لونى . وهى ايضا لايمكن ان تمضى فى حياتها بدونى . انها بحاجة الى . وقطعا قطعا ؛ ليس كمهرج البلاط فحسب ! ان لديها سرا . هذا واضح . وحديثها مع الجدة كان طعنة لفؤادى . وقد تحديتها الف مرة ان تكون صريحة معى ؛ وكانت تعلم انى مستعد حقيقة ان اضع حياتى تحت قدميها . ولكنها كانت دائما تردنى عن هذا بما يشبه الازدراء ، او - بدلا من تضحية حياتى كما عرضت عليها - تطلب منى الاعيب مثل التى اقدمت عليها مع البارون . اليس هذا شائنا؟ ايمكن ان يكون الفرنسى هو الدنيا بأسرها لديها ؟ ومستر استلى ؟ لا استطيع ان اعرف لهذا كله راسا من ذيل . ومع هذا . بالله! لكم قاسيت !

وعند عودتى الى الفندق تناولت القلم فى ضرب من الثورة وخططت اليها السطور التالية :

« بولينا الكسندروفنا - ارى بوضوح ان حلا نهائيا يوشك ان يقع ولابد ان يمسك ايضا ؟ وانى اسألك للمرة الاخيرة : اتريدين حياتى أم لاتريدينها ؟ فان كنت تريدينها - على اى نحو كان - تولى هذه الكلمة ؛ وسأكون فى الوقت الراهن بحجرتى ؛ معظم الوقت على الاقل - ولن اذهب الى اى مكان . فان احتجت الى اكتبى الى او ارسلى فى طلبى » .

واقفلت هذه الرسالة وارسلتها مع خادم الدهليز وطلبت منه ان يسلمها ليدها شخصيا . ولم اكن اتوقع ردا . ولكن بعد بضع دقائق عاد الى الرجل برسالة فحواها ان السيدة تبعث الى بتحيتها .

وفى نحو الساعة السابعة استدعانى الجنرال . وكان فى حجرة جلوسه ، مرتديا ثيابه بما يدل على تأهبه للخروج ، فعصاه وقبعته على الاريكة . وعندما دخلت بدا لى انه كان واقفا فى وسط الحجرة وقد باعد ما بين ساقيه ، وطأطأ رأسه ، وراح يكلم نفسه . ولكنه ما ان لمحنى حتى اندفع نحوى صائحا ، بحيث اننى تراجعت الى الوراء تلقائيا ، وكأننى أهم بالفرار ، ولكنه امسكنى بيديه وجرنى الى الاريكة .. وجلس هو على الاريكة واجلسنى على كرسى امامه مباشرة ، من غير ان يترك يدى ، واخذت شفتاه ترتجفان ، ولمعت بين اهدابه دموع مفاجئة ، وقال بلهجة التوسل :

ــ اليكسى ايفانتش ! اليكسى ايفانتش ! انقذنى . انقذنى . ارحمنى !

وظللت برهة طويلة لا افهم شيئا . وطفق هو يكرر بلا انقطاع : « ارحمنى . ارحمنى » . واخيرا ادركت انه كان يتوقع منى شيئا فى صورة نصيحة . او لعله ــ وقد هجره الجميع وتركوه نهبا للحزن والقلق ــ تذكرنى وارسل فى طلبى كى يتكلم . ويتكلم . ويتكلم .

كان يبدو كمن مسه الخبل . او على الاقل انه فى حالة حيرة قصوى ، فكان يشبك يديه كالذاهب لالقاء نفسه راكعا امامى لو اننى ــ ماذا تظن ؟ ــ رضيت ان اذهب الى الآنسة بلانش لأتوسل اليها ، واقنعها بالعودة اليه ، كى تتزوجه ! فصحت :

ــ وكيف هذا ياجنرال ؟ لعل الآنسة بلانش لاتكاد تدرك وجودى ! فماذا استطيع انا ان اصنع ؟

ولكن لم تكن هناك فائدة من الاعتراض ، لانه لم يكن يفهم ما يقال له . وراح يتكلم عن الجدة ، ولكن بجموح ... ولم يزل متشبثا بفكرة ابلاغ الشرطة . وانفجر يقول فى استنكار :

ــ فى وطننا ، فى وطننا . اى باختصار فى دولة مستقرة ثابتة الدعائم بها سلطات ، لا مفر من تعيين اوصياء على عجوز مثلها . نعم ياسيدى العزيز . نعم (وانتقل بلهجته الى الوعظ واللوم وراح يذرع الحجرة) انت لم تعرف هذا بعد ياسيدى العزيز . (وبدا كما لو كان يخاطب « سيدا عزيزا » وهميا فى ركن الحجرة) ولكنك ستعرفه ياسيدى العزيز . نعم ، فنحن نعرف كيف نتعامل مع

العجائز من النساء في وطننا . أؤكد لك . آه . يا الهي !

والقى بنفسه على الاريكة مرة اخرى ، وبعد ذلك بدقيقه ، أسرع يقول لي وهو يلهث ويكاد يبكي ان الآنسة بلانش لا تريد ان تتزوجه لأن الجدة حضرت بنفسها بدلا من البرقية ؛ وقد صار الآن واضحا انه لن يرث شيئا . وبدا انه يظنني لا أعرف شيئا عن هذه المسألة. وحاولت أن اقول شيئا عن دى جرى ولكنه اسكتني بايماءة من يده وقال :

ـ لقد رحل ! وكل املاكي مرهونة له . لقد صرت مفلسا تماما. والمال الذى احضرته انت .. هذا المال الذى لا ادرى كم كان يبلغ، لم يبق منه الا سبعمائة فرنك .. وهذا كل ما تبقى لي من نقود. ومتى نفد . اه . لا ادرى ، لا ادرى .

فصحت في فزع : « وكيف اذن تسدد فواتير الفندق ؟ و ... وبعد ؟ .. »

فبدا عليه التفكير ولكن لم يبد انه فهم ما قلت . بل لعله لم يسمعه ايضا . وحاولت أن اتكلم عن بولينا اليكسندروفنا ، وعن الطفلين ، فكان يجيبني في لهوجة : « نعم . نعم ! » ويشرع بسرعة للكلام عن الامير ، قائلا انه سيرحل الآن مع الآنسة بلانش وعندئذ: « وعندئذ ماذا اصنع انا يا اليكسي ايفانتش ؟ » والتفت الي صائحا : « بحق السماء ماذا اصنع ؟ خبرني ماذا اصنع ؟ انه العقوق ! انه العقوق المحض . أليس كذلك ؟ » .. وانتهى به الأمر الى الانخراط في البكاء .

ولم يكن هناك ما يمكنني عمله مع رجل هذا شانه . ومن الخطر تركه وحده ايضا . فقد يحدث له اى شىء . وفارقته الا انى اوصيت المربية أن تذهب لتراه بين الفينة والفينة ، كما كلمت في امره خادم الدهليز الذى بدا لي شابا ذكيا ، فوعدني أن يتفقده ايضا بين الحين والحين .

ولم أكد افارق الجنرال حتى جاءني بوتابتش ليدعوني الى الجدة. وكانت الساعة الثامنة . وقد عادت لتوها من موائد القمار ، بعد خسائرها النهائية ، فذهبت الى حجرتها فوجدتها جالسة في كرسيها وهي في حالة اعياء تام ، وقد بدا عليها المرض . وكانت مارفا تعطيها فنجانا من الشاى وتكاد تكرهها على شربه . وكان في صوتها

واسلوبها تغير لافت للنظر . وقالت لى بانحناءة بطيئة وفور من راسها:

ـ مساء الخير ياسيدى . مساء الخير يا اليكسى ايفانتش ! اغفر لى ازعاجى اياك مرة اخرى . فعليك ان تتحمل صابرا امراة عجوزا . لقد تركت هناك قرابة مائة الف روبل ياسيدى . ولقد كنت على حق بعدم الذهاب معى بالامس . والآن ليس معى نقود ، ولا درهم واحد . ولا اريد ان انمهل هنا لحظة ، بل ساسافر فى منتصف العاشرة . وقد ارسلت فى طلب صاحبك الانجليزى ـ استلى . اليس هذا اسمه ؟ ـ لانى اريد ان اطلب منه اقراضى ثلاثة آلاف فرنك لمدة اسبوع واحد . واريد منك ان تقنعه بهذا ، حتى لايخطر بباله خاطر ما فيرفض طلبى . فلم ازل غنية الى حد لاباس به ياسيدى . فانا املك ثلاث قرى وبيتين هناك . وبقية من النقود هناك ايضا ، لانى لم احضر معى كل نقودى . واقول لك هذا حتى لايخامره شك ... وها هوذا بنفسه . وهو كما ترى رجل لطيف .

واسرع مستر استلى الى الجدة عند اول استدعاء وجهته اليه . وبدون توقف كى يفكر فى الامر ، وبدون ان يتفوه بكلمة تقريبا ، عد امامها ثلاثة آلاف فرنك مقابل سند بالدين وقعته له الجدة . ولما انتهى من هذا انحنى واسرع بالانصراف . وقالت الجدة :

ـ والآن اذهب انت ايضا يا اليكسى ايفانتش ! لم يبق امامى الا القليل من الوقت . اكثر قليلا من ساعة ؛ واريد ان استلقى برهة ، لان عظامى تؤلمنى . ولا تغضب من عجوز مسكينة حمقاء ! ولن ارمى الشباب بعد اليوم بالرعونة . وحتى جنرالك هذا المسكين سيكون عارا على ان الومه . وطبعا لن اعطيه اى مبلغ من النقود كما يريد لانى اعتبره ابله . ولكنى ـ انا العجوز البلهاء ـ لست خيرا منه ! وانه لصحيح ان الرب يعاقب الغليظ العنق مهما تقدم فى السن . والآن وداعا . ارفعينى يا مارفا .

ولكنى كنت مصمما على توديعها على المحطة ، وكنت فى حالة توقع ، وظللت احسب ان شيئا سيقع فى اى لحظة . ولم اطق البقاء فى حجرتى ، فظللت اخرج الى الممر ، بل وخرجت للمشى فى الشارع الكبير دقيقة . لقد كان خطابى اليها واضحا وحاسما ، والكارثة الحالية نهائية بالطبع . وسمعت فى الفندق برحيل دى جرى ومن يدرى . فلعلها ان رفضتنى كصديق لا ترفضنى كخادم ، لانها

بحاجة الى : ولو لقضاء حاجاتها . ولما حان وقت قيام القطار . جريت الى الرصيف واركبت الجدة العربة ، وكانت قد حجزت لنفسها ديوانا خاصا . وقالت وهي تودعني : « شكرا لك ياسيدى لعواطفك النزيهة . وذكر براسكوفيا بما قلته لها بالامس.. وساكون في انتظارها » . وعدت الى الفندق . وعند مرورى بجناح الجنرال قابلت المربية وسالت عن الجنرال ؛ فاجابتني بوجوم : « انه على مايرام ياسيدى ! » ولكني مع هذا دخلت . الا اني وقفت عند الباب في دهشة تامة ، لاني رايت الآنسة بلانش والجنرال يضحكان من قلبهما . وكانت الارملة كومنج هناك ايضا ، جالسة على الاريكة. وكان واضحا أن الجنرال يكاد يخرج عن طوره من الفرح ، هاذيا بكل هزاء ممكن ؛ ومطلقا ضحكات طويلة عصبية كانت تغطي وجهه كله بالتجاعيد ، حتى كادت عيناه تختفيان . وقد عرفت فيما بعد من الآنسة بلانش نفسها انها بعد طرد الامير سمعت بياس الجنرال، فقررت زيارته والشربة عنه ، ولكنه لم يعلم ان قضاءه حم فعلا ؛ وان بلانش تحزم امتعتها لترحل الى باريس في اول قطار صباح غد .

وبعد ان وقفت على عتبة حجرة جلوس الجنرال لحظة قررت عدم الدخول وتراجعت من غير ان يفطن لوجودى احد ، وصعدت السلم الى حجرتي ، وما ان فتحت بابها حتى لمحت في الغسق شخصا جالسا بجوار النافذة . ولم ينهض هذا الشخص ـ ايا كان ـ عند دخولي ؛ فتوجهت اليه ونظرت اليه بامعان ، ولهثت انفاسي ؛ فقد كان هذا الشخص بولينا !

الفصل الرابع عشر

وصرخت ! فقالت بصـــــوت غريب : « ما الخبر ! » وكانت شاحبة واجمة المحيا .

ـ الخبر ! انك هنا . في حجرتي !

ـ عندما اصنع شيئا ، فانا اعنيه . هكذا انا . وسترى هـذا قريبا . اوقد الشمعة .

واطفتهـا ، فنهضت الى المائدة ووضعت امامي خطابا مختوما وارتني قائلة : « اقراه ! »

فصحت وانا اتناول الخطاب : « انه ... بخط دي جري ! » وارتجفت يداي فراحت السطور تتواثب علوا وسفلا امام ناظري . وقد نسيت نص كلمات هذا الخطاب ، ولـكن ها هو ان لم يكن كلمة كلمة ، فعلى الاقل فـكرة فـكرة :

«يا آنسة . ان ظروفا معاكسة تجبرني على الرحيل فورا . وقد لاحظت انت نفسك بالطبع اني تحاشيت الايضاح النهائي معك الى ان تتضح الظروف ان وصول قريبتك العجوز وسلوكها الغريب السخيف قد وضـــع حـدا لجميع شكوكي . واضطراب احوالي الخاصة يمنعني من الانغماس اكثر من هذا في الآمال الآسرة التي سمحت لنفسي بعض الوقت ان اكنها . وانا لاتحسر على الماضي ، ولـكني واثق بانك لا تجدي في سلوكي اي شيء غير جدير بسيد مهذب ورجل شريف . وقد خسرت كل نقودي تقريبا في قروض لم تسدد لزوج والدتك ، ولذا فانا مضطر تحت وطأة هذه الظروف الحتمية ان احسن تقدير القليل الذي تبقى لي . وقد كتبت فعلا الى اصدقائي في بطرســـرج ليتولوا بيع رهنيتي لاملاكه . ولما علمت ان زوج والدتك الطائش قد انفق مالك شخصيا لذا قررت ان اعفيه من الخمسين الف فرنك وان اعيد اليه وثائق توازي هـذا

المبلغ ، بحيث تكونين الآن فى وضع يسمح لك باسترداد ماخسرته ؛ وبمطالبته به قانونا . واعتقد يا آنسة أن تصرفى هذا مفيد لك جدا فى وضعك الراهن . واعتقد ايضا اننى بذلك التصرف انى بدينى لشخص كريم شريف . ونمى بأن ذكراك ستظل مطبوعة فى قلبى »

ولما انتهيت من تلاوته التفت الى بولينا قائلا : « كل شىء واضح . أتعنين انك كنت تتوقعين أى شىء خلاف هذا ؟ » . فاجابتنى بهدوء خارجي ؛ وان خيل الى انى لمحت فزعا خفيفا فى صوتها : « لم اكن أتوقع شيئا . لقد قرر رأيى منذ زمن طويل؛ فقد كنت اقرأ افكاره واعرف ما يفكر فيه . كان يظن انى ساحاول ، وقد الح (وسكتت من غير ان تتم الجملة ؛ وعضت شفتيها فى صمت برهة ثم اردفت) وكنت اتعمد اظهار الازدراء له . كنت اريد ان اعرف ماذا عساه يصنع . ولو كانت برقية الميراث قد وصلت لكنت خليقة ان ارمى له دين ذلك المعتوه - زوج امى - فى وجهه واطرده . فقد كنت امقته منذ دهور. لقد كان مختلفا جدا ذات يوم . مختلفا جدا ! ما كان اشد فرحى بالقاء هذه الخمسين الف فرنك فى وجهه الخسيس ؛ وابصق عليه » .

- ولكن الوثيقة بخمسين الف فرنك لابد انها فى حوزة الجنرال. خذيها واعطيها لدى جرى .

- ليس هذا كذلك ! ليس كذلك !

- طبعا طبعا ! اى خير فى الجنرال الآن ؟ والجدة ؟

فنظرت بولينا الى بشرود ونفاد صبر وقالت : « وما شان الجدة بهذا ؟ لا استطيع الذهاب اليها ... ولست ايضا مستعدة ان اعتذر لاى احد .

- وما العمل ؟ كيف امكنك .. كيف امكنك اطلاقا ان تحبى دى جرى ؟ ذاك الوغد ! والآن هل تريدين منى ان اتحداه واقتله ؟ اين هو الآن ؟

- فى فرنكفورت ، وسيمكث هناك ثلاثة ايام .

فصحت فى حماسة رعناء : « قولى كلمة واحدة : اذهب الى هناك غدا باول قطار » . فضحكت وقالت :

ـ وماذا بعد ذلك ؟ لعله سيقول لك : اعطنى اولا الخمسين الف فرنك . ثم لماذا يتعين عليه ان يباركك ؟ ياله من هراء فارغ !

فقلت وانا اصرف باسنانى : « ولكن اين ؟ اين اجد تلك الخمسين الف فرنك ؟ » . وكأنما هذا المبلغ ملقى على الارض فى موضع ما. ثم التفت اليها وقد بدأت تنبت فى رأسى فكرة وصحت: « وماذا عن مستر استلى ؟ » فلمعت عيناها ، ونظرت الى وجهى نظرة فاحصة وابتسمت ابتسامة ساخرة وقالت : « ماذا ؟ اتريد انت منى ان اتركك الى هذا الانجليزى؟ » . وكانت هذه اول مرة تخاطبنى فيها بضمير المخاطب المفرد . وفجاة غلبها الاضطراب فارتمت على الأريكة ؛ وكأنما خارت قواها .

وومضت فى ذهنى فكرة كالبرق الخاطف . فوقفت امامها لا اكاد اصدق عينى واذنى . لابد اذن انها تحبنى ! لقد جاءتنى فى حجرتى فى فندق ـ وبذلك ورطت نفسها علنا ـ ووقفت انا امامها عاجزا مع هذا عن الفهم

ووثبت الى خاطرى فكرة ضارية جموح : « بولينا ! امنحينى ساعة واحدة فقط ! انتظرى هنا ساعة واحدة فقط ، وساعود اليك .. لابد ان تنتظرى . وسترين ! لا تنصرف .. ارجوك ! »

واندفعت من الحجرة ، غير مبال بدهشتها ونظرتها السائلة . ونادتنى ؛ ولكن لم اتراجع .

اجل . يحدث احيانا ان تأتى المرء اشد الافكار ضراوة وجموحا، وهى فكرة تبدو لاول وهلة مستحيلة فتستقر فى عقله ، حتى يراها فى النهاية ممكنة التنفيذ . فاذا ما ارتبطت هذه الفكرة برغبة قوية حارة تقبلها المرء على انها من صنع القدر ، جوهرية ، لامناص منها ، لابد حتما ان تبرز الى الوجود وتتحقق ؛ وقد يكون وراء هذا خليط من الالهامات ، وشىء من قوة الارادة البارزة ، والخمار الناشىء عن خيال المرء . او لا ادرى ماذا . ومهما يكن من شىء فقد حدث لى ذلك المساء امر عجيب لن انساه ماحييت . ومع انه قد يوجد تفسير منطقى تماما لهذا الأمر ، الا انه يبدو لى حتى يومنا هذا منطويا على عنصر اعجوبى اعجازى . ولماذا رسخت هذه الفكرة فى اعماق نفسى منذ وقت طويل ؟ فلا شك اننى فكرت فيها

منذ امد بعيد ، واذكر أن هذه الفكرة لم تكن على اى اساس انها يمكن ان تحدث (وبالتالى يمكن الا تحدث) بل على اساس انها لايمكن الا تحدث .

وكانت الساعة العاشرة والربع ؛ فذهبت الى الكورسال وانا ممتلىء بالتوقعات العمومية ، وفى الوقت نفسه كنت مستثار النفس اكثر من اى وقت مضى فى حياتى باسرها . وكان لم يزل هناك كثيرون فى قاعات القمار ؛ وان لم يبلغ عددهم نصف جمهور الصباح . وفى الساعة الحادية عشرة مساء لا يبقى امام الموائد الا اولئك المقامرون المستميتون ، الذين لا وجود فى الدنيا الا للروليت ، ومن اجله وحده اتوا مدن الاستشفاء ، ولا يكادون يفطنون لشىء عداه طوال الموسم ، ولا يصنعون شيئا عدا المقامرة من الصباح الى المساء ، وهم مستعدون للمقامرة حتى الفجر ان سمح لهم بذلك . ويتفرقون دائما مغتاظين عندما تغلق القاعات عند انتصاف الليل . وعندما يعلن كبير المراقبين قبل وقت الاقفال مباشرة « الدورات الثلاث الاخيرة ايها السادة ! » يبدون استعدادا للمقامرة تقريبا فى هذه الدورات الثلاث بآخر ما معهم من نقود . وعندئذ تقع أفدح الخسائر. وتوجهت الى المائدة التى كانت الجدة جالسة اليها منذ مدة قصيرة ، ولم تكن مزدحمة جدا ، وسرعان ما كنت واقفا على المائدة . ورأيت امامى مباشرة على القماش الاخضر كلمة « باس » مكتوبة بالطباشير . وهذه كلمة تدل على صف الاعداد من ١٩ ــ ٣٦ . اما الصف الاول من ١ ــ ١٨ فيسمى « مانك » . ولكن ما قيمة هذا عندى ! لم اقم باى حسابات ، ولم اسمع الرقم الذى وقفت عنده الدورة الاخيرة ، ولا حاولت معرفة ما كان يجرى قبل حضورى قبل ان اراهن ؛ شأن كل مقامر لديه ايسر قدرة على الحساب ، بل اخرجت كل فريدريشدوراتى العشرين والقيتها على مجموعة « باس » التى امامى . وصاح المراقب « ٢٢ » نكسبت ، وراهنت بالمجموع كله على « باس » ايضا ، وصاح المراقب « ٣١ » فكسبت مرة اخرى ! وصار عندى الآن ثمانون فريدريشدورا ، فوضعتها على الاثنى عشر رقما الوسطى ، ودارت العجلة ثم وقفت عند « ٢٤ » ،

فاعطوني ١٦٠ فريدريشــدورا ذهبـا ، اذا اضيفت الى ما كان معي اصلا صار المجموع مائتين . وفيما يشبه الحمى قذفت هذه الكومة كلها على اللون الاحمر ، ثم انقت لنفسي ، وللمرة الوحيدة اثناء اللعب خامرني الخوف فاقشعر بدني وارتجفت أوصالي ، وفزعت فجاة من معنى الخسارة الآن ، لأنني قامرت بحياتي كلها على دورة هذه العجلة ، وصاح المراقب « الاحمر ! » ، ولو قفت انفاسي ، وصار جسمي كله كالوتر الرنان من فرط التوتر . ودفعوا لي المبلغ اوراقا نقدية ، تعادل نحو اربعة آلاف فلورين وثمانين فريدريشــدورا .

واذكر انني قامرت بعد ذلك بالفي فلورين على الاعداد الاثني عشر الوسطى وخسرت ، وقامرت بالذهب والثمانين فريدريشــدورا وخسرت . وكنت في حالة جنونية ، فانتزعت الالفي فلورين الباقية لي ووضعتها على الاثني عشر رقما الاولى بدون تفكير . وخامرني الشك لحظة ، كذلك الشك الذي خامر مدام بلانشار في باريس عندما وثبت من البالون .

وصاح المراقب : « اربعة ! » وبذلك تجمع لي ستة آلاف فلورين ، فشعرت اني فاتح منتصر ، ولم اعد اخشى شيئا ، والقيت باربعة آلاف فلورين على اللون الاسود ، وتمضي الناس تراهنوا على الاسود . وتبادل المراقبون النظرات والهمسات . وكان الكل يتكلمون وينتظرون .

وظهر اللون الاسود! ولم اعد اتذكر كميات ولا ترتيب مراهناتي ، وكل ما اذكره انني كسبت قرابة ست عشرة الف فلورين . وفي ثلاث دورات منحوسة خسرت منها اثني عشر الفا . ووضعت الاربعة الآلاف الاخيرة على « باسي » وانا لا اكاد هذه المرة أعي شيئا . كل ما هناك اني انتظرت ، بدون تفكير ، في حالة شبه آلية . وربحت . ثم توالى الربح اربع دورات . وكل ما اتذكره انني كدست النقود بالالوف ، وان الاعداد الاثني عشر الوسطى كان ظهورها اكثر من غيرها ، ولذا ثابرت عليها ، وكانها تظهر بنظام ثابت ، ثلاث مرات او اربعا متوالية ، ثم تختفي دورتين ، ثم تعود للظهور كل ثلاث دورات او اربع . ومثل هذا الانتظام قد يلاحظ أحيانا ، وهذا ما يحطم المقامرين المدمنين الذين يجرون الحسابات باقلام

الرصاص فى ايديهم . وتشاهـــد بين هذه الجدران عندئذ اغرب ضربات القدر !

ولا اظن انه كان قد مضى اكثر من نصف ساعة على وصــولى عندما ابلغنى المراقب فجاة اننى ربحت ثلاثين الف فلورين . ولما كان البنك لايدفع اكثر منها فى الوقت الواحد ، لذا سيغلق الروليت حتى اليوم التالى . فجمعت كل ذهبى وحشوت به جيوبى؛ وجمعت اوراق النقد ؛ ومضيت فورا الى المائدة الموجودة بالقاعة المجاورة ، حيث توجد لعبة روليت اخرى. وتبعنى جميع المغامرين الى هناك. وافسح لى مكان على الفور ، وبدات مراهناتى بدون حسابات أو احصاء . ولا يمكننى أن اتخيل ما الذى انقذنى !

لقدكانت ــ فى الحق ــ بعض الحسابات تومض فى ذهنى احيانا ؛ فاميل الى هذا الرقم من ارقام الحظ او ذاك ولكننى اتخلى عنه بسرعة ، واعود لوضع نقودى بلا وعى تقريبا . ولابد انى كنت شارد الذهن الى اقصى حد ، واتذكر ان المراقبين صححوا عدة مرات العابى . وكنت ارتكب اخطاء فاحشة ، وكان صدغاى مبللين بالعرق ، وكانت يداى ترتجفان واقبل عدة بولنديين على يعرضون خدماتهم ، ولكنى لم القى بالى الى احد . ولم يخذلنى حظى . وفجاة ارتفع الضحك وهتاف الناس من حولى : «برافو ! برافو!» بل أن بعضهم صفقوا فعلا . وكنت حينئذ قد كسبت ثلاثين الف فلورين، فكان على البنك أن يغلق مائدة الروليت الى اليوم التالى.

ــ انصرف ! انصرف !

هكذا انبعث صوت عن يمينى هامسا فى اذنى ؛ وكان صوت جهورى من فرنكفورت ؛ كان قد وقف بجانبى طول الوقت ، واتذكر انه كان ينصحنى بين الحين والحين كيف العب. وانطلق صوت آخر يهمس عن يسارى :

ــ بحق السماء انصرف !

فنظرت حولى بسرعة ، وكانت المتكلمة سيدة شديدة الاحتشام واللباقة فى زيها ، دون الثلاثين من العمر ، وعلى محياها المجهد شحوب ينبئ عن علة ، ولم تزل لها مسحة من جمال غابر. وكنت احشو جيوبى باوراق النقد حيثما اتفق ، واجمع بقـــايا القطع

الذهبية من فوق المائدة . وتناولت آخر لفافة بها خمســـــون فريدريشـــدورا وافلحت فى دسها فى يد السيدة الشاحبة دون ان يلحظ ذلك احد تحت تأثير دافع وقتى طاغ ، ولم ازل اتذكر للآن ضغطة اصابعها النحيلة على يدى معبرة عن عرفانها الحار . ولم يستغرق هذا كله سوى بضع ثوان . ولما فرغت من جمع ارباحى انتقلت بسرعة الى مائدة الثلاثين والاربعين .

وموائد الثلاثين والاربعين تجتذب جمهورا من الارستقراطيين : وليست بها عجلة للروليت . لأنه ليس بهـا الا اوراق للعب . والبنك هنا يدفع بحد اقصى مائة الف تالر فى الوقت الواحد . وهنا ايضا الحد الأعلى للرهان اربعة آلاف فلورين . ولم اكن اعرف شيئا عن اللعبة ، بل لم اكد اعرف شيئا سوى المراهنة على الاحمر والاسود : وهى سارية هنا ايضا . وقررت التشبث بها . وتجمع الكازينو بأسره من حولى . ولا اذكر اننى فكرت فى بولينـا مرة واحدة طيلة هذا الوقت ، فقـــد كنت مستغرقا تماما فى الفرحة الطاغية التى تتمثل فى جمع اوراق النقد التى تتكدس فى كومات متزايدة امامى .

وكان يبدو حقا كأن القدر قد وكزنى ، فقـد حدثت وقتئـذ بالضبط ظاهرة ـ تبدو كأنها خطـة مرسـومة ـ وهى شىء ليس بالنادر فى هذه اللعبة ، اذ يتشبث الحظ ـ مثلاـ باللون الاحمر، فلا يتخلى عنه لعشر دورات او خمس عشرة دورة على التوالى . وامس الاول سـمعت ان الاحمر ظهر اثنين وعشرين مرة متوالية منذ اسبوع . وهذا شىء لم يسمع به ، حتى فى الروليت ، وكان الناس يرددونه فى دهشة . وبالطبع هجر الكل تقريبا اللون الاحمر، وظلوا حوالى عشر دورات لا يجازفون بالرهان عليه . ولكن ما من مقامر متمرس يراهن على نقيضه ايضا : وهو اللون الاسـود ، لأن المقامر المتمرس يعرف ماذا تعنيه هذه التقلبات ، اذ يبدو ـ مثلا ـ ان اللون الأسود سيظهر بعد ظهور الاحمر ست عشرة مرة . ويقبل المقامرون الناشئون على ذلك زرافات ، مضاعفين رهانهم ، ومحققين خسائر فاحشة .

اما انا فقد لاحظت ان الاحمر ظهر سبع مرات متواليات ، فقررت التشبث به :واعتقد ان مرد ذلك الى شىء من الغرور ، رغبة فى

ابهار المشاهدين بالمجازفة المجنونة . ولـكنى اتذكر الآن ان الذى كان مستوليا على لم يكن الغرور بل الظمأ الى المجازفة ، لان اثارة المجازفة لا تؤدى الى الاشباع بل الى زيادة الظمأ اليها بمزيد من القوة والعنف ، الى ان تحـل الى حد الاعياء التام . واعتقد انه لو ان القواعد سمحت بالمراهنة بخمسين الف فلورين دفعة واحدة لجازفت بها . وكان الـكل من حولى يقولون ان ذلك جنون محض لان الاحمر كان قد ظهر اربع عشرة مرة متوالية ! وقال صـوت بجوارى بالفرنسية : «لقد ربح السيد من قبل مائة الف فلورين!» فافقت على الفور . ماذا ! هل ربحت مائة الف فلورين تلك الليلة! وما حاجتى الى المزيد اذن ؟ وانقضضت على اوراق النقد فحشوت بها جيوبى من غير ان احصيها . ودسست ايضا فيهـا القطع الذهبية واللفائف ، واندفعت الى خارج المبنى ، ومررت من القاعات وسط الضحك العام . والـكل ينظرون الى جيوبى المنتفخة ، والى خطوتى غير المتناسقة بسبب ثقل ما احمله من ذهب . ولابد انه كان يزن اكثر من ستة عشر رطلا . وامتدت الى عدة ايد ، فكنت اوزع المال بالحفنة ، بقدر ما تسع قبضتى . واوقفنى يهوديان عند الباب وقالا : « انت جرىء . جرىء جدا ! ولـكن يجب عليك غدا صباحا ان ترحل ، مبكرا بقدر الامكان ، والا خسرت كل شىء» .

ولم اعرهما التفاتا . وكان الظلام شديدا فى الشارع الـكبير، حتى انى لم استطع ان ارى يدى اذا مددتها امامى . وكانت المسافة الى الفندق نصف ميل . ولم اكن قط فى حياتى كلها اخشى اللصوص او قطاع الطرق ، حتى وانا صبى صغير ؛ ولم افكر فيهم الآن ايضا . ولست اذكر فيم كنت افكر وانا فى طريقى ، فلم تكن فى ذهنى افكار اطلاقا ، كل ما كنت اشعر به هو الفرح الشديد . الفرح بالنجاح ، والانتصار ، والقوة . ولا اكاد ادرى ماذا اسمى هذا الشعور . واقتحمت صورة بولينا فى ذهنى . وادركت انى فى طريقى اليها ، وساكون معها بعد بضع دقائق ، واخبرها بكل شىء ، واريها كل شىء ... ولـكنى لا اكاد اتذكر ماذا قالته لى ولماذا تركتها ، لان كل احساساتى منذ اقل من ساعة ونصف كانت تبدو لى من امور الماضى البعيد ، التى لم تعد لها اى قيمة ، ولا وجه لتفكير فيها مرة اخرى ، لان كل شىء الآن صارت له بداية جديدة.

ووصلت الى قرب نهاية الشارع الكبير عندما استولى على الخوف فجأة . ماذا لو اننى قتلت وسرقت فى هذه اللحظة ؟ وتضاعفت مخاوفى مع كل لحظة . وكدت اجرى . واخيرا ـ عند نهاية الشارع تماما ـ تبلج امامى فندقنا بانواره التى لا تحصى . حمدا لله ها قد وصلت مأمنى اخيرا !

وجريت الى الطابق الذى اقيم فيه ، ودفعت الباب ففتحته ، وكانت بولينا لم تزل هناك جالسة على أريكتى وامامها شمعة مضاءة ; وقد عقدت ذراعيها . وحملقت فى بدهشة ، ولابد ان منظرى كان غريبا فى تلك اللحظة . ووقفت امامها وشرعت القى على المائدة بحملى الثقيل من النقود .

الفصل الخامس عشر

واتذكر جيدا كيف حدقت فى وجهى بامعان ، من غير ان تتحرك من مجلسها ، بل ومن غير ان تغير وضعها . وصحت وانا القى الى المائدة بآخر لفافة من النقود الذهبية : « لقد ربحت مائتى الف فرنك ! » .

وكانت الكومة الهائلة من اوراق النقد ولفافات الذهب تغطى المائدة بأسرها ، ولااطيق ان احول نظرى عنها . وبين الحين والحين كنت انسى كل شيء عن بولينا لمدة دقيقة او دقيقتين ، واتفرغ لتصنيف اوراق النقد فى حزم ، واترك هذا احيانا كى اجمع الذهب فى كومة واحدة . ثم اترك هذا وذاك واذرع الحجرة بخطوات سريعة ، وقد غصت فى الخواطر والافكار . ثم اعود الى المائدة واشرع مرة اخرى فى احصاء النقود . وفجأة اندفعت الى الباب وادرت المفتاح دورتين فى القفل ، ثم وقفت متفكرا امام حقيبتى الصغيرة وقلت :

ـ لعل الاوفق ان اضعها كلها فى الحقيبة حتى الغد .

والتفت فجأة الى بولينا وقد تذكرت وجودها هناك . وكانت جالسة بلا حراك ، فى نفس موضعها ، ولكن عينيها كانتا تتعقبانى طول الوقت . وكان على محياها تعبير غريب لم يرقنى اطلاقا ، فقد خيل الى انه ينم على شيء من البغض . وتوجهت اليها بخطوات سريعة قائلا :

ـ بولينا . ها هى خمسة وعشرون الف فلورين ، اى خمسون الف فرنك ، او تزيد ، خذيها واقذفيها فى وجهه غدا .

فلم تجبنى ، فقلت :

ـ اذا احببت اخذتها انا بأول قطار فى الصباح الى هناك . اأذهب بها ؟

فانفجرت ضاحكة ، وظلت تضحك مدة طويلة . فنظرت اليها بدهشة ممزوجة بالحزن . فهذا الضحك اشبه بالسخرية منى ،

تلك السخرية التي جبت بها اشد اعترافاتي بحبي حرارة . واخيرا كفت عن الضحك وقطبت جبينها : ونظرت الى مرارا من تحت حاجبيها . وقالت بازدراء : «لست اريد نقودك» . فصحت بها :
ـ ماذا ! ماذا تقولين ؟ ولم لا يابولينا ؟
ـ انا لا آخذ نقودا بلا مقابل .
ـ انى اقدمها لك كصديق . بل اقدم لك حياتي .
فنظرت الى طويلا وبامعان كأنما تحاول ان تخترقني وتكشف اعماقي ، وقالت بابتسامة ساخرة :
ـ انك تدفع ثمنا عاليا . فعشيقة دى جرى لا تساوى خمسين الف فرنك !
فصحت بها مؤنبا : « كيف تكلمينني يا بولينا بهذا الشكل ؟ اتظنينني دى جرى ؟ » فصاحت وقد اتقدت عيناها فجأة : « انا اكرهك ! نعم اكرهك ! اكرهك مثلما اكره دى جرى تماما ! » ثم غطت وجهها بيديها وانتابتها حالة هستيرية . فاندفعت اليها . وادركت ان شيئا ما حدث لها اثناء غيابي ، اذ بدا عليها انها خرجت عن صوابها تماما .
وانطلقت من بين شهقات نحيبها التشنجي هذه الكلمات :
ـ هيا ! اشترني ! اشترني ! هيا ... بخمسين الف فرنك مثل دى جرى !
فعانقتها ، وقبلت يديها ، وقدميها ، وخررت راكعا على ركبتي امامها .
ومرت النوبة الهستيرية : فوضعت يديها على كتفي ونظرت الى بامعان . وبدت كمن تريد ان تقرا شيئا في وجهي . واصغت لي ، ولكن الظاهر انها لم تسمع ما كنت اقول ، وبدت على وجهها مسحة قلق وتفكر . وكنت خائفا منها ، وايقنت انها توشك ان تجن . ثم اذا بها فجأة تدنيني منها وتجذبني اليها برفق ، ولكن ما ان ظهرت على ملامحها بوادر ابتسامة ثقة حتى دفعتني منها بحدة ، وشرعت مرة اخرى تحدق في بتجهم .
وفجأة القت بذراعيها حولي وقالت : « انت تحبني . تحبني . اليس كذلك ؟ انت .. انت كنت مستعدا ان تقاتل البارون لاجلي ! » وعندئذ انفجرت ضاحكة ، كأنما تضحك لذكرى شيء مضحك ورائع في آن واحد . كانت تضحك وتبكي في نفس واحد . وماذا كنت خليقا ان اصنع ؟ لقد كنت شخصيا في حمى . واذكر

انها بدات تقول لى شيئا ؛ ولكنى لم استطع ان افهم ما هو .. فقدكان ضربا من اللثغة والرجمة الهذائية ؛ كانها فى عجلة شديدة كى تخبرنى شيئا . ثم جاءت موجة من الهذيان تقطعها نوبات من الضحك المرح بدات تعرعنى ، وراحت تكرر قولها : « ولكنك عزيز، ولكنك حبيب . انت المخلص الوحيد لى » ومرة اخرى وضعت يديها على كتفى ، وراحت تحدق فى ، وهى تكرر طول الوقت قولها : « انت تحبنى . انت تحبنى ... اسوف تحبنى دائما ؟ » ولم استطع ان احول عينى عنها . فلم ارها قط من قبل فى مثل هذه النوبات من الحنان والحب . وكان هذا كله بالطبع هذيانا... ولكن بين الحين والحين كانت ترى نظرتى الرامقة فتبتسم بخبث وتشرع فى الكلام عن مستر استلى .

والواقع انها كانت تحاول ان تقول شيئا عن مستر استلى طول الوقت (ولاسيما عندما حاولت منذ برهة ان تشرح لى شيئا ، وان لم ادرك ماهو بالضبط) . بل وكان يبدو انها تضحك منه ؛ مكررة باستمرار انه كان فى الانتظار، وتسالنى هل اعلم انه قد يكون واقفا تحت النافذة : «اجل. اجل. تحت النافذة . افتحها. افتحها تجده ! » ودفعتنى نحو النافذة . ولكن قبل ان اصل اليها انفجرت مقهقهة واندفعت بين ذراعى : « انرحل؟ راحلون نحن غدا. اليس كذلك؟» وفجاة تركز ذهنها على هذه الفكرة : « اوه (وسكتت تفكر) انظر اننا سنلحق بالجدة ! احسبنا يمكن ان ندركها فى برلين. ماذا تظنها ستقول عندما نلحق بها وترانا ؟ ومستر استلى ؟ انه لن يلقى بنفسه من قمة شلانجنبرج. اتراه يقفز منها ؟ (وضحكت من قلبها) اسمع الآن . اتعلم اين هو ذاهب فى الصيف القادم ؟ انه يريد الذهاب الى القطب الشمالى فى بعثة علمية ، ويأخذنى معه. هاهاها ! ويقول اننا نحن الروس ماكنا لنعرف شيئا على الاطلاق لولا الاوربيين . واننا لا نصلح لشىء ... حسنا ! انه شخص طيب ايضا . تصور انه يدافع عن الجنرال . ويقول ان بلانش ... الهوى! اوه ! لا ادرى. لاادرى! » وفجاة فقدت ارتباط خواطرها اردفت : « يا للمساكين . انى ارثى لهم ، وللجدة . والآن اسمع! انا موقنة انك لست القادر على قتل دى جرى ! وهل كنت تظن نفسك ستقتله حقا ؟ يا للغلام الابله ! اكنت تحسبنى اتركك حقا تقاتل دى جرى ؟ ماكنت تستطيع ان تقتل حتى البارون . كما تعلم ! (وانطلقت فى نوبة اخرى من الضحك) آه ! لكم بدوت

مضحكا تلك المرة مع البارون ! لقد راقبتكما من الاريكة الخشبية . ولكم كنت كارها الذهاب اليه ! ولكم ضحكت ! كم ضحكت ! »
وانطلقت تضحك من جديد . وفجأة اخذت مرة اخرى في تقبيلي وعناقي ، والضغط بوجهها بهيام وحنان على وجهي ، ولم اعد افكر في اي شيء او اسمع اي شيء . وكان راسي يدور .

واظن الساعة كانت حوالي السابعة صباحا عندما استيقظت ، فالشمس كانت تضيء الحجرة . وكانت بولينا جالسة بجواري وعلى محياها تعبير غريب ؛ كأنما برزت لتوها من غيبوبة ؛ وبدات تستجمع افكارها . وكانت هي ايضا قد استيقظت لتوها ، واخذت تحدق في المائدة وما عليها من نقود . وكان راسي يؤلمني ، واشعر به ثقيلا جدا . وهممت ان آخذ يد بولينا ، ولكنها دفعتني عنها ووثبت الى الاريكة . وكان الصباح البازغ ضبابيا ؛ والمطر كان يتساقط قبل الفجر ، فتوجهت الى النافذة وفتحتها وابرزت راسها وكتفيها منها ؛ ولبثت هكذا بضع دقائق ؛ معتمدة بذقنها على يديها ، ومرفقاها على افريز النافذة ، من غير ان تنظر خلفها نحوي او تصغي لما كنت اقول . وتساءلت في فزع ماذا يمكن ان يحدث بعد ذلك . وكيف سينتهي هذا كله . وفجأة استدارت من النافذة الى المائدة وقالت وهي تنظر نحوي بتعبير ناطق بالكراهية التي لا حد لها ، وشفتاها ترتجفان من الغضب :

ـ والآن . اعطني الخمسين الف فرنك !

ـ اعدت الى هذا يا بولينا ؟ اعدت الى هذا ؟

ـ العلك غيرت رايك ؟ هاهاها ! العلك ندمت ؟

وكانت اللفافات التي بها خمسة وعشرون الف فلورين ، والتي كنت قد وضعتها جانبا في الليل ؛ في ركن من المائدة ، فتناولتها وقدمتها اليها . فسالتني وفي عينيها نظرة شر ، والنقود في يديها : « انها الآن لي . لي . اليس كذلك ؟ اليس كذلك ؟ » فقلت : « لقد كانت دائما لك ! » فرفعت يدها وقذفتني بالنقود وهي تقول : « اذن هاهي خمسة آلاف فرنكك ! » فاصابت وجهي وآلمتني وانتثرت على الارض . وعندئذ اندفعت بولينا خارجة من الحجرة ...

وانا بالطبع كنت اعرف انها لم تكن في حالتها الطبيعية عندئذ ، وان كنت لا ادري ما الذي اثار لديها هذه النوبة من الجنون . ولم تزل مريضة بعد مرور هذا الشهر بطوله . ولكن ماذا كان

السبب في هذه الحالة . والاهم من هذا ماذا كان السبب في هذه النزوة الغريبة ؟ اهي الكبرياء الجريحة ؟ أهو اليأس لأنها حملت نفسها على المجيء الي ؟ أمن الممكن انها تخيلتني مختالا محبورا بحظي الموات ؛ وانني بالضبط مثل دي جري تواق الى التخلص منها بمنحها خمسين الف فرنك . كلا لست كذلك . وضميري مطمئن تماما من هذه الناحية . ولا اتمالك نفسي من الاعتقاد ان كبرياءها هو الملوم الى حد ما . فكبرياؤها حفزها على الا تثق بي، وعلى أن تهينني ، وان لم تدرك ذلك شخصيا بوعيها . وفي هذه الحالة كان لابد أن انحمل تبعات دي جري . وان كان على تثريب في ذلك ؛ فلي معظم الذنب ذنبي . صحيح ان هذا كله محض هذيان . وصحيح كذلك انني كنت اعرف انها تهذي ؛ ولم ادخل ذلك في حسابي . ولعلها الآن غير مستطيعة ان تغفر ذلك لي . وحتى هذا الفرض لا يفسر الا سلوكها الحالي . ولكن ما قبل ذلك ؟ ان هذيانها او بحرانها بعد كل شيء ومرضها لم يكونا من العنف بحيث ينسيانها تماما ما كانت تفعله عندما جاءت الى بخطاب دي جري . فلابد انها كانت مدركة ما هي صانعة .

وبسرعة القيت نقودي الورقية وكومة الذهب على الحشية . وغطيتها كلها بمفرش السرير وخرجت بعد عشر دقائق من انصراف بولينا . وكنت متأكدا انها ذهبت الى حجرتها ؛ ونويت الذهاب الى جناح الجنرال خلسة كي اعرف من المربية في البهو كيف حال السيدة الشابة . وكم كانت دهشتي عندما قابلتني المربية على السلم وقالت انها كانت قادمة الى بحثا عن بولينا التي لم تعد ؛ فقلت لها : « لقد فارقتني هذه اللحظة . اعني منذ عشر دقائق؛ فاين تراها ذهبت ؟ » .

ونظرت الي المربية نظرة تأنيب .

وفي هذه الاثناء كانت اغرب الشائعات تنتشر في ارجاء الفندق ، فقد جرى التهامس في حجرة بواب البهو وفي غرفة رئيس السقاة ان الآنسة اندفعت في الساعة السادسة صباحا خارجة من الفندق وجرت في اتجاه فندق انجلترا . واستطعت ان اتبين من كلماتهم وتلميحاتهم انهم يعلمون انها كانت قد قضت الليل في حجرتي . ومن الواضح ان شئون كل فرد في اسرة الجنرال قد غدت موضع مناقشة عامة . فالكل كانوا يعلمون ان الجنرال كاد يفقد صوابه بالامس ؛ وكان يصرخ ويجأر بصوت عال سمعه كل من في الفندق.

وقيل ايضا ان العجوز التي كانت قد نزلت بالفندق والدته . وانها تجشمت مشاق الحضور من روسيا لتحول دون زواج ابنها من الآنسة بلانش دي كومنج ، وفي حالة عصيانه ارادتها ستحرمه من ميراثها ، ولما كان قد عصاها تعمدت الكونتس ان تخسر كل اموالها في الروليت امام عينيه ، حتى لايبقى له شيء منها ! وقال كبير السقاة وهو يهز رأسه مستنكرا : « يا لهؤلاء الروس ! » تضحك الآخرون . واعد كبير السقاه الفاتورة . وكانت انباء ربحي في القمار قد غدت من المعلومات العامة. وكان كارل خادم دهليزي اول من هنأني ، ولكني كنت مشغولا بأمور اخرى ، فاندفعت الى فندق انجلترا .

وكان الوقت لم يزل مبكرا ، ومستر استلي لايستقبل احدا . ولكنه لما علم بقدومي خرج الى في الدهليز ووقف امامي ساكنا مسلطا نظراته الباردة كالرصاص على وجهي ، منتظرا مني ان اتكلم . وعلى الفور سألته عن بولينا . فاجاب مستر استلي ، وهو لم يزل ينظر الي بثبات وامعان ولايحول عينيه عن وجهي : « انها مريضة » فقلت : « هي اذن حقا معك ؟ » فقال : « نعم . هي معي » . فسألته : « أتنوي ان تحتفظ بها معك ؟ » فقال : « نعم . انوي هذا » فقلت : « ولكن هذا يامستر استلي سيخلق فضيحة . انه مستحيل . ثم هي مريضة . ولعلك لم تلاحظ هذا » . فقال : « بل لاحظت . وانا نفسي قلت لك انها مريضة . ولو لم تكن مريضة لما قضت الليل معك » . فقلت : « انت اذن تعرف هذا ايضا ؟ » . فقال : « اعرف هذا ايضا . وكان ينبغي عليها ان تأتي الى الليلة الماضية ، وكنت سآخذها الى احدى قريباتي : ولكنها لمرضها – نسيت وذهبت اليك انت خطأ » . فقلت له : « حقا ! نهنئني اذن يامستر استلي ! وبالمناسبة ، المهتني بكلامك خاطرا : او لم تكن واقفا تحت نافذتنا طول الليل ؟ الآنسة بولينا ظلت تحملني على ان افتح النافذة واطل منها لأرى هل انت تحت نافذتنا ، وضحكت عندئذ كثيرا » . فاجاب بقوله : « حقا ؟ كلا . انا لم اقف تحت نافذتها : بل انتظرت في الدهليز ورحت ادور في ارجائه وادور » . فقلت : « ولكنها يامستر استلي في حاجة الى علاج طبي » . فقال : « نعم . وقد أرسلت في طلب طبيب ، واذا ماتت ستؤدي لي انت حسابا عن موتها » . فدهشت وقلت : « لماذا يامستر استلي ؟ ماذا تعني بهذا ؟ » . فقال : « اليس

صحيحا انك ربحت مائتي الف تالر بالامس ؟ » . فقلت : « بل مائة الف فلورين فحسب » . فقال : « ارايت ؟ لابد ان تذهب الى باريس هذا الصباح بالذات » . فسألته : « ولماذا لابد ان اذهب ؟ » . فقال مستر استلي موضحا وكانه يقرأ كلماته في كتاب مفتوح : « كلما حصل روسي على نقود في جيبه ذهب فورا الى باريس » . فقلت : « وماذا اصنع في باريس في الصيف ؟.. اني احبها يا مستر استلي ! .. وانت تعرف هذا جيدا جدا » . فقال : « حقا ؟ انا مقتنع بعكس هذا . ثم انك ببقائك هنا ربما خسرت كل ماتملك ولن يبقى معك ما يحملك الى باريس. ولكن وداعا ، فانا واثق بانك ستذهب اليوم الى باريس ». فقلت له : « حسن جداً . وداعا . ولكني لن اذهب الى باريس. ارجوك فقط ان تفكر يامستر استلي في امر ذلك علينا جميعا ! وقصارى القول ان الجنرال ... ثم هذه المغامرة من جانب الآنسة بولينا — سوف تنتشر في البلد كلها » . فقال : « نعم. في البلدة كلها . ولا اكاد اظن الجنرال مشغولا بهذا ، فلديه امور اخرى يفكر فيها . والآنسة بولينا لها كامل الحق في ان تعيش حيث تشاء . اما عن الاسرة فيمكن ان يقال بكل الانصاف انه لم يعد لها وجود » .

وانصرفت مبتسما من ثقة هذا الانجليزي الغريبة اني لابد ذاهب الى باريس . وقلت في نفسي : « انه سيتحداني للمبارزة مع ذلك ويقتلني ان ماتت الآنسة بولينا . يالله من مازق ! » . واقسم اني كنت آسفا لبولينا ، ولكن حبي اياها — وان بدا هذا غريبا — منذ لحظة وصولي الى موائد القمار في اليوم السابق وشروعي في تكديس لفافات النقود — اخذ فيما يبدو لي يتراجع الى المؤخرة . اقول هذا الآن ، ولكني في ذلك الوقت لم اتبينه بوضوح . فهل انا اذن مقامر حقيقي ، وهل كان حبي لبولينا ... غير حقيقي الى هذه الدرجة ؟ كلا ! بل لم ازل احبها ، علم الله ! وقد عانيت وتعذبت باخلاص وانا اغادر المستر استلي لاذهب الى الفندق ، وملت نفسي كثيرا . ولكن . اوه ! ولكن عندئذ حدث احمق شيء ممكن .

كنت مسرعا الى جناح الجنرال عندما فتح فجأة — غير بعيد من حجرته — باب في الدهليز وناداني شخص باسمي . وكان هذا الشخص السيدة الارملة كومنج ، التي كانت تناديني بامر من الآنسة بلانش ، فدخلت حجرة الآنسة بلانش . وكانتا تستأجران جناحا

صغيرا من حجرتين . وضحكت وصاحت الآنسه بلانش مسمونه من حجره النوم ، وهى تتأهب لمغادرة الفراش : « أهذا هو ؟ ابيل اذن ... اصحيح انك ربحت جبلا من الذهب والفضه ؟ الذهب احب الى ! » فاجبتها ضاحكا : « صحيح تماما ! » فقالت : «كم؟» فقلت : « مائه الف فلورين ! » فقالت « مرحى ! كم انت ابله ! تعال هنا . فلست استطيع سماع شىء مما تقول : سنلهو ونعربد، اليس كذلك ؟ » ..

ودخلت حجرتها حيث وجدتها ترقد متكاسلة تحت غطاء تبرز منه كتفاها السمراوان البديعتان ـ كتفان لايرى المرء مثيلا لهما الا فى الاحلام ـ ولا يسترها الا قميص شفاف مزين بمخرمات كالثلج : تناسب بشرتها السمراء الصفيه وتبرز روعتها. وما ان وقع بصرها على حتى صاحت : « ياولدى ! انك قلب ؟ » وانفجرت ضاحكة ، وكانت ضحكتها دائما فى منتهى المرح . واحيانا تبدو طبيعية جدا . واستطردت مثرثرة :

ـ « اسمع . ابحث لى اولا عن جوربى وساعدنى فى ارتدائه ، ثم ـ ما لم تكن ابله جدا ـ ساخذك الى باريس . فانا ذاهبة الى هناك فورا ، كما تعلم » .

ـ فورا ؟

ـ فى مدى نصف ساعه !

والواقع ان كل شىء كان محزوما ، وكل حقائبها وامتعتها معدة للرحل على الارض ، وكانت القهوة قد قدمت منذ وقت طويل .

ـ والآن ! سأريك باريس ان شئت ! وقل لى ما المؤدب الخاص؟ لقد كنت ابله عندما عملت مؤدبا خاصا . واين جوربى ؟ البسنى اياهما . اسمعت ؟

ومدت قدما صغيرة بديعة حقا ، سمراء غضبة اللون ، ليس فيها تشوهات مثل معظم الاقدام الصغيرة التى تبدو مع هذا فاتنة داخل الاحذية غالبا . فضحكت وبدات اسحب الجورب الحريرى صاعدا به فوق ساقها . وكانت الآنسة بلانش جالسة فى تلك الاثناء على حرف السرير تثرثر :

ـ وماذا تصنع اذا اخذتك معى ؟ فى المقام الاول اريد خمسين الف فرنك ، ويمكنك ان تعطينى اياها فى فرنكفورت . وتذهب الى باريس . وهناك سنعيش معا ، وساريك النجوم فى ضحوة النهار، وسترى نساء لم تر لهن مثيلا من قبل . اسمع ...

ـ على رسلك ! ان اعطيتك خمسين الف فرنك ، فماذا يبقى لى انا ؟ . .

ـ مائة وخمسون الف فرنك . هل نسيت ؟ ثم انى اوافق على ان اعيش معك فى مسكنك شهرا ؛ نحن الاثنان فقط ، ونحن طبعا سننفق هذه المائة وخمسين الف فرنك فى شهرين . هانت ترى انى طفلة طيبة ؛ اقول لك كل شىء سلفا . ولكنك سترى النجوم .

ـ كل هذا فى شهرين ؟

ـ ايفزعك هذا ؟ يا لك من عبد حسيس ! الا تعلم ان شهرا واحدا من مثل هذه الحياة يساوى عمرك كله؟ شهر واحد ؛ وبعده الطوفان ! ولكنك لا تستطيع ان تفهم . اذهب ! انصرف ! لست اهلا لهذا : هيه ! ماذا تصنع ؟

وكنت فى هذه اللحظة اضع الجورب فى قدمها الاخرى ، ولكنى لم استطع منع نفسى من تقبيل تلك القدم ؛ فجذبتها وراحت تركلنى فى وجهى باطراف اصابع قدمها ، واخيرا طردتنى ؛ وهى تصيح فى اعقابى :

ـ سانتظرك ان شئت ايها المؤدب الخاص ، فبعد ربع ساعة ساكون قد رحلت !

وعدت الى حجرتى وانا اشعر ان راسى يدور ويدور . اكان الذنب ذنبى لان الآنسة بولينا قذفت بلفافة النقود فى وجهى ، وفضلت فى اليوم السابق المستر استلى على ؟ ان بعض اوراق النقد المتناثرة لم تزل ملقاة على الارض ؛ فجمعتها ، وعندئذ فتح الباب وبرز منه رئيس السقاة بنفسه (الذى لم يكن قبل هذا يتنازل بالنظر الى) ليسالنى الا احب ان انتقل الى طابق ادنى فى جناح فاخر اخلاه لتوه الكونت ف. ووقفت لحظة غارقا فى التفكير ثم صحت :

ـ فاتورتى ! انى راحل فورا ، فى مدى عشر دقائق !

وقلت لنفسى : « الى باريس اذن . مادام هذا قدرى ! »

وبعد ربع ساعة كنا ثلاثتنا فى ديوان عائلى بالقطار : انا والآنسة بلانش والسيدة الارملة كومنج . وما ان وقع نظر الآنسة بلانش على حتى انفجرت فى ضحك هستيرى ؛ وحذت الارملة كومنج حذوها . ولا استطيع ان اقول انى شعرت بالمرح تماما . لقد تحطمت حياتى ، ولكنى منذ الامس تعودت ان اقامر بكل شىء على رهان واحد . وقد يكون صحيحا ان النقود افقدتنى عقلى . ولعلنى لم اكن اطلب

ما هو افضل من هذا . وخيل الى ان تغييرا وقتيا ـ وقتيا فقط بالطبع ـ قد طرا على حياتي : « سوف اعود بعد شهر واحد ، وعندئذ ... ستقابل يامستر استلى ! » . ولكنى اذ اتذكر هذا كله الآن ، يبدو لى اننى حتى فى تلك اللحظة كنت حزينا ، مع اننى ضحكت من قلبى مع البلهاء الصغيرة بلانش .

وكانت بلانش تصيح متوقفة وسط الضحك وآخذة فى سبى بكل جد : « ماذا تريد اكثر من هذا ؟ ما اغباك ! ما اغباك حقا ! ليكن اذن ! ليكن ! سننفق مائتى الف فرنكك ، ولكن لا تنس انك ستكون سعيدا مثل ملك صغير . سأعقد لك ربطة عنقك بيدى ، واقدمك الى هورتنس . وبعد ان ننفق كل نقودك ستعود وتحطم البنك مرة اخرى . ماذا قال لك هذان اليهوديان ؟ ان الشيء الوحيد العظيم هوالجسارة، ولديك الجسارة ، وستأتينى فى باريس بالاموال مرارا وتكرارا . اما انا فاريد ايرادا سنويا خمسين الف فرنك وعندئذ ... » فسألتها : « والجنرال ؟ » فقالت : « اوه. الجنرال ! انه كما تعلم يذهب دائما فى هذه الساعة ليشترى لى طاقة زهر. وهـذه المرة امرته ـ عمدا ـ ان يفتش عن اندر الازهار . وسيعود المسكين ويجد الطائر قد طار من القفص . وسيطير وراءنا . سترى ! هاهاها ! ساكون مسرورة بذلك جدا ، لانه سيكون نافعا لى جدا فى باريس . والمستر استلى سيدفع نفقاته هنا ... »

وهكذا حدث اننى ذهبت الى باريس .

الفصل السادس عشر

ماذا اقول من باريس؟ لقد كان كل شيء بالطبع هذيانا وجنونا. ولم أمكث الا اكثر قليلا من ثلاثة اسابيع فى باريس ، نفدت خلالها كل المائة الف فرنك التى املكها . ولا اتكلم الا عن مائة الف فرنك واحدة ، لان المائة الف فرنك الاخرى اعطيتها للآنسة بلانش عدا ونقدا . خمسين الفا فى فرنكفورت ، وسندا بخمسين الف فرنك بعد ثلاثة ايام فى باريس ، حملتنى بعد ذلك باسبوع على سدادها اليها نقدا وقالت لى : « والمائة الف الباقية لنا سنأكلها معى ياموَدبى الخاص » . ولم تمل قط من مناداتى بهذا اللقب . ومن العسير تصور شيء اشد تدقيقا فى العمليات الحسابية ، واحكام التدبير ، والشح ، من مثيلات الآنسة بلانش . ولكن هذا التدقيق والشح فيما يتعلق بأموالهن الخاصة فحسب . اما فيما يتعلق بالمائة الف فرنك التى تخصنى فقد قالت لى بصراحة ، فيما بعد انها بحاجة اليها كى تستقر فى البداية بباريس : « والآن هأنذا قد استقر بى المطاف على اساس محترم الى الابد ، ولن يقدر احد بعد هذا ان يشردنى . ولن اسمح بهذا ابدا » . والواقع اننى لم اكد ارى اثرا لهذه المائة الف فرنك ، لانها هى التى تولت امر النقود منذ البداية . اما كيس نقودى – الذى كانت تفتشه كل يوم – فقلما كان يحتوى على اكثر من مائة فرنك ، بل اقل من ذلك فى الغالب .

كانت تقول لى بكل سذاجة وبراءة : « وماحاجتك الى النقود؟» ولم اكن اجادلها . ولكنها اثثت شقتها على مستوى محترم جدا بهذه النقود . ولما ارتنى اياها قالت : « انظر ما الذى يمكن عمله باقل المبالغ مع الاقتصاد وحسن الذوق ! » واقل المبالغ فى هذه الحالة يعنى خمسين الف فرنك ! وبالخمسين الاخرى اشترت مركبة وجوادين مطهمين ، واقمنا فضلا عن هذا حفلين راقصين ، او حفلتين ليليتين ، حضرتهما هورتنس وليزيت وكليوباترا – وهن

نساء مرموقات من وجوه كثيرة ، وذوات حسن غير عادي . وفي هاتين الحفلتين اجبرت على القيام بدور المضيف ـ وهو اشد الادوار بلاهة ـ ورحبت وسليت تجارا من محدثي الثراء ، وعددا من الضباط الشبان ، ورجالا عسكريين غاية في الجهل وقلة الحياء ، وبعض صغار الكتاب والصحفيين ، الذين حضروا في ملابس السهرة الحديثة الطراز ، لابسين قفازات بلون القش ، وراحوا يختالون في تبجح لايفارن به ما يحدث في بطرسبرج نفسها ، وهذا في حد ذاته شيء كثير ! بل وحاولوا ان يسخروا مني ، ولكني شربت الكثير من الشمبانيا ، واويت الى حجرة داخلية رقدت فيها ، لاني وجدت ذلك كله منفرا الى اقصى حد . وكانت الآنسة بلانش تقول عنه : « انه مؤدب خاص . ربح مائتي الف فرنك ، ولولاي ما عرف كيف ينفقها . وبعدها سيرتد معلما من جديد ، ايعرف احدكم عملا له ؟ فلابد من عمل شيء له ! » .

واكثرت من الاقبال على شرب الشمبانيا ، لاني كنت اشعر بحزن شديد وسام عميق طول الوقت . اذ كنت اعيش في اشد الاجواء بورجوازية ، حيث يحسب حساب كل سحنوت. واستطعت ان اتبين في بلانش الكره لي في اول اسبوعين . اجل كانت هي التي تتولى الاشراف على ارتداء ثيابي ، وتربط لي رباط عنقي بيديها ، ولكنها في اعماق فؤادها كانت تزدريني باخلاص . ولم الق بالي اطلاقا الى هذا . وتحت تاثير القلق والكآبة بدات اذهب يوميا الى « قصر الزهور » حيث كنت اسكر كل ليلة بانتظام ، وتعلمت رقصة « الكان كان » وصارت لي فيها شهرة . واخيرا اكتشفت بلانش حقيقتي . وكانت قد كونت عني فكرة جعلتها تعتقد اني ـ طيلة مدة معيشتنا معا ـ ساتبعها ومعي ورقة وقلم رصاص لاحسب كم انفقت، وكم سرقت ، وكم ستنفق وتسرق في المستقبل. وكانت مقتنعة بالطبع انه ستنشب مشاجرة هائلة على كل فرنك ، وكانت قد اعدت دفاعها مقدما لكل هجمة تتوقعها من جانبي. ومع انه لم يحدث من جانبي اى هجوم ، الا ان سلوكها معي كان دفاعيا طول الوقت . وكانت احيانا تبدا بمنتهى الحدة ، ولكنها حينما تجدني لا اقول شيئا ، بل اتراجع فقط واستلقي على المضجع بلا حراك ناظرا الى السقف ، كانت تبدي دهشتها وحيرتها. وفي البداية ظنتني غبيا ـ مجرد مؤدب خاص ـ وتتوقف وسط كلامها وتقول لنفسها ـ ربما ـ انه غبي « فلماذا اوحي اليه باشياء لا يفكر فيها

مادام لا يفهم شيئا من تلقاء نفسه » وتغادر الحجرة كي نعود بعد عشر دقائق (ويحدث هذا عندما نسرف في التبذير بما يتجاوز مواردنا بكثير ، فقد باعت مثلا حصانيها واشترت حصانين جديدين بستة عشر الف فرنك) وتقول وهي مقبلة نحوي :

ـ اذن انت يابيبي لست غاضبا مني ؟

ـ لا ..! كفى عن هذا !

وادفعها بعيدا عني بيدي ، فيبدو لها هذا غريبا جدا ومثيرا لفضولها . فتجلس بجواري .

ـ « انما دفعت فيهما هذا المبلغ لانها صفقة رابحة ، اذ يمكن بيعهما بعشرين الف فرنك » .

ـ وهو كذلك . وهي كذلك . جياد رائعة ! والآن صارت لك مركبة فخمة وجوادان . وسيكون هذا نافعا ، فلا لزوم للكلام عن هذا بعد الآن ؛ من فضلك !

ـ انت اذن غير غاضب ؟

ـ ولماذا اغضب ؟ خيرا تصنعين اذ تزودين نفسك بكل هذه الاشياء . ستنفعك فيما بعد . فاني اراك تريدين تثبيت وضعك على مستوى معين ، والا لما امكنك ان تجمعي مليونا . فالمائة الف فرنك ليست الا بداية . قطرة في بحر !

وما ان تسمع بلانش مني هذه الاقوال ، بدلا من الصيحات والملام ، حتى تذهل وتقول :

ـ اهكذا انت اذن ؟ ولكنك اذن ذو ذكاء وفهم ! اتدري يافتى؟ انك قد تكون معلما ، ولكن كان ينبغي ان تولد اميرا ! انت اذن لاتبالي بانفاق نقودك ونفادها بهذه السرعة ؟

ـ بل كنت اتمنى ان تنفد باسرع من هذا . عليها اللعنة !

ـ ولكن ... قل لي ... االنت غني ؟ انت في الحقيقة تزدري المال اكثر مما ينبغي . ما الذي ستصنعه بعد ذلك ؟ قل لي ؟

ـ بعد ذلك، ساذهب الى همبرج واكسب مائة الفـفرنك اخرى.

ـ نعم . نعم . هذا رائع ! اعرف انك ستكسب وتأتي الى هنا بمكاسبك . قل لي ! انك هكذا ستجعلني اقع في غرامك بسرعة ! وساحبك طول الوقت اذا ظللت هكذا ، ولن اخونك ابدا . ولئن لم احبك كل هذا الوقت فلاني اعتقدت انك لست سوى مؤدب خاص (شيء مثل الحاجب او الخادم . اليس كذلك ؟) الا اني كنت مخلصة لك لاني فتاة طيبة .

ـ لا اريد شيئا من اكاذيبك ! وماذا عن البرت ، هذا الضابط الاسود الحاجبين ، الم اركما فى آخر مرة ؟
ـ أوه . كلا . ولكنك ...
ـ اكاذيب . اكاذيب ! اتحسبيننى غاضبا ؟ وماذا يهمنى . لايمكنك ان تطرديه الآن لانه كان هناك من قبلى وانت تحبينه ، ولكن اياك ان تعطيه نقودا . اتسمعيننى ؟
ـ اذن فانت لست غاضبا بسبب هذا ايضا ؟ انت اذن فيلسوف حقيقى ! فيلسوف حقيقى ! ساحبك ! ساحبك ! سترى ! وستكون راضيا !
والحقيقة انه منذ تلك اللحظة بدا فى الواقع انها اخذت تتعلق بى ، بل وتكن المشاعر الودية نحوى ، وعلى هذا النحو امضينا ايامنا العشرة الاخيرة معا . ولم ار « النجوم » الموعودة . ولكنها من بعض النواحى برت بوعدها . فضلا عن انها قدمتنى لهورتنس، التى كانت امراة مرموقة جدا على طريقتها الخاصة ، وكانت معروفة فى محيطنا باسم « تيريز الفيلسوفة » .
ولكن لا جدوى من الالحاح على هذا كله ، فقد يصلح موضوعا لقصة اخرى ، ولا معنى لادخال هذا « اللون المحلى » فى هذا السرد . والواقع اننى كنت اتوق من كل قلبى الى انتهاء هذه العلاقة باسرع ما يمكن . ولكن المائة الف فرنك ـ كما قلت ـ صمدت قرابة الشهر ـ الامر الذى ادهشنى كثيرا ، فقد اشترت بلانش لنفسها اشياء بثمانين الف فرنك على الاقل ، ولم تنفق على مصروفنا اليومى اكثر من عشرين الف فرنك . وقد صارحتنى بلانش (التى كانت صريحة معى قرب النهاية فهناك على الاقل امور لم تكن تكذب على فيها) ان ابة ديون اضطرت اليها لن تؤثر على . « فانا لم اجعلك توقع اى فواتير او سندات ، لانى كنت اشفق عليك . واى امراة اخرى كانت خليقة ان تصنع هذا لتؤدى بك الى السجن . فهانت ترى كم احبك ، وكم انا طيبة القلب ! وذلك الزواج الملعون وحده سوف يكلفنى مبلغا جسيما ! » .
وقد جرى الزواج فعلا فى نهاية شهرنا ، وانفقت عليه البقية الباقية من المائة الف فرنك . وبذلك ختمت علاقتنا او شهرنا ، ثم انسحبت رسميا من حياتها .
وحدث الامر هكذا . فبعد استقرارنا فى باريس باسبوع وصل الجنرال وتوجه مباشرة الى بلانش واقام معنا تقريبا بعد الزيارة

الاولى ، وان كان قد استاجر شقة صغيرة في مكان ما . وقد استقبلته بلانش بفرح ، وبالصيحات والضحكات ، واوشكت ان ترتمي بين ذراعيه . وفي النهاية كانت هي التي رفضت ان تتركه ينصرف ، وصار عليه ان يتبعها في كل مكان تذهب اليه : في البولفار ، وفي نزهاتها بالمركبة ، وفي المسرح ، وفي الزيارات. فهو لم يزل لائقا لهذه المهام ، لان منظره مهيب ، ومحترم للغاية ، وطويل القامة ، مصبوغ اللحية والشارب ، ووجهه متميز وان كان منتفخا قليلا ... وسلوكه ممتاز ، وبزته الفراك ملائمة له تماما. وجرى في باريس على لبس نياشينه . ومرورها في البولفار مع رجل كهذا لم يكن امرا سديدا فحسب ، بل ممتازا ايضا . وكان الجنرال الطيب الابله قانعا جدا بهذا الدور . ولم يكن اقام حسابه على هذا الاساس عندما جاء الى باريس ، بل ظهر امامنا وهو يكاد يرتجف من الخوف ، وفي حسبانه ان بلانش ستصرخ في وجهه وتطرده . فلما اتجهت الامور في هذا المسار استخفه الطرب ، وقضى شهرا بطوله في سعادة بلهاء . وهذه هي الحالة التي تركته عليها . ولم اعرف الا هنا بالتفصيل ما حدث بعد سفري غير المتوقع من رولتنبرج : فقد اصيب الجنرال بنوبة في ذلك الصباح نفسه وخر فاقد الوعي ولبث اسبوعا بطوله شبه مجنون ، ولكنه فجاة تخلى عن كل شيء واستقل القطار الى باريس . وكان استقبال بلانش خير دواء له بالطبع . ولكن بقية من آثار مرضه لازمته مدة طويلة برغم مرحه ونشوته ، فلم يعد قادرا على الاشتراك في المناقشات . او في اي محادثة لها نصيب من الجدية . واقصى ما كان يستطيعه في هذه الحالات ان يرد على كل كلمة بقوله : « هممم ! » ويومىء براسه . وكثيرا ما كان يضحك . وفي احيان اخرى يجلس متجهما ساعات طويلة ، وقد عقد حاجبيه الكثيفين مقطبا. وكانت هناك اموركثيرة جدا لايستطيع اطلاقا ان يتذكرها، وغدا شارد الذهن بصورة يستحيل تصورها ، وادمن التحدث الى نفسه . وكانت بلانش الشخص الوحيد الذي يستطيع انعاشه . والحقيقة ان نوبات وجومه عندما ينسحب الى احد الاركان لا تعني شيئا سوى انه لم ير بلانش منذ مدة طويلة ، او انها ذهبت الى مكان ما بدونه ، او من غير ان تلقي بالها اليه قبل انصرافها . وعندما يكون في هذه الحالة لايستطيع ان يقول ما الذي يريده ، ولا يكاد يدري كم هو حزين وواجم . وبعد ان يجلس

على هذا النحو ساعة او ساعتين (وقد لاحظت ذلك مرة او مرتين كانت بلانش قد خرجت فيهما طول اليوم ؛ ولعلها ذهبت الى البرت) ياخذ فى التلفت حوله والتململ وكأن هناك ما يجب عليه البحث عنه . ولما لايرى احدا ، ولا يستطيع مع هذا ان يتذكر ما الذى كان سيسأل عنه ، يتردى من جديد فى حالة شرود الى ان تصل بلانش فجاة ، فنجرى نحوه ، وتربته ، بل وتقبله احيانا ـ ولكن هذا لا يحدث كثيرا . وقد بلغ من فرط فرح الجنرال ذات مرة برؤياها انه بكى فعلا ـ وقد ادهشنى هذا كثيرا .

ومنذ اللحظة التى ظهر فيها بيننا بدات بلانش تدافع عنه ضدى، فعدت فصيحة فى ذلك فعلا، وذكرتنى بانها خدعت الجنرال لاجلى، وانها كانت تعد بمثابة المخطوبة له ، ووعدته بهذا فعلا ، وانه لاجلها هجر اسرته ، واننى اخيرا كنت اجيرا لديه وينبغى ان انذمر بهذا واخجل من نفسى . ولم اقل شيئا ، بيد أن لسانها انطلق وانطلق . واخيرا انفجرت ضاحكا ، وعندئذ انتهى الامر؛ اعنى انها بدات تظننى مغفلا ، وبالتالى عدتنى شخصا لطيفا سهل القياد. ونصارى القول اننى حظيت اخيرا بكسب مودة هذه الفتاة القيمة ! فقد كانت بلانش بعد كل شىء فتاة رائعة المزاج جدا ، على طريقتها الخاصة بالطبع ، ولم اكن قد عرفت قيمتها الحقيقية فى البداية) وصارت تقول لى قرب نهاية مدتى : « انت شخص بارع دمث الطبع .. ومن اسف انك .. انك مغفل الى هذا الحد ! ولذا لن تجمع ثروة ... ابدا ! »

وكانت كثيرا ما تقول عنى انى روسى قح ، وترسلنى لارتاض مع الجنرال ، على نحو ما ترسل خادمها ليتنزه كلبها وبريضه . وكنت آخذه الى المسرح والمطاعم والمرقص المتحرك . وكانت بلانش تعطينى نقودا لهذا الغرض ، مع ان الجنرال كانت معه نقوده الخاصة ، وكان شغوفا باخراج حافظته امام الناس . وكدت ذات مرة استخدم القوة البدنية لمنعه من شراء « بروش » بسبعمائة فرنك راقه فى الباليه روبال ، وكان يريد تقديمه لبلانش . فما قيمة بروش بسبعمائة فرنك بالنسبة لها ؟ وكان كل راسمال الجنرال لايزيد على الف فرنك . ولم استطع ان اكتشف من اين جاء بها ، واظن مصدرها مستر استلى الذى دفع له فاتورة الفندق . اما من موقف الجنرال منى طول تلك المدة فلا اظن انه طاف بخلده واقع العلاقة بينى وبين بلانش . نعم انه كان يدرك ادراكا غامضا

انني كسبت مبلغا ضخما من المال ، الا انه كان يحسبني اشبه بسكرتير منزلي لبلانش ، او ربما كنت خادمها ــ ومهما يكن من شيء فقد ظل يخاطبني كذي قبل ، اي بتنازل ، على نحو مايخاطب الأعلى من هم ادنى منه مرتبة . وكان يروقه ان يوبخني احيانا . وقد سلاني انا وبلانش كثيرا ذات صباح اثناء الافطار . ولم يكن في الحقيقة سريع الغضب ، بيد انه هذه المرة استاء مني فجأة . ولم ازل حتى اليوم اجهل ما هو السبب . ولا احسبه يدري ذلك هو شخصيا . وقد بدأ الكلام صائحا بانه سيلقنني درسا وانني جرو وسيريني مركزي ، وما الى ذلك . ولم يكن احد يدري مدار هذا الحديث . وانفجرت بلانش ضاحكة . واخيرا هداناه واخذناه للنزهة . وبهذه المناسبة كثيرا ما لاحظت انه يكتئب ــ كمن يتحسر على احد او على شيء ، او كمن يفتقد احدا ــ حتى لو كانت بلانش في الحجرة . وقد حاول مرة او مرتين عندئذ ان يفضي بذات نفسه الي ، بيد انه لم يستطع ذلك ، لان خواطره كانت تعود به دائما الى ايام خدمته في الجيش ، والى زوجته الاولى ، وشئونه ، وضيعته . ويعثر على كلمة تروقه ويظل يرددها مائة مرة طول اليوم مع انها لا تعبر عن مشاعره ولا عن افكاره . وحاولت ان اكلمه عن طفليه ؛ لكنه كان يبعدني من هذا الموضوع بعباراته السريعة ، ويغير الموضوع باسرع ما يمكن : «نعم نعم . الطفلان . الطفلان معك حق . الطفلان !»ولم تبد عليه العاطفية الا مرة واحدة ونحن في المسرح ، اذ انفجر فجأة قائلا : « هذان الطفلان العاثرا الحظ . نعم ياسيدي ! انهما لعاثرا الحظ ! » وفي تلك الامسية كرر عدة مرات قوله : « الطفلان العاثرا الحظ! » . وعندما ذكرت اسم بولينا ذات مرة انفجر غضبه وصاح : « هذه المرأة الجاحدة ! انها شريرة وجاحدة ! لقد لطخت الأسرة بالعار ! ولو كان هنا اي وجود للقانون لجعلتها تلعق التراب ! » . واما دي جري فلم يكن يطيق ذكر اسمه « لقد جر علي الخراب ! وسرقني ، وسلخني حيا ! وكان كابوسي هاتين السنتين الأخيرتين ! كنت احلم به شهورا متوالية ! ذلك ... ذلك ... اوه ! لا تحدثني ابدا عنه ! » .

ورأيت انه يوشك ان يصل مع بلانش الى نوع من الاتفاق ، ولكني كالعادة لم اقل شيئا . وكانت بلانش اول من صارحني ــ وكان ذلك قبل فراقنا باسبوع تقريبا ــ اذ قالت لي : « انه

لمحظوظ ! فالجدة مريضة الآن نملا وستموت قطعا . وقد وصلت برقية من مستر استلى .. وهو بعد كل شيء وريثها . وحتى ان لم يكن وريثها فهو لا يعترض طريق احد ، ولديه في المقام الاول معاشه . ويستطيع في المقام الثاني ان يقيم في الحجرة الجانبية ويكون بذلك في غاية السعادة . واصبح انا « السيدة الجنرالة » واختلط بالمجتمع الراقي (وكان هذا حلم بلانش الدائم) وبعد ذلك اغدو مالكة اراض روسية ، ولي قصر حصين ، وعبيد ارض ، ويكون عندي دائما المليون الذي اتمناه ! » .

ـ ولو فرضنا انه بدأ يغار .. ويطالب بحقوقه الزوجية ؟.. انت فاهمة طبعا !

ـ اوه لا ياصديقي ! لن يجسر ! لقد اتخذت احتياطاتي ، فلا تقلق ، فقد جعلته يوقع عدة سندات لالبرت ، فاذا تجاسر على اي شيء تلقى عقابه فورا . لن يجسر !

ـ تزوجيه اذن !

وتم الزفاف واعلن بدون ضجة ، في حفل عائلي ، ودعي اليه البرت وعدد من المقربين . اما هورتنس وكليوباترا ومن اليهما فتجوهل امرهما تماما . وكان العريس شديد الاهتمام بوضعه . وربطت بلانش بنفسها عقدة رباط رقبته ، ورجلت له شعره ، وبدا في الفراك والصدار الابيض « كما يجب تماما » . وقالت بلانش وهي خارجة من حجرة الجنرال :

ـ انه مع هذا كما يجب تماما .

وكان هذه الفكرة لم تدهشها . ولم اهتم بالتفصيلات كثيرا ، وشاركت فيها جميعا كمتفرج خلي البال ، حتى انني نسيت الكثير مما حدث . وكل ما اتذكره ان بلانش اتضح انها ليست من أسرة كومنج اطلاقا ، وكذلك امها كان اسمها الحقيقي دي بلاسيه . ولماذا اتخذتا اسم كومنج ، لست ادري . ولكن هذا ايضا بدا انه راق الجنرال كثيرا ، فاحب اسم دي بلاسيه اكثر مما كان يحب دي كومنج . وفي صباح القران راح يذرع ارض قاعة الرقص، بملابسه الكاملة ، مرددا بكل وقار ومهابة مرارا وتكرارا :

« الآنسة بلانش دي بلاسيه ! بلانش دي بلاسيه ! دي بلاسيه ! »

وكان الرضا يضيء ملامحه . وفي الكنيسة ، وفي مقر العمدة ، وفي البيت ، وعلى مائدة المشهيات لم يكن مرحا راضيا فحسب ، بل كان فخورا مزهوا ايضا . وكانما اصابهما كليهما شيء ما ، فبلانش

نفسها كانت تبدو مهيبة وفورا ! وقالت لى بكل جد :

ـ ينبغى الآن ان يكون سلوكى مختلفا . ولكننى نسيت شيئا يضايقنى جدا . تصور انى لم استطع حتى الآن ان اتعلم اسم اسرتى الجديد « زاجوربانسكى » زاجوربانسكى ! السيدة الجنرالة دى ساجو .. دى ساجو ... يا لهذه الاسماء الروسية اللعينة . السيدة الجنرالة ذات الاربعة عشر حرفا ساكنا ! كم هذا لطيف ومستحب ! أليس كذلك ؟

واخيرا افترقنا . وبكت بلانش البلهاء فعلا عندما قلت لها وداعا . وقالت لى وهى تنتحب :

ـ لقد كنت طفلا لطيفا ! كنت اظنك غبيا ابله ، وهكذا كنت تبدو ...

وبعد ان ضغطت على يدى ضغطة اخيرة حارة هتفت فجاة : « انتظر ! » واندفعت الى حجرة زينتها وعادت بعد دقيقة بورقتى نقد من فئة الألف فرنك ، وهو شىء ماكنت لاصدقه ، وقالت لى :

ـ ستنفعك ! قد تكون مؤدبا خاصا ذا تعليم راق . ولكنك رجل شديد الحماقة . وماكنت لاعطيك اكثر من الفين والا اضعتها على كل حال . والآن وداعا ! وسنكون دائما صديقين حميمين ، واذا كنت مرة اخرى تعال عندى ، وستكون سعيدا جدا !

وكانت معى خمسمائة فرنك باقية من نقودى ، ومعى ساعة تساوى الف فرنك ، وازرار قميص من الالماس وما الى ذلك ، ولذا يمكننى ان اعيش فترة طويلة بدون قلق . وقد ذهبت عمدا لاعيش فى تلك البلدة الصغيرة ليتسع امامى الوقت للتفكير فى كل شىء ، واهم ما فى الامر انى اتوقع حضور مستر استلى ، فقد عرفت من يقين انه سيمر من هنا ويبقى يوما وليلة بسبب اشغاله . وساعرف كل ما يمكن معرفته عن كل شىء . وبعد ذلك ساذهب فورا الى همبرج ؟ لن اذهب الى رولتنبرج قبل العام القادم على كل حال . ويقال انه من دواعى النحس ان يجرب المرء القدر مرتين على التوالى فى مكان واحد، ثم ان المغامرة الحقيقية تجرى فى همبرج .

الفصل السابع عشر

مضى الآن عام وثمانية اشهر منذ نظرت في هذه المذكرات ، وهانا اعود اليها الآن التمس تلهية من تعاستي الشديدة . وكانت هذه المذكرات قد توقفت عند اعتزامي الذهاب الى همبرج .. رباه ! باى بال خلى نسبيا كتبت تلك السطور الاخيرة . ولا اعنى بقلب خلى تماما ، بل بكل الثقة ، وبكل الامل الوطيد الذى لاينزعزع ! وهل كنت اكن للحظة واحدة اقل شك في نفسى ! وها الآن قد مر اكثر من عام ونصف وقد صرت ـ فيما اظن ـ اسوأ حالا من متسول ! ولكن ما التسول ! وماذا يهمنى من الفقر؟ لقد حطمت حياتى ببساطة ! بل ليس هناك من اقارن نفسى به ، ولا حاجة بى الى وعظ نفسى او لومها . فماذا يمكن ان يكون اسخف من المواعظ في مثل هذا الاوان ! آه من هؤلاء المتحذلقين ! باى لطف يسمع هؤلاء الثرثارون امثالهم واقوالهم المأثورة ! آه لو عرفوا مدى ما ارى نفسى قد انحطت اليه من هوان ، اذن لما طاوعهم قلبهم على تقريعى ! واى جديد يمكن ان يقولوه لى ليس لى به علم من قبل؟ وليس هذا بيت القصيد ايضا . بيت القصيد ان دورة واحدة من العجلة يمكن ان تغير كل شىء ، وعندئذ يكون هؤلاء الوعاظ الاخلاقيون (انا واثق بهذا) اول من يقبلون على بنكاتهم وتهنئاتهم الودية . فالناس لن يشيحوا عنى عندئذ على نحو ما يصنعون الآن . ولكن الى الجحيم كل هؤلاء ! ماذا انا الآن ؟ صفر ! ماذا يمكن ان اغدو غدا ؟ غدا قد انهض من بين الموتى وابدا الحياة من جديد . غدا قد استطيع انعاش روحى التى بين جنبى قبل ان تموت !

لقد ذهبت حقا الى همبرج وقتئذ ، ولكنى ... ذهبت بعد ذلك الى رولتنبرج مرة اخرى ، ثم الى سبا. والى بادن بادن ايضا حيث عملت خادما خاصا للمستشار هنتزه ، وهو وغد سبق أن عملت لديه قبل ذلك . ثم ظللت اعمل خادما خمسة اشهر كاملة !

وقد حدث هذا بعد مغادرتي السجن مباشرة : لاني سجنت في رولتنبرج بسبب ديوني . وهناك شخص مجهول اشترى كل ديوني. من هو ؟ مستر استلي ؟ بولينا ؟ لا ادري . ولكن الذي ادريه ان الديون سددت ومجموعها مائتا تالر، واطلق على اثر ذلك سراحي). وابن عساي اذهب ؟ ذهبت الي ذلك الوغد هنتزه وكان شابا ازرقا مغرما براحته الشخصية ، وانا اتكلم واكتب بثلاث لغات . وفي البداية استخدمني بمثابة سكرتير . ونقدني ثلاثين جولدنا في الشهر، ولكني انتهيت بان عملت مجرد خادم لديه : لأنه لم يعد قادرا على استخدام سكرتير : وخفض راتبي . ولم يكن امامي مكان اذهب اليه ، فبقيت ، وانتهى بي الأمر ان صرت خادمه الشخصي . ولم احصل وانا في خدمته على كفايتي من الطعام والشراب ، بيد اني استطعت مع هذا ان ادخر سبعين جولدنا في خمسة اشهر. وذات ليلة في بادن بادن قلت له اني اريد تركه . وفي تلك الليلة بعينها ذهبت الي مائدة الروليت . ولكم دق قلبي حينئذ ! ولم يكن المال هو ما اقدره . كلا ! بل كل ما كنت اريده في ذلك الحين أن يتكلم عني امثال هنتزه ورؤساء السقاة والسيدات الراقيات في بادن بادن اذا جاء الغد ، ويتناقلون قصتي : منعجبين لأمري . منثنين علي ، ومنحنين اكبارا امام مكاسبي الجديدة . وكانت هذه كلها احلاما وتمنيات طفولية ، ولكن... من يدري، فلعلي اقابل بولينا : وتبين لي أن اخبرها : فترى اني فوق كل هذه التقلبات الصاعدة الهابطة التي يرمينا بها القدر ! ليس المال ما يشغل بالي ! فانا على يقين لو حصلت عليه اني كنت سابدده مرة أخرى على مثيلات بلانش ، واركب عربتي اجوب بها ارجاء باريس ثلاثة اسابيع : يجرها جوادان ثمنهما ستة عشر الف فرنك ! لانني متاكد من انني لست شحيحا ولا مقترا ، بل اعد نفسي متلافا . ومع هذا باي قلق ، وباي قلب خافق اسمع صيحة مراقب اللعب : « واحد وثلاثون ! الاحمر ! باس ! اربعة ! الاسود ! مانك ! » وباي لهفة وتعطش ارقب مائدة القمار التي تنتشر فوقها الجنيهات الذهبية والفريدريشدورات ، والتاليرات : واعمدة الذهب التي تنساب من مجرفة مراقب اللعب في كومات متوهجة كاللهب ، او اعمدة الفضة الطويلة التي تتناثر فوق العجلة ! بل اني وان كنت على بعد قاعتين من حجرات المقامرة اكاد انفجر من التشنجات لمجرد سماعي شنشنة النقود التي تصب على المائدة .

ولكم كانت تلك الليلة التي اخذت بها جولداناتي السبعين الى مائدة القمار رائعةجدا ! وبدات بوضع عشرة جولدنات على «باس»، وكان لدى شعور بالنظير من باس . وخسرت . وبقى معى ستون جولدنا من الفضة ، وبعد تفكير اخترت الصفر ، وبدات بوضع خمسة جولدنات كل مرة على الصفر . وفي المرة الثالثة ظهر الصفر . وكدت اموت فرحا عنـــــــدما تلقيت ١٧٥ جولدنا ، ولم اكن بمثل هذه السعادة عندما كسبت مائة الف جولدن . وعلى الفور وضعت مائة جولدن على الاحمر . وكسب الاحمر . ووضعت المائتى جولدن كلها على الاحمر مرة اخرى ، وكسب الاحمر . فوضعت الاربعمائة جولدن كلها على الاسود ، وكسب الاسود . ووضعت الثمانمائة جولدن كلها على « مانك » وكسب المانك . وهكذا صار معى الف وسبعمائة جولدن ، بما في ذلك المبلغ الذى بدات به ، وذلك في اقل من خمس دقائق ! اجل . ان مثل هذه اللحظات يمكن ان تنسيك كل مرات فشلك السابقة ! وانا على الاقل كسبت هذا المبلغ بالمجازفة بما هو اكثر من حياتي ! لقد جرؤت على المجازفة ، وهانذا انتمى مرة اخرى الى الكائنات البشرية !

واستاجرت غرفة ، واغلقت على نفسى بابها بالمفتاح وجلست اعد نقودى الى نحو الساعة الثالثة صباحا . وفي اليوم التالى استيقظت وانا لم اعد خادما . وقررت الذهاب الى همبرج في ذلك اليوم بالذات . فهناك لم اعمل قط خادما ولم اكن سجينا . وقبل قيام القطار بنصف ساعة ذهبت لاراهن مرتين لا اكثر ، وخسرت الفا وخمسمائة فلورين ، ومع هذا كله ذهبت الى همبرج . وهانذا في همبرج منذ شهر .

انى اعيش في قلق مستمر بالطبع ، اراهن بمبالغ صغيرة في انتظار ان يحدث شيء ما ، واقوم بحسابات معقدة ، واقف اياما متوالية امام مائدة القمار اراقب اللعب ، بل انى احلم باللعب في الليل ، ومع هذا اشعر طول الوقت كما لو كنت قد تحولت الى حجر ، او كانما انا تمثال من الطين . واقول هذا تاسيسا على الانطباع الذى تركه لدى مستر استلى . ولم نكن قد التقينا منذ ذلك الحين ، ثم تقابلنا مصادفة . وقد جرى الامر على هذا النحو: كنت امشى في البستان وانا احدث نفسى باننى شبه مفلس ، ولكن معى على كل حال خمسين جولدنا ، فضلا عن انى دفعت كل التزاماتي امس الاول في الفندق الذى استاجر فيه حجرة صغيرة

كالزنزانة . وهكذا اجد معى ما يكفى لجولة اخرى على مائدة الروليت . واذا كسبت مضيت فى الراحة ، واذا خسرت تعين على ان اعمل خادما مرة اخرى ، ما لم اجد بعض الروس هنا بحاجة الى مؤدب خاص . واستغرقتنى هذه الخواطر وانا اتابع نزهتى اليومية فى البستان ثم فى الغابة الى ان خرجت الى الكونتية المجاورة . وكنت اظل امشى على هذا النحو احيانا اربع ساعات تماما ، واعود الى همبرج جائعا متعبا . وبمجرد بروزى من الحديقة الى البستان لمحت مستر اسلى على اريكة خشبية ، وكان هو الذى رآنى اولا ونادانى باسمى . وجلست بجواره . ولما لاحظت عليه بعض التحفظ هبطت درجة سرورى الذى كان عظيما لرؤيته . وقال :

ـ اذن فأنت هنا ! ظننت فعلا انى سألتقى بك . لا تتعب نفسك باخبارى بأى شىء ، فأنا اعرف كل شىء عن حياتك فى هذه السنة الاخيرة والثمانية الاشهر .

ـ ها ! اذن فانت تتعقب اخبار اصدقائك القدامى ! تذكرك اياهم يشرفك ! ولكن انتظر لحظة .. لقد خطر لى الآن خاطر . الم تكن انت الذى اشتريت دينى وسددتها واخرجتنى من سجن رولتنبرج حيث كنت معتقلا لدين مجموعة مائتا جولدن ؟ فقد خلصنى من السجن شخص مجهول .

ـ كلا ! انا لم اخرجك من سجن رولتنبرج حيث كنت معتقلا بسبب دين مقداره مائتا جولدن ، ولكنى كنت اعرف انك نزيل السجن لدين مقداره مائتا جولدن .

ـ اذن لابد انك تعرف من الذى انقذنى ؟

ـ لا . لا استطيع ان اقول اننى اعرف من الذى انقذك .

ـ هذا غريب ! فلا احد من الروس هنا كان يعرف اى شىء عنى . ولست اظن انهم يوفون دينى لينقذونى . فالروس لا يساعدون بعضهم بعضا الا فى روسيا . وكنت دائما طول هذا الوقت ان منقذى لابد ان يكون مخبولا من الانجليز ، صنع ذلك لمجرد غرابة الاطوار .

واصغى لى مستر اسلى بشىء من الدهشة ، ولعله كان يتوقع ان يجدنى مهموما مكتئبا .

ـ انا على كل حال مسرور جدا لرؤيتك محتفظا باستقلالك النفسى ، بل وفى حالة نفسية عالية .

وكانت لهجته وهو يقول لى ذلك غير مستحبة : فقلت له ضاحكا :

ـ وانت تعنى بهذا انك غاضب داخليا لانك لم تجدنى مقهورا ولا مثبط العزم .

ولم يفهم مرادى على الفور ، ولكنه عندما ادركه على حقيقته ابتسم قائلا :

ـ لقد كنت دائما احب ظرفك فى الكلام . وهاندا اعرف فى هذه الكلمات صديقى القديم الحكيم المتحمس ، والساخر المتهكم فى الوقت نفسه . والروس وحدهم هم القادرون على ان يجمعوا فى انفسهم كل هذه العناصر المتناقضة فى آن واحد . وانه لصحيح ان المرء يحب ان يرى خير اصدقائه فى حالة هوان . وهذه حقيقة قديمة ، يعرفها كل الحكماء . ولكن فى الظرف الراهن اؤكد لك انى مسرور بصدق لانك غير مكتئب . قل لى . الا تنوى ان تتخلى عن المقامرة ؟

ـ لتذهب المقامرة الى الجحيم ! انى مستعد ان اتخلى عنها هذه اللحظة لو . . .

ـ لو استطعت ان تسترد خسائرك ؟ هذا ماظننته . لاتسترسل فى الكلام ، فانا اعرف ان هذه الكلمات افلتت منك عفوا ، ولهذا فهى الحق . وقل لى ، الا تصنع شيئا اطلاقا عدا المقامرة ؟

ـ لا شيء !

فالقى على استلى نظرة فاحصة . وكنت لا اعرف شيئا ، بل قلما كنت القى نظرة على الصحف السيارة . ولم افتح كتابا واحدا طيلة هذه المدة . فقال لى :

ـ لقد تحجرت ! فانت لم تنبذ الحياة ، والاهتمامات الخاصة والعامة على السواء فحسب . ولاواجب المواطن والانسان فحسب ، ولا اصدقاءك ، ولك نفر منهم كما تعلم ، فحسب ، ولم تنبذ اى هدف كان عدا الربح فحسب ، بل انك نبذت ذكرياتك نفسها . وانى اذكرك فى فترة متوقدة من حياتك ، ولكنى واثق بانك نسيت كل انطباعاتك الصالحة فى ذلك الزمان ، واحلامك وامانيك الراهنة لا تتجاوز الزوجي والفردي والاحمر والاسود والاثنى عشر رقما الوسطى وما الى ذلك .

فصحت فى ارتباك وغيظ يكاد يصل الى حد الغضب : «حسبك يا مستر استلى ! لا تذكرنى بهذا ، ارجوك ! واود لو عرفت اننى

لم انس شيئا على الاطلاق ، ولكنني طرحت كل شيء من ذهني مؤقتا ، بما في ذلك ذكرياتي الى ان . . . الى ان اتمكن من تحسين احوالي بصورة جدرية . وعندئذ . عندئذ ستراني انهض من بين الموتى ! » فقال : « بل ستكون هنا بعد عشر سنوات . واما مستعد للمراهنة بأني ساذكرك بهذا كله ـ أن عشت ـ هنا ؛ على هذه الاريكة الخشبية ، بعد عشر سنوات من اليوم ! »

فقاطعته بصبر نافد قائلا :

ـ حسبك ! ولكي اثبت لك اني لم انس الماضي تماما ، اسمح لي ان اسألك : اين الآنسة بولينا الآن ؟ فان لم تكن انت الذي اشتريت ديوني واطلقت سراحي ، فهي قطعا التي صنعت ذلك . ولم اسمع كلمة عنها طيلة هذه المدة .

فقال بحزم ، يكاد يكون غضبا :

ـ لا . لا . لا اظن انها هي التي اشترت ديونك . فهي في سويسرا الآن ، واكون شاكرا لك جدا ومدينا بالفضل ان كففت عن سؤالي عن الآنسة بولينا .

فضحكت سرورا لا ارادي وقلت : « معنى هذا انها جرحتك جرحا عميقا ايضا » . فقال : « ان الآنسة بولينا افضل وارقى البشر من اهل الارض ، ولكنني اكرر عليك أني اكون مدينا لك بالفضل ان كففت عن سؤالي عن الآنسة بولينا . فانت لم تعرفها ، قط ؛ واعد ورود اسمها على لسانك اهانة لمشاعري الخلقية » .

ـ حقا ! ولكنك مخطىء في هذا . ثم عن اي شيء آخر عداها يمكن ان اتحدث اليك ؟ ان كل ذكرياتنا تنحصر في هذا دون سواه . ولكن لا تقلق ، فليست عندي اي رغبة في معرفة احوالك الخاصة الداخلية . . . فكل اهتمامي منحصر في الموقف الخارجي للآنسة بولينا ، او في ظروفها الخارجية الراهنة . وهذا شيء يمكن قوله في بضع كلمات .

ـ طبعا ؛ بشرط أن تكون هذه الكلمات القلائل كل شيء . لقد ظلت الآنسة بولينا مريضة فترة طويلة من الزمن . بل هي مريضة الآن . وقد عاشت بعض الوقت مع والدتي وشقيقتي في شمال انجلترا . ومنذ ستة اشهر توفيت جدتها ـ تلك المجنونة التي لا شك في انك تذكرها ـ وتركت لها شخصيا سبعة آلاف جنيه . والآنسة بولينا مسافرة الآن مع عائلة اختي ، التي تزوجت اخيرا . وقد شملت وصية الجدة اختها واخاها الصغيرين بما يكفيهما ، وهما الآن في

مدرسة بلندن . اما الجنرال ، زوج أمها ، فمات بالفالج منذ شهر في باريس . وقد عاملته الآنسة بلانش معاملة حسنة ؛ ولكنها تمكنت من الاستيلاء على كل ما تركته له الجد ، واحسب هذا كل شيء !

ـ ودي جري ؟ أهو مسافر ايضا في سويسرا ؟

ـ كلا . دي جري ليس مسافرا في سويسرا . ولست ادري اين دي جري الآن . ومرة اخرى واخيرة اندرك بالكف عن مثل هذه التعويضات المهينة ، والا كان لك حساب معي .

ـ ماذا ؟ برغم صداقتنا السابقة ؟

ـ نعم برغم صداقتنا السابقة .

ـ الف معذرة يا مستر استلي ! ولكنك تعلم حقيقة انه لا محل هنا للاساءة . فليست اللوم الآنسة بولينا على اي شيء اطلاقا . واما من ذكر ذلك الفرنسي بمناسبة الكلام عن شابه روسية معينة ، فمسألة يا مستر استلي معقدة جدا الى درجه يتعذر على كل منا ان يفهمها تمام الفهم .

ـ ان وعدت بعدم ذكر اسم دي جري بمناسبة ذكر اسم آخر ، فنى اسالك ان تفسر لي بوضوح ما الذي تعنيه بقولك « الفرنسي بمناسبة الكلام عن شابة روسية » ؟ اى نوع من التوارى تسمى هذا القول ؟ ولماذا تصر على وجود فرنسي وسيدة روسية ؟

ـ ها انت ترى يامستر استلي انك انت ايضا مهتم بذلك. ولكنها حكاية طويلة ! ولابد من معرفة الشيء الكثير سلفا . ومع هذا فالمسألة مهمة ، مهما بدت سخيفة لاول وهلة . فالفرنسي يا مستر استلي مصبوب في قالب منمق ، فاتن . وقد لا تقر هذا كانجليزي ، وانا كروسي لا اقره ايضا ، ولكن الدافع الى هذا قد يكون الحسد . اما سيداتنا الشابات فلهن راى مختلف . وقد تجد راسين متكلفا ، ملتويا ، مضمخا بالعطر ، وقد لا تقراه . وانا ايضا أجده متكلفا ملتويا مضمخا بالعطر ، بل اجده سخيفا مضحكا من بعض النواحي . ولكنه فاتن يا مستر استلي ، وهو قبل كل شيء شاعر عظيم ، سواء احببنا هذا أم لا . وقد بدا القالب القومي للرجل الفرنسي ـ اعني الباريسي ـ في الظهور بهذه الفتنة منذ كنا لم نزل دببة . وقد ورثت الثورة الفرنسية هذا القالب عن النبلاء . والآن تجد اى فرنسي من الطراز الشائع ذا سمت وسلوك مهذب وحيل وتعبيرات ، بل وافكار من اشد ما يكون فتنة ، من غير ان يكون لتلقائيته او قلبه أو روحه اى دخلٌ في هذا النمط الشكلي . وقد ورث هذا كله من اسلافه .

ولا نزاع في ان هذا لا يمنع ان يكون احمق الناس .

والآن يامستر استلي ينبغي ان اقول لك انه ليس في العالم من هو اصرح واخلص من شابة روسية طيبة ذكية غير معروفة التكلف . ويستطيع مثل دي جري منى ظهر في دور معين ، متحمس ، ان يكسب قلبها بكل سهولة ويسر . فهو استاذ الشكل الفاني يا مستر استلي . والسيدة الشابة تخال هذا القالب الشكلي صميم روحه وحقيقة فؤاده ، وليست مجرد ثياب ورثها عن اسلافه . ومهما كان هذا كريها لديك ، فلابد لي من القول بان الانجليز في الغالب مرتبكون منفرون الى الاناقة ، والروس سريعوا الفطنة الى الاناقة سريعوا الانحياز لها . ولذا تحتاج نساؤنا ولاسيما فتياتنا . الى ما لا يتوفر لهن من استقلال العقل والحرية كي يعرفن ان يجدن جمال الروح واصالة العقل . ويحتجن بلا شك الى مزيد من الخبرة . والآنسة بولينا – واستميحك العفو لان اسمها افلت من لساني – بحاجة الى وقت طويل جدا كي يستقر رايها على تفضيلك على ذلك الوغد دي جري . انها قد تقدرك ، وتغدو صديقتك ، وتمنح قلبها كله لك ، ولكن ذلك الوغد الحقير والمرابي الخسيس البغيض دي جري سيظل هو المهيمن على قلبها . وقد لا يكون مرجع ذلك الا العناد والغرور ، لان دي جري بدا لها ذات مرة في هالة الماركيز الانيق ، والليبرالي الحصيف ، وحاول اقناعها بانه فقد كل ثروته لانقاذ اسرتها وذلك الجنرال المختل العقل . وقد افتضحت كل هذه الالاعيب بعد ذلك : ولكن ما اهمية هذا ! انها لم تزل ظامئة الى دي جري الغابر – هذا ما تريده ! وكلما ازداد احتقارها لدي جري الحالي ، زاد حزنها على دي جري الغابر ، مع انه لم يوجد قط الا في مخيلتها . هل انت من مكرري السكر يامستر استلي ؟

– بلى ! انا عضو في شركة لوفل الشهيرة لتكرير السكر .

– هذا اذن هو الوضع يا مستر استلي : على احد الجانبين منشغل بتكرير السكر ، وفي الجانب الآخر المقابل ابولو بلفدير . وهذا شيء لا يستقيم يا مستر استلي كما تعلم ! وانا لست شيئا ، حتى ولا منشغلا بتكرير السكر ، بل مجرد مقامر على نطاق صغير على مائدة الروليت . بل كنت خادما يوما ما ، والآنسة بولينا تعرف هذا بلا شك ، لان لديها قطعا خدمة بوليسية جيدة .

فقال مستر استلي بهدوء ، بعد لحظة تفكير :

– انت ممرور . وهذا هو سبب تدفقك بهذا الهراء كله . وليس

بما قلت ادنى طرافة او اصالة .

ـ ليكن ! ولكن هذا يزيد الامر بشاعة يا صديقي النبيل . فمهما كان ما قلته باهتا سوقيا هزليا ، فهو مع هذا حقيقي وصادق . فانا وانت لم نربح شيئا .

فقال مستر استلي وقد اضطرب صوته ولمعت عيناه :

ـ هذا هراء فارغ . لان .. لان .. دعني اذن اقل لك ايها الرجل الجاحد الخسيس العاثر الحظ انني اتيت الى همبرج بناء على طلبها كي اقابلك ؛ واتحدث اليك حديثا طويلا حميما ، ثم احدثها بعد ذلك عنك وعن مشاعرك وافكارك وآمالك .. وذكرياتك .

فصحت وقد تدفقت الدموع من عيني لاول مرة في حياتي :

ـ احقا ؟ حقا ؟ ..

ـ نعم ايها الانسان الشقي المنكود ! لقد احبتك : واستطيع ان اقول لك هذا لانك رجل محطم . وحتى لو قلت لك انها لم تزل تحبك فانا واثق بانك ستبقى هنا . نعم . انت حطمت حياتك . ان لك مواهب . وعقلا متوقدا ، ولم تكن ابدا شخصا سيئا . بل كان من الممكن ان تغدو نافعا لوطنك المحتاج اشد الحاجة الى ابنائه . ولكنك تبقى هنا ، وبذلك تنتهي حياتك . انا لا الومك ، فالروس جميعا ـ فيما ارى ـ هكذا ، او ميالون الى ان يكونوا هكذا . ولو لم توجد الروليت ، لوجدوا شيئا آخر من نفس النوع . وما اقل الاستثناء من هذه القاعدة . ولست اول من فشل في فهم معنى العمل ! ولست اتكلم الآن عن فلاحيكم ! فالروليت احب شيء الى الروس . وحتى الآن ظللت شريفا ، وفضلت ان تكون خادما على احتراف اللصوصية . ولكن التفكير في احتمالات المستقبل يروعني . والآن كفى ! ووداعا ! انت بحاجة الى نقود طبعا ؟ ها هي عشرة جنيهات ذهبية مني . ولن اعطيك اكثر من هذا لانك ستقامر بها جميعا على كل حال . خذها . والآن وداعا ! خذها !

ـ كلا يا مستر استلي . بعد كلّ هذا الذي قيلْ ..

فصاح بي :

ـ بل خذها ! وانا متأكد انه لم تزلْ لديك بقية من المشاعر الراقية ، واقدم لك هذا المال على نحو ما اقدمه لصديق حقيقي . ولو استطعت ان اتأكد من انك خليق ان تقلع عن القمار وتترك همبرج لتعود الى وطنك لاعطيتك فورا الف جنيه لتبدأ حياة جديدة بها . ولكني لا اعطيك الف جنيه ، بل عشرة لان الالف والعشرة سيان في الوقت

الحاضر لديك . وستخسرها كلها على أي حال . خذها اذن . ووداعا !
ـ سآخذها ان انت سمحت لي ان اعانقك مودعا .
ـ أوه . اما هذا ، فبكل سرور .. !
وتعانقنا عناقا قلبيا ، وانصرف مستر استلي .
كلا ! انه مخطىء ! ولئن كنت ابله ومتهورا فيما قلته عن بولينا ودي جري ، فقد كان هو متهورا ومتسرعا في احكامه على الروس . ولست اقول شيئا عن نفسي . ومع هذا ، مع هذا لا شيء من ذلك كله له قيمة حاليا . فهذه كلها أقوال محض أقوال . ونحن بحاجة الى اعمال . سويسرا هي بيت القصيد الآن . آه لو استطعت غدا أن اذهب الى هناك ، كي ابعث للحياة من جديد . لابد ان اريهم ... وان ترى بولينا اني ما زلت رجلا .. وقد يكون الوقت متاخرا اليوم . ولكن غدا ... ولكن لدي ارهاصا شعوريا : لا يمكن ان يخيب ! معي الآن خمسة عشر جنيها ، وقد بدات مرارا من قبل بخمسة عشر جولدنا . فان بدات الآن بحذر شديد ، طبعا . ويعينا . اما لست طفلا . يقينا انني اعلم اني مفلس ومدمر ، ولكن لماذا لا اعود الى الحياة مرة اخرى ؟ . نعم ! كل ما يجب ان اتوخاه هو الحذر والصبر . هذا كل ما احتاج اليه ! يلزمني مرة في عمري ان اكون حازما ، وفي ساعة واحدة استطيع ان اغير مصيري كله . ان المهم قوة الطبع . ويلزمني فقط ان اتذكر ما حدث لي قبل سبعة اشهر في رولتنبرج ، قبل الفشل الاخير . ولقد كنت يومئذ آية في الحزم ! كنت قد خسرت كل شيء . كل شيء .. وكنت خارجا من الكازينو عندما شعرت فجأة في جيب صداري بشيء يتحرك . كان قد بقي معي جولدن واحد ، وقلت في نفسي : « استطيع اذن ان اشتري لنفسي غداء » . ولكن بعد ان سرت مائة خطوة نحوها غيرت رأيي وعدت . ووضعت ذلك الجولدن على « مانك » . والحقيقة ان هناك شيئا خارقا وراء احساس المرء انه وحيد في بلد اجنبي ، بعيدا عن وطنه واصدقائه ، ولا يدري ماذا سيأكل في يومه ، واذا به يغامر بآخر جولدن معه . وكسبت ، وبعد عشرين دقيقة غادرت الكورسال وفي جيبي مائة وسبعون جولدنا . هذه حقيقة ياسيدي ! فانظر ماذا يستطيع الجولدن الاخير ان يصنع ، وما يمكن ان يعنيه ! ولو كنت يومئذ ولم اجازف ...
هذا اذن . غدا سنرى ماذا يكون ...

تمت